



الموناليزا صورة ليوناردو ده فنشي المشهورة
[راجع وصفها في صفحتي ٤٣٧ و ٤٣٨ من هذا الجزء]

امام صفحة ٣٩٧

مقتطف ديسمبر ١٩٣٤

م
مترامي
خطبة
بمقد في
الكوز
وامرار
بل هو
زطاتها
اماس
ساعة و
وخ
كفرد
(١)

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٤

٢٣ شعبان سنة ١٣٥٣

اثر العلم الحديث

في خلق الفرد وخلق الجماعة^(١)

— ١ —

موضوع حديثنا الليلة ، « اثر العلم الحديث في خلق الفرد وخلق الجماعة » . وهو موضوع متراعي الاطراف وبعيد الغور في آن واحد . لا نستطيع ان نلسم اطرافه ولا ان نحيط بجوانبه في خطبة واحدة ولا في كتاب واحد . وقد لا يكون ذلك في مستطاع رجل واحد . فالعلم الحديث بتد في الناحية النظرية من الذرة واقسامها الى الشمس والكبار والسدم العظيمة المنشورة في رحاب الكون المتباعدة بعضها عن بعض ، ومن دراسة الاحياء على اختلاف قبيلها واقسامها وانواعها وامرار كفاحها واساليب توارثها الصفات على كثر الدهور ، الى دراسة الانسان سيّد المخلوقات ، بل هو يسمو او يحاول ان يسمو الى دراسة العقل الانساني وخفايا التفكير واطوار النفس على نظمها المتباينة . اما من الناحية العملية فالعلم الحديث متغلغل في بناء الحضارة الحديثة ، لان الآلة اساس هذه الحضارة ، تسيطر على نواحي العمل فيها ، واحوال الاجتماع البشري ، فلا تكاد نعيش ساعة واحدة من دون ان نحتاج في خلالها الى الآلة او الى بعض منتجاتها

وخلق الانسان هو مجموعة الطبائع والتقاليد والمقاييس الادبية والاجتماعية التي يقيس بها اعماله كفرد ، او كعضو في جماعة من حيث الضرر والنفع والخير والشر . فهو متصل باطوار اجتماعه

(١) المحاضرة التي القاها رئيس تحرير المقتطف في نادي جمعية الشبان المسيحية في القدس بدعوة منها

على سطح الارض ، متأثر باحوال معاشه واقتصاده ، وقواعد تفكيره واصول علمه ، متلون بوجه عام بنظرتيه العامة الى الكون والحياة
ولكن هذا التشعب في الموضوع ، وهذه العواصة المنبثقة في ارجائه ، المستمدة من اتصاله باصول الحياة الانسانية وادوار الاجتماع البشري ، يجب ان لا تحول دون المامعة عجلي ببعض نواحيه .
بل ان هذه الامامة السريعة لا بد لنا منها ، لان الامر ، غير مقتصر على فكاكة عقلية ، نتمتع بها ساعة وننساها ، بل هو متغلغل في حياتنا اليومية ، وتفكيرنا في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، وسلوكنا الاجتماعي بوجه عام افراداً وجماعات

فنحن ايها السيدات والسادة ، نعيش في عصر تسير امجاد العلم في ركابه ، وتبارى مواكب الامم في ظل لوائه الخفاق ، وتنبث حقائقه واصوله في كل ما جل وهان من شؤون حياتنا اليومية سواء أكانت عملية ام غير عملية

سرحوا الطرف في جنبات هذه الردهة الزاهية بحضوركم ، فاذا ترون ؟ انواراً متلاثلة استنبط العلم طاقتها من قوى كامنة في ذرات المادة المتناهية في الصغر ، وجدراناً أقامها العلم وسواها على اصول محكمة من الهندسة والكيمياء ، وحريراً صنعته العلم من مادة الخشب فغلب دودة الحرير في ميدانها ، وملابس اتقن العلم قتل اليفافا وصبغها وغزلها ونسجها بالآلات كأنها الاحياء ذكاء ، ولكنها تفوق الاحياء قوة ودقة ومضاء

او زوروا حقلاً من حقولكم الزراعية ، تروا فيها الاسمدة الكيميائية ، وقد حبس فيها نتروجين الهواء الطلق ، بقوة الكهرباء وحيلة التأليف الكيميائي ، واصنافاً من النبات والحيوان ، ثبتت فيها العلم الصفات والمميزات التي يرغب فيها الانسان ، وأمراضاً قد دانت لصبر العلماء وذكائهم وشوقهم الى استطلاع المجهول

او تأملوا أجسادكم ، كيف مكن العلم الاطباء من اسرار حياتها وقواعد صحتها واسباب مرضها ووسائل علاجها . فمن سبعين سنة كان الانسان لا يعرف شيئاً عن الجراثيم التي تسبب الامراض فاذا الهواء في نظرنا الآن يعج بهذه الأحياء الدقيقة ، المفيدة احياناً في التخمر والتحليل والدباغة والتجبن ، المضرة احياناً اخرى بما تنفثه في اجسام الاحياء من بواعث السقم . وقد أصبحت معرفتنا هذه سبيلنا الى استعمال المطهرات ومضادات الفساد واساليب التلقيح والحقن ، فنتقي بها عوادي الاوبئة قبل وقوعها ، او ندفع كوارث الامراض عن طوائف كبيرة من المصابين بها

أتيت مدينتكم التاريخية المجيدة أمس ، على جناح طائرة ، قطعت المسافة بين القاهرة والد في بضع ساعات ، مع ان بني اسرائيل قضوا في اجتياز صحراء سيناء اربعين سنة . او لم يأتكم نبأ الطيارين سكت وبلاك ، كيف اجتازا المسافة بين لندن وبورت داروين باستراليا في يومين وخمسة يوم ، مع ان

أُسرع البواخر لا تقطع هذه المسافة في أقلّ من شهر أو اربعين يوماً؟ ولو شاء مستسرّ جماعتكم الهام ، ان أخاطبكم وانا الى مكتبي في القاهرة ، لم لهُ ذلك . فالامواج غير السلكية اطوع لنا الآن من خاتم البنصر ، انها تحيط بالأرض حاملة على أجنحتها السحرية ، الصور والأبناء : أبناء النجاح وأبناء الخيبة ، أبناء السرور وأبناء الحزن ، أبناء الحرب وأبناء السلم ، أبناء المكتشفات الخطيرة التي تنشئ في التاريخ الانساني حدوداً للزمان ، وأبناء الصغار والمكائد التي تدلنا على ان هذا الانسان الذي بلغ تلك القمة من الابداع العقلي ، لا يزال طفلاً في مهد الروح

او تصوروا الطاقة العظيمة التي هي رهن تصرفنا الآن . زرت من بضع سنوات معمل هيسلند بارك في درويت ، حيث تصنع طائفة من سيارات فورد ، فدخلت الغرفة التي تولّد فيها الطاقة الكهربائية ، فاذا مولداتها الكهربائية تطلق اطلاقاً مستمرّاً طاقة قدرها ستون الف حصان او يزيد . وهي رهن اشارة مهندس فرد ، او نقر قليل من المهندسين ، يسيطرون عليها ويتصرفون بها كما يشاؤون . او خذوا سيارة من سيارات السباق التي استعملها السركم كبل على شاطئ ديتونا في اميركا . فالطاقة التي تنطلق بها السيارة كالسهم المارّ تبلغ قوة الف حصان مجتمعين . او تأملوا الطائرة التي كسب بها الملازم الايطالي «اجلي» قصب السباق في السرعة اذ بلغت سرعته نحو ٤٣٠ ميلاً في الساعة تجددوا طاقتها تحصى بأكثر من الف حصان . ولقد قدر احد علماء الاحصاء الحديثين ، ان الطاقة الميكانيكية المستعملة في الولايات المتحدة الاميركية المستمدة من الفحم ومساقط المياه وغير ذلك ، اذا وزعت على سكان تلك البلاد البالغين مائة وعشرين مليوناً او يزيدون ، بلغ متوسط ما يصيب الواحد منهم طاقة ثلاثين حصاناً !

او اخرجوا في ليلة صافية الاديم ، وارفعوا بصركم الى السماء ، واتخذوا من الفكر والتصور مطية ، ومن السرجيمز جيزر دليلاً ومرشداً ، تروا الكواكب تعد بالملايين او عشراتها ، والمسافات بينها لا تقاس الاً بملايين من سني الضوء ، ومع ذلك فأنتم لا ترون الاً كتلة واحدة او مجموعة واحدة من النجوم تعرف بالمجرة ، ورائها مجرات لا تحصى ، كأنها الجزائر الكبيرة منشورة في رحاب هذا المحيط الزماني المكاني الذي ندعوه الكون

فاذا كلّ البصر وزاغ العقل لمعظمة ما تشهدون ، تحولوا مع رذرفورد او احد اعوانه الى الجهة المقابلة ، الى الذرة التي منها مبدأ الكون المادي واليها المصير ، تروا فيها عالماً معقد البناء ، مؤلفاً من الالكترونات وبروتونات ونوترونات وبوزيترونات ، وكلها اصغر من ان يدركها اقوى ميكروسكوب يستطيع الانسان ان يصنعه ، بل ان رؤيتها معجزة وستبقى معجزة ، ما زال السبيل الى رؤيتها امواج الضوء الذي به نرى الاشياء . من هذه الدقائق التي لا تُرى ، وانما تعرف بأثرها ، تتألف العناصر ، غازية وسائلة وجامدة ، لينة وقاسية ، بيضاً وصفراً وحمراً ، الى آخر ما هنالك من صفاتها المتباينة . فاذا قيل لكم ان هذه الدقائق المادية ليست الاً كتلاً او مجموعات من الامواج ، وان

الخشب الذي تجلسون عليه والاحمر الذي تلون به الشفاه ايها السيدات وهذه الاجسام الحية التي نعيش بها وتطلع الى المثل العليا ، ليست الا امواجاً ، قلتم حديث خرافة ، ولكنه الحقيقة على قدر ما يستطيع العلم ان يعرف ما هي الحقيقة في وقت ما
فاذا تأملنا انواع الاحياء من حيوان ونبات ، على ضوء مذهب التطور ، اضطررنا ان نرتد مئات الملايين من السنين الى الوراء ، الى العصر الذي كانت فيه صنوف الاحياء تقتصر على اصول قليلة العدد ، بسيطة التركيب ، فما زال بها التحول الفجائي ، والتنازع على البقاء ، واحداث الصخر والجو والماء ، حتى تطورت هذا التطور الرائع ، في تحوله وتعدد نواحيه

— ٢ —

ايها السيدات والسادة : ان جسم الانسان يغتذي بعناصر البيئة التي يعيش فيها . غير وعناصر غذائه تصيبوا تغييراً في بنائه ، وصفاته الجسمية وما يقوم عليها من احوال العقل والروح ، بل لقد ذهب بعض العلماء الى ان قصر القامة في شعوب الصين واليابان حائد الى غذائهم الخاص . وان مرض الغواتر وما يتبعه احياناً من بِلادة العقل في بعض المقاطعات السويسرية سببه قلة اليود في غذاء سكانها كذلك العقل الانساني ، يغتذي بعناصر البيئة العقلية التي تحيط به ولا يستطيع ان يفلت منها . بدّلوا هذه البيئة ، ولا بدّ من ان تحدثوا تبديلاً ، في صورهم الذهنية ، واساليب نظره الى الاشياء ، والافراض العليا التي يسمو اليها . وهذه الصورة المصغرة التي رسمناها ، للعلم الحديث ، امرٌ جديد في حياة البشر ، يعود تاريخه الى النصف الاخير من القرن الماضي . فقد لا استغرب ان يكون بيننا الليلة ، من يذكر المعارك العقلية التي حمي وطيسها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بين اشياخ التطور وخصومه ، بين القس ولبرفورس والعلامة هكسلي . او من لا يزال يذكر الانباء الاولى عن التخاطب التلقوي وكيف قوبلت بالاعراض والريب . حتى السر وليم طمسن (لورد كلفن) امير علماء عصره ، دهش واعجب حين رأى تلفون « بل » الاول فصاح : إنها تتكلم
فليس بالامر العجيب ، اننا ونحن نعيش في عصر ، يحصي النجوم والمجرات بالوف الملايين ، ويقيس المسافات ببراسك^(١) الضوء ، وتاريخ الحياة على الارض بالوف القرون ، ويرجع الى الآلة في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة — في الزراعة والصناعة ، في المأكل والملبس ، في التعليم والفن ، — اقول ليس من العجيب ان تتأثر بهذا الجو الفكري ، حياتنا العقلية وصورتنا الروحية ، والمثل الخلقية التي نرمي اليها . بل العجيب كل العجيب ان تظل بمعزل عنه غير متأثرة به

ان أثر العلم في حياة الانسان ينبع من ثلاثة مصادر . الاول هو الانتفاع بفوائده التطبيقية وهي الفوائد التي نجمت عنها وسائل حفظ المدونات وتسهيل نشرها بطبع الوف من النسخ وتوزيعها في

مختلف الاقطار . وطرق المخاطبات والمواصلات السريعة ، التي قربت الامم والافراد ، بعضهم الى بعض وازالت الحواجز الجغرافية وتخطت الحدود السياسية ، وتنتائج العلوم الحيوية في اتقان طرق الزراعة وتحسين أنواع النباتات والحيوان وما انبثق منها من علوم الطب والصحة العامة التي مكنتنا من مكافحة الاوبئة واطالة متوسط العمر . واساليب الصناعة الواسعة النطاق ، التي تمكن رجلاً كفوراً من اخراج ثلاثة آلاف سيارة في اليوم ، او مصنعاً كأحد مصانع لنكشير واليابان الكبرى التي تنسج الوف اليردات من القطن او الصوف او الحرير في الساعة ، والتي مكنت أحد المهندسين من بناء آلة تصنع ثلاثة آلاف زوجة في الساعة من دون ان تمسها يد او ينفخ فيها نافع اما المصدر الآخر ، فهو الاسلوب العلمي في البحث ، الذي بنيت عليه جميع هذه المكتشفات والمخترعات . هذا الاسلوب الذي يتوخى الحقيقة في ميدان التجربة والملاحظة ، ولا يكتفي باستنباطها من التأمل في النفس او باستنتاجها من اقوال الائمة الاقدمين . قد يستعمل الاسلوب العلمي الاستنتاج في بعض مراتبه المتوسطة ، ولا هو يستغني عن انشاء النظريات لتفسير ما يحمله وتخطي ما يصدر سبيله . ولكن صفة المميزة هي التجربة ، ومرجع الأخير هو الملاحظة . فهو في قول العلامة ويدم « محكمة الحقائق » . وقد أصبحنا بعد ان تغلغل هذا الاسلوب في طرق تفكيرنا لانحاول ان نمتحن الاقوال التي تقال ، والآراء التي ترتأى ، بقياسها الى ما قاله ارسطوطاليس او افلاطون او غيرها . بل نبحت عنها بالرفش والمعول والنظارة المقربة والمجهر المكبر والمطياف وانايب الاغلاء والاحماء . فالحقائق التي كشف عنها هذا الاسلوب والآلات على اختلاف انواعها التي أفضى اليها تطبيقه ، بل والصفات التي يقتضيها من ممارسيه ، قلبت نظر الانسان ، الى الكون والحياة أما المصدر الثالث فهو التحوّل الدائم في مذاهب العلم والتنقيح المستمر في اصوله ومبادئه ، والتعديل الذي لا ينفك يدخله العلماء على حقائقه متفرقة ومجموعة . فالحقيقة العلمية ابداء بنت البحث المستمر وقلما يسري الظن الى عالم بأن ما يكشفه هو الحقيقة المطلقة . والا فهو ليس بالعالم العامل . نحن اذ نرى المذاهب العلمية المختلفة ، التي مكنتنا من حساب الخسوف والكسوف وبناء الآلات المختلفة بدقة متناهية ، تبدل وتغير وفقاً لما يكشفه البحث ، وتنهائم يقوم مكانها ما يقتضيه التنسيق العلمي ، يصعب علينا ان نؤمن بأن قواعد السلوك الانساني مطلقة ، وانها افرغت في قوالب ووضعت لها حدود لا يمكن ان تتعداها

كان الانسان في عصور الحضارات البدائية ، يعتقد ان الطبيعة متقلبة الاطوار ، وكان يسند الحوادث المختلفة ، التي تخيفه او تبهره الى آلهة مختلفة ، فللغاب اله وللجبل اله وللنهر اله وللبحر اله . فكان الناس يعالجون خوف الجوع بالذبايح والقرايين البشرية ارضاء لروح الحنطة ، وكانوا يتقربون بالضراعة الى روح النهر عند فيضان الانهر وطفيلاتها . وكانت صورة هذه الآلهة منتزعة في الغالب

من صور الناس انفسهم . فأنت تستطيع ان تداهنها وتملقها بالعطايا والقرايين ، وتستثيرها بالآثام وتسترضيها بالدعاء . اما ان تجري هذه الآلهة ، في صلاتها بالناس وفقاً لنظام له سنن ونواميس ، يمكن الكشف عنها واستطلاع خفاياها بالبحث والدرس ، فظلّ فكراً بعيداً عن عقل الانسان بوجه عام ، رغم الاماع اليه في اقوال بعض العلماء المتقدمين . فلما استخرج غليليو نواميس القوة والحركة واستنبط مبادئ الاتساق في بعض الافعال الطبيعية ، وتمكن هو وغيره من التنبؤ بوقوع الحوادث الفلكية فوقعت في المواعيد التي ضربوها ، اقتضى نجاحهم احداث تغيير اساسي في تفكير الناس ونظروهم الى تلك القوة العجيبة القائمة من وراء ظاهرات الكون العجيب

وكان « يهوه » في نظر الآباء العبرانيين ، اله القبيلة او الامة ، يدافع عنها في الحروب ، ويقيها شرّ اعدائها ، ويوطد لها سلطانها على الارض . وصوّر غيرهم الرب قاضياً جالساً في محكمته العليا وامامه القسطاس يقضي في الناس بالعدل او اياً رحماً يرحم بقدر ما يعدل

ولكن لما اثبت غليليو وكوبرنيكس وكبلر ، ان الارض ليست مركز الكون ، وانها ليست الاّ سياراً صغيراً يدور حول شمس متوسطة بين الوف الالوف من الشموس ، في مجرّة هي احدى ملايين المجرات ، اصبحت صورة الله الجالس للدينونة على عرشه العلوي صعبة الاستحضار في ذهن رجل ، يرى في علم الفلك الحديث ، هذه الصورة الرهيبة ، في امتدادها الكوني والزمني . فالصورة الشخصية للاله الديان الذي يرقبنا بعيني رحمة وعدله ، ويحصي علينا هفواتنا ، ويعاقبنا عليها او يصفح عنا اذا ابتلنا اليه واستغفرنا ، لا تتسق وصورة الكون الجديدة ، التي تشمل ملايين المجرات والوف الملايين من النجوم ، دع عنك السيارات وتوابعها كارضنا وقمرها

فلما طلع علينا علماء التطوّر ، بادلتهم المستخرجة من الصخور والطبقات المنضدة في قشرة الارض ، والعظام وما فيها من آثار ، والدماء وما تخضع له من تجارب ، وثبت ان الانسان ، انما هو رأس مملكة الحيوان ، ولكنه مع ذلك ليس الاّ حيواناً ، سقطت تلك « القدسية » التي كنا نقسم بها ، اذ جعلنا ارضنا مركز الكون وجنسنا ابناء الله المختارين

فال مكتشفات الفلكية الحديثة من عهد غليليو الى الآن ثلّت عرش الانسان في الفضاء ، والمكتشفات البيولوجية الحديثة من عهد دارون الى يومنا هذا قوّضت اركان عرشه على الارض وجاء في أثر هؤلاء وهؤلاء علماء النفس المحدثون ، فذهبوا الى ان نوازع الانسان ، ليست الاّ افعالاً عكسية ، تحولت بفعل البيئة التي نشأ فيها ، وان دوافعه النفسية الاساسية ، التي تلون سلوكه ، ليست الاّ دوافع جنسية ، غرضها اخلاف النسل وضمان بقائه او نوازع تبغي السيطرة والتفوق على الاقران ، فزال آخر حاجز يفصل بيننا وبين الحيوانات ، واصبح الفرق بيننا وبينهم فرق كم لا فرق كيف

كان اسلافنا يرون في الاحداث الطبيعية والامراض والابوثة ، قصاصاً يستحقه الآثمون .

فالصرع والجنون والعمى ، والزواج والزلازل والاعاصير والفيضانات وانفجار البراكين ، الوان من العقاب يوقعها العلي على من خرج من ابناء عليه . اما اليوم فاننا نبحث عن بواث الامراض في عوالم الميكروبات ، لا في خفايا الذنوب . فاذا طلع على الناس واعظ — كما يفعل بعض الوعاظ الاميركيين — وقال لهم ان اعصاراً في فلوريدا او زلزلة في اليابان ، ليس الا اعراباً من قبل الله جل جلاله ، عن غضبه وحنقه ، أشاح الجمهور عنهم ، في رأي القس الدكتور سوكن الاميركي ، ووضع اصابعه في آذانه دونهم ، وارتاب في صحة تجلي الحقيقة الالهية لهم ، وخاصة اذ يرى نواطح السحاب النيويوركية ، حيث توارى آثام لا تحصى ، واقفة كالمردة ، لا ينالها زلزال ولا أعصار . كان عصر وكان نقشي وباء بين الناس يبعث بهم الى كهنتهم لينوبوا عنهم في الاستغفار وطلب الخلاص ، فاذا نقشي بينهم وباء من الحمى التيفودية ، اليوم ، او الطاعون ، هرعوا الى الكيماويين ، ليبحثوا في نقاء الماء الذي يشربونه والى البكتريولوجيين في فحص الفران التي تغادي البيوت وتراوحها والى الاطباء ورجال مصلحة الصحة بوجه عام ، ليعينوا وسائل الكفاح ويصفوا العلاج الناجع او العلاج الواقى في هذه الحالة او في تلك

— ٤ —

ان شريعة آداب النفس التي لا تتحول الا تحولاً بطيئاً كل البطء ، تتبدد اليوم بين سمعنا وبصرنا فكأنها ضباب الضحى او غيم الصيف ، والعادات المتصلة اصولها بنشأة الانسان على الارض ، الممتدة الى اغوار في التاريخ لا تبلغها الذاكرة الانسانية ، تهاوى بين ايدينا كأنها بيوت من الورق هزها اعصار ، او اساليب من السلوك تطفو على سطح الحياة ولا تتصل بجذورها

ففروسية القرون الوسطى ، التي بدت في عصرنا مفرغة في قالب الادب الخاص في معاملة النساء بلطف وكياسة واحترام ، لم تثبت على تحرر المرأة الاقتصادي . لقد قبل الرجل — مرغماً — تحدي المرأة اذ طلبت المساواة به ، فصار يعسر عليه ان يعبد جنساً قسرتة الاحوال الجديدة على النزول من العرش الذي جلس عليه الى الميدان والشارع . ونحن ما زلنا في الشرق متأثرين بذلك الادب القديم ، الرائع الجمال ، فنهنض في المركبات العامة لنخلى مكاننا لسيدة واقفة ، ولكن من يعيش في مدينة مثل نيويورك او لندن او باريس حيث بلغت المرأة كامل حريتها الاقتصادية ، لا يحفل بسيدة واقفة ، بل يعاملها على قدم المساواة بالرجل ، على انها احد طلاب الرزق ، احد المنافسين له في ميدان العمل . اما الزواج الذي كان سبيل الاجتماع ، الى حفظ النوع على اسلوب منظم ، ووسيلة لافراغ الحياة الانسانية والسلوك الانساني في قالب مستقر ، فقد اخذ يفقد استهواءه واغرائه ، لأن الانسان بعد اطلاعه على اساليب بعض العلوم الحديثة ، ادرك انه يستطيع ان يجني بعض مسرات الزواج من دون ان يتعرض لجميع تكاليفه ، ولان الاعباء التي يحملها الزوجان في عصر الصناعة هذا

تقضي بمد سن العزوبة وتأخير سن الزواج . والاسرة التي كانت مربى الاخلاق ، قد لانت للزعة الفردية في حياة المدنية الصناعية فتفرقت ببدأ ، والبيوت التي كانت تبني بمكابدة الوالدين لتثوي الابناء والبنات ، اصبحت مهجورة ، وافرادها متفرقين في مختلف المدن ، ياوون الى حجر في فنادق صغيرة ، او يشترك بعضهم مع بعض في استئجار شقق ضيقة الجوانب ، كفايتهم منها سرير يضطجعون عليه ، بعض ساعات الليل او بعض ساعات النهار

واننا لندهش ، عند قراءة التاريخ ، اذ نبيِّن مدى ما يصيب ، قواعد الاخلاق وآداب السلوك من التغيُّر والتحوُّل مع انها قد تبدو لنا ثابتة راسخة لا يأتيتها التحوُّل اذا حصرنا النظر في فترة قصيرة من الزمن . فقد استنكر القديس اغسطينوس ، ان ابرهيم كان متعدد الزوجات ولكنه اصاب حين بيِّن ان ذلك لم يكن عملاً « غير ادبي » لانه كان من تقاليد ذلك العهد ، ولم يكن فيه اي ضرر على الجماعة . بل ان تعدُّد الزوجات في عصر تلهب الحروب وتمزقه ، عمل اجتماعي مفيد لان متوسط الوفيات بين الرجال في حروب القبائل ، كان اكبر جداً من متوسط وفيات النساء . فتعدُّد الزوجات كان النتيجة المنطقية لزيادة عدد النساء على عدد الرجال . فكانت المرأة تفضل ان تشاطر غيرها رجلاً من الرجال ، على ان لا يكون لها رجل على الاطلاق . وليس الاكتفاء بـ زوجة واحدة ، الا نتيجة من نتائج نشر السلام بين القبائل في مطلع الحضارة الزراعية

اننا لا نعلم ، في اي عصر من عصور التاريخ ، انتقل الانسان من طور الصيد والقنص الى طور الزراعة اي من دور الهيام الى دور الاستقرار . ولكننا نعلم ان هذا الانتقال ، اقتضى تحوُّلاً عظيماً في نظر الانسان الى الفضيلة والرياسة . فبعض ما كان يحسب رذائل أصبح بفضل هذا الانتقال من قبيل الفضائل ، وامسى بعض الفضائل في عداد الرذائل . فالاجتهاد في عصر الزراعة كان مفضلاً على الشجاعة مع ان الشجاعة كانت على رأس الفضائل في عصر القنص . وفيه كان يؤثر الادخال على السلب ، ويرى السلام اجدى من الحرب . ثم ان الانتقال الى عهد الزراعة ، بدّل من مقام المرأة فالمرأة اجدى على الجماعة في دور الزراعة منها في دور القنص ، لكثرة ما تستطيع عمله في الحقل وفي الدار . فكان خيراً للانسان في بدء عهد الزراعة ان يتزوج ، بدلاً من ان يستأجر امرأة للقيام بهذه الاعمال . ثم ان المرأة تلد اولاداً ، فلا يلبث ابناؤها ان يصبحوا عوناً لا بأهم في الحراثة والزراعة والحصاد . فالاجتماع الزراعي كان لا يقتضي من الآباء النفقات التي يتعرّض لها آباء اليوم قبل ان يصبح ابناؤهم اهلاً لخوض معترك الحياة . لذلك كانت الامومة مقدسة ، وكان ضبط النسل لو ادركت وسائله عملاً غير أدبي لأنه يقلل الولد حيث تجب زيادتهم وكانت الأسر الكبيرة حسنة في نظر الشيوخ والكهّان

في ذلك العهد ، نبّئت اصول شريعة الآداب التي نأخذ اليوم بجانب كبير منها على الاقل ،

ففي المزرعة في ذلك العهد البعيد ، كان الفتى يبلغ باكرآ في العقل وفي قدرته على الارتزاق . فكان اذا أدرك سن العشرين . قادراً ان يفهم اعمال الحياة ، كما يفهمها ابن الاربعين ، وكان كل ما يحتاج اليه حينئذ ، محراثاً وذراعاً قوية ، وعيناً تتيبين احوال الجو من تقلبات الهواء . فكانت يبكر الى الزواج ، حالما تعدد الطبيعة له ، فلا يضطر ان يعاني ما يعانيه ، الوف وعشرات الالوف من شبان اليوم ، في الفترة التي تنقضي عليهم بين المراهقة والزواج المتأخر . فاهل ذلك العصر لم يعانون بطبيعة البيئة التي نشأوا فيها المشكلة الجنسية كالتي تتعرض لها اليوم ، لانهم كانوا يحلون بها بحسب مقتضيات الطبيعة . اما فيما يتعلق بالنساء فقد كانت العفة لاندحة عنها لانها قد تجلب في اثر الاعتداء عليها ، امومة لاحامي يحميها

فلما افرغت المسيحية هذه الشريعة في قانونها الادبي الخاص ، وحتمت على ان يكون الزواج عقداً بين رجل واحد وامرأة واحدة ، وان لا ينسخ العقد مدى الحياة ، كان ذلك مما يوافق البيئة التي تم فيها هذا الافراغ . فزوجة الفلاح تلد له عدة اولاد ، ومن الحق والانصاف ان يحافظ الوالدان على عهد الامانة احدهما للآخر ، لكي يتاح لهما ان يوجها عنايةتهما الى اولادهما حتى يشب اصغرهم فاذا بلغ هذا دور الشباب ، والتفت الى والدين ، رأيت الرغبة في التنقل قد تبددت في اجهاد الجسد واندماج الروحين

فهذا النظام الصارم من الآداب ، كان على صرامته ، مما تمكن ممارسته في الحقل ، فالشأ في اميركا مثلاً عندما هاجرت اليها طوائف «البورتان» قبلاً من الناس ، يستطيع ان يتغلب على قارة بفضائل برئد اساسها الى كبح جماح النفس واخذها بالشدّة

مضى على هذا النظام بعد انشائه نحو الفين من السنين ، وهو قائم ، على العفة والزواج الباكر والاكتفاء بزواج واحدة وولادة اولاد كثيرين ، وكان هذا ما تتطلبه حالة العصر ، لان الاسرة كانت وحدة الانتاج على الحقل . حتى لما اهلت طلائع الصناعة على الحضارة ، كانت صناعة بيتية ، يقوم بها الناس في بيوتهم لا في المصنع ، فكان كل شيء مما يوثق العلاقة بين الاب والام من ناحية ، وبينهما وبين اولادهما من ناحية اخرى

— ٥ —

ثم اخذت المصانع في الظهور ، وشرع الرجال والنساء والاولاد ، يهجرون البيوت ، لينتظموا في المصانع . فالتحت بذلك وحدة الاسرة وضعفت سلطة الوالدين ، وصار كل من افراد الاسرة فرداً في جماعة غير جماعتها ، اذ اصبح المصنع وحدة الانتاج لا الاسرة . ونشأت المدن وازدحمت بهجرة سكان الريف اليها ، وفيها بدلاً من ان ينصرف الناس الى الحرث والبذر والحصاد ، كما كانوا يفعلون في الحقول ، خاضوا كفاحاً ، هو كفاح الحياة والموت ، في مخازن ضيقة قدرة قائمة ، او مصانع تدوي بها اصوات الآلات ولا يرى فيها الا العجلات تدور والسيور تتحرك واذرع واسنان من الحديد

والفولاذ . وتوالت المستنبطات الميكانيكية آخذاً بعضها برقاب بعض ، فصار الاولاد يتأخرون في ادراك سن البلوغ العقلي ، حتى اذا نظرت الى الفتى في العشرين من العمر في احدى المدن الصناعية ، رأيتُه اشبه بالطفل القاصر ، ازاء تعقيد مشكلات الحياة وتواليها . فطال زمن المراهقة العقلية وامتدت فترة التعليم اذ اصبح التعليم لا ندحة عنه لتوجيه العقل وملاءمة لمشكلات الحياة المنوعة وما ان اتى هذا الانقلاب على حال البشر ، هذا الانتقال من الزراعة الى الصناعة ، حتى اخذ من تلقاء نفسه يؤثر في شريعة الآداب الموروثة من عصر سابق . فتأخر عهد البلوغ العقلي ، رافقه تأخر السن التي يبلغ فيها الانسان استقلاله الاقتصادي . بل ان هذا الاستقلال لم يكن ليتاح الا لقلائل من الناس ، لان تعقيد الحياة الاقتصادية والتواء سبلها ، كانا ابداً كالسيف المصلت فوق رأس العامل ، يهدده بانتراع عمله منه

في هذا المعتك العنيف ، رأى الرجل المرأة وقد جردت من ثوبها الاول في حياة الحقل . فاذا تزوج وجب عليه وفقاً لشريعة الآداب التي ورثها من ذلك العصر ان يحفظ زوجته في بيت جرد الآن من معناه الاصلي المتصل بالعمل في الحقل . ذلك ان جل العمل الذي كانت تعمله الاسرة في الحقل غدا يتم في الغالب في مصانع المدن ، وكل ما تحتاج اليه الاسرة يجب ان يوفى بعمل الرجل في المصنع . فاذا اصبحت الزوج امماً ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل . فالامومة في المدن الآن ، سلسلة محبوكة الحلقات من الاطباء والمستشفيات والمرضات والادوية ترهق الموسر دغ عنك العامل او متوسط الحال . وكلما زاد عدد الاولاد التي تلد ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل المتوسط . لان زمن التعلم والتعلم امتد الى ما بعد العشرين . يضاف الى ذلك ان ثقات التعليم بعد مراتبه الاولى كبيرة لا يقوى عليها . ثم ان كثرة الاولاد تقتضي توسيع المسكن وهذا يقتضي زيادة الاجرة وتحول دون السفر للنزهة ، او دون التفرغ عن الصدر في الملاهي والماراسح . والاولاد يقتضون خلع احدث الملابس عليهم ، كل وفقاً للبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، فاذا بلغوا السن التي تمكنهم من كسب رزقهم نفروا من البيت الى المصنع والمتجر ، في المدينة التي ولدوا فيها ، او في مدينة اخرى ، وفقاً للرياح التي تدفع تيارات الانتاج والتوزيع وتوجهها

لذلك بدا للناس ان الامومة في البيئات الصناعية ، أشبه ما يكون بضرب من الاستعباد ، او ضرب من التضحية السخيفة في سبيل النوع ، وان المرأة البارعة لا تقبل عليها الا متأخرة ، بعد ان تقضي الشطر الاكبر من شبابها في ظل لواء الحرية فلما وضعت فلسفة ضبط النسل وكشفت وسائله العملية ، شاعت هذه الفلسفة الجديدة في الأوساط الصناعية ، وانتشرت وسائلها ، ثم تعدتها رويداً رويداً الى غيرها

ولهذه الناحية من حياة الانسانية وجه آخر . ان الانسانية ، بفعل التقدم في علوم الطب والصحة

العامّة ، اخذت تكشف عمّا في سلامة الجسد وصحته ، من الروعة والجمال ، فالعناية التي توجهها الانسانية الى الرياضة البدنية وتأليه اباطها ، والثروات التي تنفق في البحث الطبي ووسائل الصحة العامة ، شاهد بليغ على ذلك . ولا تنحصر عناية الانسان الحديث ، بالصحة من وجهة روعتها وجمالها فقط ، بل تتعداها الى الشعور بأن الصحة واجب عليه ، لشخصه اولاً ، وللانسانية المقبلة متمثلة في ذرياته ثانياً . فزعمااء الحركة اليوجينية — اي حركة اصلاح النسل — لا ينون عن تذكره ، بأن عليه تبعة عظيمة نحو اولاده تقضي عليه بأن يورثهم جسداً سليماً من الاوصاب ، وعقلاً سليماً من الآفات . وزعة التضامن الاجتماعي ، تذكره كذلك ، بأن عليه نحو المجتمع تبعة ، تقضي عليه بأن يورثه جماعة من الذريات تتألق عافيةً جسدية ، وصحة عقلية . فهو الآن لا يبحث عن سر مرض من الامراض في غضب الله على سلف من اسلافه ، بل يبحث عنه بالمكسر سكوب في عناقيد الكروموسومات ، ويكوشف الكيمياء في كريات الدم . ويحسب كل مرض يناوله الوالدان الى ابنائهما ، امتهاناً للمجتمع . ومن هنا الحركة التي رمي الى تعقيم الرجال والنساء الذين لا يصلحون لاختلاف النسل ، بعمليات جراحية بسيطة في الغالب . ومع ان هذا الموضوع ، ما زال من ناحيته العلمية في مهده ، الا ان بعض البلدان قد سنت قوانين خاصة بتنفيذ التعقيم . فقد سن في ٢٧ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية مثل هذا القانون وكذلك في بعض ولايات كندا وفي المانيا والدنمارك وبعض مقاطعات سويسرا

فموضوع اخلاف النسل ، الذي كان حتى العهد الاخير ، من الامرار المقدسة في حياة البشرية وعليه بني في الماضي أعظم جانب من شريعة الآداب ، قد مزقت عنه الحجب التي كانت تحيط به واخذ يخضع لتعاليم العلم الحديث . بل قد أصبح زعماء التعليم يقولون بوجوب التعليم الجنسي ذاهبين الى ان « الاسرة يجب ان تعترف به في البيت ، والدولة في المدرسة ، لانه كغيره من انواع التربية العقلية والجسمية ضرورة من ضرورات الحياة وربما كان الشر الناشئ عن اهماله أعظم جداً من الشر الناشئ عن اهمالها فهو يمس صحة الجسم وصحة العقل وصحة الخلق جميعاً ويجعل النفاق والفساد أصليين من اصول الحياة الاجتماعية » (١)

— ٦ —

قلت في مطلع الحديث اننا نحاول عبثاً اذا حاولنا ان نحيط بالموضوع . وقد ذكرت لكم حتى الآن طرفاً من تأثير العلم الحديث في الصورة الذهنية التي يتمثلها الانسان الحديث للرب عز وجل ، وبينت لكم اثر العلم الحديث متمثلاً في قيام الصناعة ونشوء المدن وتحرر المرأة الاقتصادي وعلوم الطب والصحة ، في شريعة الآداب من ناحية النسل واخلافه والجنس والحفاظة عليه . ولكنني لا اريد ان اختم هذه الناحية من الموضوع قبل ان اشير الى ناحية ادبية اخرى يتجلى فيها او لي ما يلابسها اعظم خطر تتعرض له الحضارة الحديثة

من الاركان التي قامت عليها شريعة الآداب ، التي ورثناها من العصور القديمة ، فكرة الزهد ، كأساس للمخلق النبيل . فالزهد في حقيقته ، هو القول بأن حياة الانسان لا تعتمد على المأكول والمشرب والملبس ، وان الحياة الصالحة ، يمكننا ادراكها من دون المتع المنوعة التي نطلق عليها اسماء الرخاء والترف . وهذه العقيدة طبيعية ومعقولة ، في كل جماعة تعيش على شفا الجوع ، ولا تكاد تنزع من الأرض الا كفايتها لصد الموت . ففي بدء الحضارة الزراعية ، لما كانت وسائل الزراعة ضعيفة وقاصرة ، ادمج الزعماء الروحيون هذه النزعة في تعاليمهم فقالوا ان فقر الانسان لا يضره ، وانه رغماً عن الفقر والقلّة يستطيع ان يحيى الحياة النبيلة ، ويبلغ اسمى الاغراض . فبوذا ترك أسرته ومملكته وثروته ليجتهد في الخلاص في مسالك الانسان العادي . اي ان تلك الجماعات ، جعلت من الزهد فضيلة حيث قلّت الاشياء التي يستطيع ان يزهد فيها الانسان وقد اتفق ان النهضات التاريخية التي كان لها اكبر اثر في شريعة الآداب التي توارثناها كانت في حالة مادية من هذا القبيل . ففي ايام السيد المسيح ، كان النزاع محصوراً بين فريق يسير ضعيف من الناس وسلطان روما الامبراطورية . فكانت رسالته الى اتباعه ان لا يبحثوا عن ملكهم المرموق على الارض بل في السماء ، فقال « في بيت أبي منازل كثيرة » وحثهم على ممارسة الزهد والطهر والمحبة للمستبد ثم تقلبت هذه النزعة في اشكال مختلفة في عهد الامبراطورية الرومانية ثم في القرون الوسطى لما أصبحت الصومعة والدير ملجأً لاصحاب النفوس التي تطلب الخلاص من محن العالم .

واسكن في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، دب ديب الحياة في عروق التجارة العالمية ، واخذ فريق من الناس في البلدان التي أمدتها الجغرافية باسباب النجاح التجاري ، يجمع ثروة ، فجعل هذا الفريق يرى امكان الفوز بالخلاص على الارض . ولكن التاجر الاميركي من المتمسكين بشريعة الآداب المسيحية ، ظل الى اواخر القرن الماضي لا يرى امامه الا نضالاً غنياً اذ واجه قارة بكراً . والنضال العنيف يقتضي الحكمة والحرص والتوفير والعمل المستمر والامتناع عن تبديد النشاط في سباح الملاهي . فالعفة وتوجيه القصد الى العمل كان مناط الامل الوحيد ، في فلسفته العالمية . هذه الجماعة من الناس التي بدأت تخرج من قنم الماضي المهبط بالقلّة والجوع ، وضعت امام عيونها ، مثل العمل والاكباب على العمل والتفاني في العمل ، هدفاً روحياً لها ، فالنتيجة في نظرها كانت لا تعنيها كثيراً ، وانما الجهاد قبل الوصول الى النتيجة هو كل شيء ، وهذا هو الخلاص على الارض وما لبثت ان توالى المخترعات العلمية والصناعية على الحضارة ، فانقذت الناس من شبح الجوع الجاثم فوق الصدور . وما تمكن الانسان من السيطرة على مصادر الطاقة في اشكالها المختلفة ، حتى نمت الثروة العامة نمواً ، لم يدرك في احلام الاقدمين ، فأصبح في ميسور الناس — وخاصة طوائف كبيرة منهم — ان يتمتعوا بأسباب من الرخاء والرفاهة والترف ، لم يرنُ اليها القياصرة . ففي عصر توافرت فيه هذه الوسائل لتسهيل اسباب الحياة وتوفير العناء ، ترى ماذا بقي من نزعة الزهد الصحيحة ،

والتسليم والدعة والاحتمال؟ واي انسان يرى نفسه غير محتوم عليه ان يلقي بباله الى الغد ، يستطيع بسهولة ، ان يوجه سعيه فقط الى صفاء الروح ونقاء القلب . قال الاستاذ جون هول في كتابه « حضارتنا المتحولة » — « فاكاد الاميركيون يغزون براري بلادهم المترامية الاطراف ، وينشعون فيها المدن والمصانع حتى رأيناهم في مجموعهم ، يزأون من الحرص والحريص ، والعفة والعفيف ، ويحسبون التسليم كخفيات المتحفات من بقايا العصور القديمة ، واصبح مثاهم اللهو والمتعة لا الطهر والصلاح . انهم يبحثون في حياتهم عن تلك المسرات ، التي عجز عنها ابناء الحضارات السابقة فأسندوها الى الآلهة . فالمشكلة التي تواجه العصر هي ابتداع مثل روحية تقضي الى الحياة الصالحة النبيلة لا بالتخلي عن الثروة وما تيسره لنا من المتع بل بالرغم من ذلك

ونحن اليوم في الشرق ، على رغم اختلاف كبير في الاحوال بين معيشتنا ومعيشتهم ، وعلى الرغم من ان الاحوال الناشئة من انتشار الصناعة ، لم تتوافر بعد بين ظهرانينا ، حتى تقضي الى نفس النتائج التي افضت اليها في البلدان الاخرى فاننا مع ذلك نعاني المشكلة التي يعانونها بالتقليد والاقتباس . فالتحول في شريعة الآداب عندهم ، له صدى في حياتنا ، خافت اليوم ولكنه لا بد ان يقوى غداً . لاننا نقرأ كتبهم ونرى افلامهم ونزور مدنها ونخالط طوائفهم ونلون افكارنا وطباعنا بتعاليمهم ونعيش — اي المتعلمون منا — في جو كالجو الذي يعيشون فيه ، وانما الفرق بيننا اننا نخلقه في الغالب نصوراً واما هم فيتنفسونه في غدواتهم وروحاتهم كل صباح وكل مساء

فالمشكلة التي نعانيها ، هي هي المشكلة التي يعانونها هم . واساسها الحيرة ، التي جهر بها طائفة من كبار كتابهم ، وحاولوا ان يجدوا لها حلاً في ابتداع « المذهب البشري » Humanism . هي مشكلة ناشئة عن اننا واقفون بين عالمين — احدهما ذهب في سبيله الى جوف الماضي ، والآخر لم يولد بعد ، او هو لا يزال في المهد . فلا بد من ان تكون الحيرة نصيبنا كما هي نصيبهم مدى جيل من الزمان على الاقل . اننا نبحث عن شريعة للآداب ، تكون اكثر ملاءمة للاحوال الجديدة ، من شريعة الآداب التي ورثناها من العصر الزراعي ، شريعة تقوم على الذكاء بدلاً من الخوف ، وعلى القوة وحسن استعمالها بدلاً من الزهد وتامس العزاء عن فقدان العالم ، فتقنع المتعلمين منا لشدة ما تراه فيها من الملاءمة بين نواحيها والاحوال التي تطبق فيها

هذه هي المشكلة الادبية التي يعانيناها العالم . اين الحكمة واين الذكاء في استعمال قوة العلم والآلة ، استعمالاً صحيحاً؟ ليس في تراثنا الادبي جواب على هذا . فكيف نستطيع ان نصدق ما نعلم ، اذ يقال لنا اصدفوا عن العالم ، وانصرفوا عن المسرات

وفي هذه الهوة بين القوة العظيمة التي ابدعها العلم ، وتقصير الحكمة البشرية عن تنقيف لغبات والنوازغ الانسانية اعظم مصدر لما يحيق بالحضارة من الخطر . وقد اشار الى ذلك الفيلسوف

برغسن في الخطبة التي القاها عند تسلمه جائزة نوبل الادبية من بضع سنوات . فاذا افلست الحكمة البشرية وعجزت عن النهوض بهذا العبء اتجهت هذه القوى العظيمة الى التدمير والتخريب والتقتيل بدلاً من ان تنتجه الى الانتاج المجدي وتوفير الفراغ للانسان فينفقه في طلاب المثل العليا

— ٧ —

ومن الغريب ايها السيدات والسادة : ان نظريات العلم التي قلبت نظرنا الى الله والسكون ، وتطبيقات العلم التي احاطتنا بأحوال من المعيشة افضت الى انشاء هوة بين الحياة التي نعيش والقواعد الادبية التي تنظم هذه الحياة ، قد ينطوي في تطوراتهِ الحديثة ، على بذور الحل لهذه المشكلة فالعلم الطبيعي ، الذي احرز انتصارات عظيمة في اواخر القرن الماضي ، افضى بالعلماء الى الاعتقاد ، بأن الكون آلة خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس التي كشفت . فكان ذلك سنداً قوياً لفلسفة الماديين . لانه اذا كان في الامكان تفسير كل دقيقة وصغيرة ، بنواميس الحركة والطاقة والجذب من اجرام السماء الى خلايا الجسم الحي ، فما الحاجة بنا الى فرض قوة من وراء العقل ، ومن وراء الطبيعة لتفسير ذلك . ولكن العلم الطبيعي نفسه ، كان وهو يصرح هذه التصريحات على عتبة انقلاب ، يتصل بصميمه ، وهو لا يدري . فما اثبت السر جوزف طمسن وجود الالكترتون في آخر القرن الماضي ، وما تمادى العلماء في درس البنات الدقيقة التي تتركب منها الذرة — ومن الذرة تتركب جميع الاجسام — حتى بدأ الشك يتسرب الى عقول العلماء في كفاية النواميس الطبيعية لتعليل كل ما هنالك . لذلك نرى علماء الطبيعة الذين يعالجون نظرية «المقدار» (الكونم) يقولون ان الاوليات العلمية ، ونواميس العلة والمعلول تهاوى بين ايديهم اذ يحاولون تطبيقها على الدقائق الاولى كالكهرب والاوليت . ولما كانت جميع الاشياء المادية مبنية من الالكترونات والبروتونات ، فعنى قولهم هذا انهم لا يؤمنون الآن بالسببية او بالجبرية . والاثر النفسي الذي احده هذا الانقلاب ، هو ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها صوراً ذهنية لا تطابق الحقيقة . لذلك اصبح علماء هذا العصر فلاسفة تغلب عليه سمة جديدة من سمات التصوف والايان امثال جينز وادلغتن وبرتران رسل وملكن واينشتين ، والامل معلق الآن باتحاد العلم والفلسفة في الوصول الى نظرة جديدة ، لا يرتاب العارفون ، في انها سوف تكون وافية الى حد بعيد باشباع ذلك الشوق الى المجهول ، الذي يتردد في صدر الانسان اما الاسلوب العلمي الذي مكّن الناس من كل ما يمتاز به حضارتنا الحديثة ، من الآراء والنظريات والاساليب ، فهو في صميمه ، مدرسة للخلق العالي . فقواعده التجرد عن الهوى ، والانصاف بين الآراء وبين اصحاب الآراء ، والصبر والمثابرة في التجربة والامتحان ونكران النفس في سبيل الحقيقة . وكل صفة من هذه الصفات اذا لم يتصف بها الباحث العلمي ، سقطت قيمة بحثه . وهي في الوقت نفسه ، الصفات التي نرى وجوب توافرها في الخلق العالي بل ان العلم التطبيقي في ناحيته الاجتماعية ، مدرسة جديدة لخلق الجماعة . فالواصلات والمحادثات

الحديثة قد قربت بين الامم ومهدت سبيل التعارف بين الشعوب . وكلما مضينا في تطبيق نتائج العلم الحديث تبين لنا انها تصدف عن الفوارق التي تفصل بيننا ، سواء اجغرافية كانت ام جنسية ام سياسية ام اجتماعية . فالانسولين الذي استنبطه الدكتور بانتنغ الكندي وصحبه في جامعة تورنتو لا يفرق في شفاء البول السكري . بين الكندي والمصري ولا بين المسيحي والمسلم ولا بين الشيوعي والفاشستي ولا بين العامل وصاحب المال . ثم ان تاريخ العلم تاريخ مشترك . ولكل امة من الامم ابطال اذوا نصيبهم في اعلاء مناره او مسقطوا في ميادين الجهاد . فامجاد العلم المشتركة تؤلف بين الامم كما تجمع المصائب بين بلدان الشرق . ولعلكم لم تنسوا قول شوقي رحمة الله عليه : قد قضى الله ان يؤلفنا الجرح وان نلتقي على اشجانه

نعم ايها السادة ان العلم قد قلب اوضاعنا الفكرية ، ومثلنا الادبية ، ووضع في ايدينا قوة ، اذا اسأنا استعمالها افضى بنا ذلك الى التدهور . ولكن اتجاه العلم الحديث ، واسلوب العلم الحديث ، ينطويان على بذور فلسفة علمية ادبية جديدة ، قد نجد فيها خلاصاً من الحيرة التي تكاد تمزقنا . كنت اقلب اوراقاً من أيام ، فوقعت على صورتين تمثلان غرق الباخرة تيتانيك . أما الصورة الاولى فتمثل الباخرة العظيمة وقد اصطدمت بجبل الجليد فشق جنبها ، واخذت تميل الى الغرق وقد كتب تحت الصورة : « ضعف الانسان - قوة الطبيعة » . اما الصورة الاخرى فتمثل قارباً مدلى من جانب الباخرة التي تكاد تبتلعها الأمواج ، وامام القارب الحافل بالركاب ، رجل يهيم بالنزول ليجلس او يقف في آخر محل فيه لينجو مع الناجين ، ثم تراه وقد ارتد ليخفي المكان الاخير في القارب لسيدة ورائه وهو يعلم انه شارب كأس الموت لا محالة . وقد كتب تحت هذه الصورة : « ضعف الطبيعة - قوة الانسان » .

ان عصر الآلة لم يسحق حتى الآن ، ولا هو فسر لنا النوازع الروحية في القلب البشري . انها لا تزال هناك ، مادة تصلح ان تبني بها او تبني عليها شريعة الاداب الجديدة . أما انا فلا يخامرني شك في حكمة البشر . فالدكاء الانساني يرهفه التعليم وتصلبه المراتة ، والارت الثقافي يوسعه البحث ويمحصه الاختبار . ولا بد ان يجيء يوم - لن ندركه نحن وقد لا يدركه اولادنا - تلحق فيه عقولنا بالآلات التي استنبطتها . وترتفع حكمتنا الى مستوى المعارف التي انتزعناها من صدر الطبيعة . وتسمو اغراضنا سمواً يمكننا من السيطرة على القوى الصناعية العظيمة رهينة اشارتنا وتوجيهها

عند ذلك ندرك ان اعظم رجال الدولة كأعظم المعلمين ، من يرشد بالمعرفة والعطف ، لا من يستفز بالتحكم والعنف ، وان اعظم الجماعات ، جماعة لا تخضع للقوة بل تعنو للحكمة . عند ذلك يكون العلم قد اندمج في اغراض الروح العليا نخرج لنا من البوتقة اكسير الحكمة المصفاة

سر الحياة في الكربون

لنفقلا الحرار

الحياة نشوء آخر يختلف في ظاهراته كل الاختلاف عن نشوء الاجسام المادية غير الحية . هو درجة ثمانية من درجات الوجود اعلى من درجة المادة « الميتة » ، كأنه كون آخر مستقل في ذاتيته وطبيعته كل الاستقلال عن الكون المادي . ولكنه بالحقيقة مادي الجوهر والحركة ، بمعنى ان الجسم الحي مؤلف من ذرات المادة ، ولكن بنظام آخر يختلف عن نظام المادة . فهل هو متمش على نفس سنن الطبيعة الاساسية كالجاذبية والافلحة الكيماوية ؟ ام ان له سنناً اخرى خاصة به ؟

الظاهر لنا ان الحياة لانها قائمة بالمادة هي خاضعة لنواميس حركة المادة . واذن حركتها مستمدة من نفس القوى الفاعلة في المادة — جاذبية وألفة كيماوية — وحركتها ذاتية بمعنى انها تخزن القوة المادية ثم تتصرف بها تصرفاً خاصاً يلائم كيانها . وحركتها نتيجة هذا التصرف . وهذه الحركة نوعان . حركة في داخل الجسم الحي بين اجزائه ، شائعة في النبات والحيوان . وحركة تنقل الجسم الحي كله من حيز الى حيز . وهي خاصة بالحيوان على الغالب . فما هو سر الحياة الذي هو مستودع القوة الحيوية ؟ وما هو مصدر هذه القوة ؟

لا نعرف وجوداً للحياة كما نعرفها الا على ارضنا . فلا شأن لنا بها اذا كانت موجودة في جرم آخر سواء اكانت هناك بنفس الخواص التي نعرفها هنا او كانت تختلف عما نعرفه

نعرف ان الجسم الحي مهما كان نوعه مؤلف من جزيئات Molecules عديدة الذرات جداً ليس لها مثيل بكثرة ذراتها في سائر جزيئات الغازات والسوائل والجوامد ، لا على الارض ولا فيما استدل عليه في الاجرام الحارة وفي الاجرام الباردة ، من انواع الذرات والجزيئات . فكأن سر الحياة مودع في الجزيء العديد الذرات . فلنبحث عنه في هذا الجزيء

الجسم الحي من ابسط انواعه : الاميبا ، الى اكثرها تركباً وتعقداً ، الانسان ، مؤلف من ثلاثة اصناف من المركبات الكيماوية وكل صنف منها عديد الانواع بتعدد انواع الخلايا . وهي : اولاً — الكربوهيدرات (النشائيات ونحوها وسلاسل البارافينات وسلاسل الكحل الخ) وجزيئاتها تحتوي على بضع ذرات الى بضع عشرة ذرة . وهي الوقيد الذي تصدر منه القوة لاصدار الحركة

ثانياً — الدهنيات ونحوها . وجزيئاتها مؤلفة من عشرات الذرات . وهي وقيد آخر مدخّر ولا سيما في الاحياء المنوعة الاعضاء الوظيفية

ثالثاً — البروتائينات (الزلايات) . وجزيئاتها مؤلفة من مئات الذرات او الوفها في بعض الاحيان . وهي هيكل بنية البروتوبلاسم الذي هو جوهر الحياة الاول يلحق بهذه الثلاثة الماء . وهو الوسط الذي تنتقل فيه جزيئات المركبات الحيوية ، فضلاً عن انها تتحد احياناً بجزيئات منه

ولا نعرف في الطبيعة جزيئات مؤلفة من ذلك العدد العظيم من الذرات الا في الجسم الحي . وفي غيره لا يتجاوز عدد ذرات الجزيء البضع او البضع عشرة ذرة . اذن سر الحياة في الجزيئات العديدة الذرات . فلنبحث عنه في ذرات هذه الجزيئات لكي نعلم في اي منها مقامه

التحليل الكيماوي يرينا ان اصناف هذه المركبات الثلاثة العديدة الانواع مؤلفة من اربعة عناصر رئيسية فقط ، اي من اربعة اصناف من الذرات وهي الهيدروجين والاكسجين والنيوتروجين والكربون . واما ما يرى فيها من العناصر الاخرى — الكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والمغنيزيوم والحديد واملاحها الكلورات (كلوريد) والفوسفات والسلفات والنترات والكربونات الخ فوظيفتها ثانوية وسيطة Catalysis : فلتر اي هذه العناصر الاربعة ذو الشأن الالم في تأليف الجزيئات العديدة الذرات

اما الهيدروجين والاكسجين وحدهما فلا يتألف منهما الا بضعة انواع من الجزيئات لا يزيد الواحد منها على اربع ذرات . واذا دخل النتروجين معهما او مع احدهما فلا يتألف منها جزيئات تزيد على بضع ذرات ايضاً ، حتى لو دخلت عناصر اخرى ثانوية غير هذه الثلاثة فلا يناهز عدد الذرات في الجزيء الواحد البضع عشرة ذرة . ولكن اذا نزل الكربون الى الميدان رأينا ان تأليف العناصر الثلاثة التي نحن بصدد جزيئات تعد ذراتها بالمئات وحياناً تتجاوز الالف . فاذا في الكربون سر الحياة (هذه ملاحظة وردت عرضاً في كتاب « الكون المحجب بالاسرار » تأليف السير جيمز جينز . لكنه لم يشرح هذه النظرية)

فاذا في هذا العنصر — الكربون — من الخواص او المزايا التي تخوله القدرة على تكوين بروتائينات والكربوهيدرات والدهنيات التي تتألف منها الخلية الحية Cell ؟ . فلنبحث في كل هذه العناصر الاربعة

هـ = الهيدروجين ذو بروتون وكهرب واحد حر

و = الاكسجين ذو ١٦ بروتوناً و ٨ كهارب حرة ما عدا المتحدة بروتوناتها

ن = النيتروجين « ١٤ » و ٧ » » » » »

ك = الكربون « ١٢ » و ٦ » » » » »

فلنضرب صفحاً عن البروتونات لان الالفه الكيماوية التي تؤلف الجزيئات لا تتوقف على عدد البروتونات في الذرة الواحدة بل على عدد الكهارب الحرة فيها فقط ولقد علمت من مقال كاتب هذه السطور عن «فناء المادة» في العدد السابق من المقتطف ان الكهارب الحرة تدور حول النواة (مجموعة البروتونات) في مناطق : الاولى معدة لكهرين فقط . والمنطقة الثانية التي بعدها معدة لثمانية كهارب . ولا شأن لنا بالمنطقة الاولى ولا بالمناطق التي بعد الثانية . لانه ليس في اي من هذه العناصر الاربعة ما يشغل اكثر من المنطقة الثانية . ولان المناطق الاخرى التي بعدها خاصة بعناصر غير عناصر الحياة اذن الكهارب التي تدور في المنطقة الثانية هي : —

في الاكسجين ٦ يبقى محل لكهرين (٢) في المنطقة الثانية (شفع اي زوج)
 « النتروجين ٥ » « لثلاثة كهارب (٣) » « (وتر)
 « الكربون ٤ » « لاربعة » (٤) » « (شفع)

فلعل كون الكربون شفعي الكهارب الموجودة وشفعي الكهارب الناقصة لتتمه المنطقة، هو الامر المسهل له الاتحاد بالعناصر الاخرى مهما اختلف عدد الذرات في الجزيء . يساعده على ذلك الاكسجين الشفعي الكهارب ايضاً ويساعدها الهيدروجين لاتمام ما ينقص المنطقة من الكهارب في تأليف الجزيء ولا سيما متى دخل النتروجين فيه وهو وتري الكهارب . وبهذا التسهيل يتضح تألف الذرات الثلاث باستقرار ومن دون تقلقل . مثال ذلك في الحامض الكربوني (كربون داي اوكسيد = ك و ٢) الذي يدخل جزيئهُ كثيراً في المركبات الحيوية ، يتألف الكربون مع الاكسجين فيشرك كلا منهما بكهرين من كهاربه الاربعة وتصبح المنطقة الثانية لكل منهما تامة . والجزيء يستقر بهذا الاختلاف متعادل الشحنة الكهربائية ، ولا يتفكك الا اذا طرأ عليه جزيء آخر فيندمج الاثنان معاً في جزيء جديد

واذا انعمت النظر في مركبات الكربوهيدرات والدهنيات وجدت ان ائتلاف الكربون والاكسجين يحدث على هذا النحو . وفي حالة ان الجزيء ينقصه كهر ب يدخل الهيدروجين بكهر به . والهيدروجين مطواع يدخل بكهر به من معظم الجزيئات لاتمام النقص . (هذا بحث دقيق جداً لا يكفي التوسع فيه وشرحه مقال او اكثر)

واما النتروجين فلا نه وتري الكهارب (٣ في المنطقة الثانية) فغالبا الظن ان ائتلافه مع الجماعة لا يسهل الا بتعدد الذرات الكثيرة في الجزيء الواحد بحيث يستطيع تأليف جزيئات متعادلة الشحنة الكهربائية . ولذلك لا يدخل الا في تألف البروتائنيات التي تعد ذرات الجزيء الواحد فيها بالئات . او ان اندماجه فيها هو سبب تعدد ذراتها . ولكنه لا يدخل في الكربوهيدرات والدهنيات لانه بدخوله يجعل الجزيء عديم الاستقرار كما يستدل من معظم مركباته اذ يظهر فيها قديماً دائماً

لا يكاد يستقر في مركب منها ، فكان قوة ألفته Affinity ضعيفة جداً (خلافاً للكربون) فلا قل طارئ يتنافر مع العناصر الأخرى ويتركها أو تتركه . ومن أبسط الأمثلة على ذلك النشادر Ammonia وهو مركب من نتروجين واحد وثلاثة هيدروجينات = ن ٣ هـ — ولكنه في هذه الحالة لا يمكن أن يوجد مستقلاً لأن كهاريه في المنطقة الثانية ٣ وكهارب الهيدروجينات الثلاثة ٣ والمجموع ٦ فتبقى المنطقة ناقصة كهريين ويبقى الجزيء ايجابياً غير متعادل . لذلك لا يوجد النشادر مستقلاً البتة ، بل لا بد من اتحاد جزيئه بجزيء آخر كجزيء الماء مثلاً ليكون منهما هيدروكسيد الامونيوم ذائباً في الماء (ن ٣ هـ + ٢ هـ = ن ٥ هـ ٠) ومجموع كهاريها جميعاً ١٦ تشغل منطقتي الأكسجين والنتروجين ، مع ذلك يبقى هذا النتروجين الشاذ المتمرد قلقاً لا يطيق التقيد باخويه ، فيتطير بشكل ن ٣ هـ من الماء كما نعلم من رائحته التي لا تطاق ويفلت بانحلال الجزيء ، برمته . والنشادر موجود أيضاً كضلع Radical في البولينا Urea ولذلك يشعر برائحته في المبال في طراً عليها الاختبار المحلل له

ومن الأدلة على قلق النتروجين وتمرده انه داخل في المواد المفرقة كالنيتروجليسرين وغيره وهو سبب تفرقها لأن التفرق ليس إلا تنافره مع الذرات الأخرى وافلاته منها فتتحلل الجزيئات الى ذرات تتمدد بسرعة فائقة

يستدل مما تقدم : أولاً ، ان وظيفة الأكسجين والهيدروجين في الحياة ايجاد الوسط (الماء) الذي تنتقل به الحركة ، ثم اشتراكهما مع الكربون في ايجاد الوقيد الذي هو مصدر القوة للحركة ثانياً ، ان وظيفة الكربون جمع العناصر الأخرى معه وربطها بالانفة الكيميائية لبنان هيكل الجسم الحي على اختلاف انواع خلياته من الميكروبات المتنوعة ذات الخلية الواحدة Unicellular الى ما فوقها من الاحياء المتعددة الخليات Multicellular ولولاه لما تألف جزيء حيوي

ثالثاً ، فيما ان وظيفة الكربون البناء تكون وظيفة النتروجين الهدم (من غير اطلاق معنى الهدم) وهي وظيفة ذات شأن لازمة للحركة والنمو ولتطور حياة الخلية . فمعظم عملية دخول «الغذاء» الى الخلية وتمثيله فيها ثم خروجه منها بشكل مختلف عن شكل دخوله (اي عملية التحول Anabolism) يتم بتقليل النتروجين في مركبات البروتينات المختلفة . فنذ ولادة الخلية الى ان تزول تحدث تحولات كيميائية متنوعة عديدة متوالية تتجدد بها حياتها ، تحدث بواسطة الكربون وتقلل النتروجين

في اثناء هذه التحولات التي تحدث بسبب تقلل النتروجين يحدث تأكسد الكربوهيدرات واحياناً الدهنيات ، اي احراقها . والنتيجة حرارة والحرارة صورة من صور الطاقة كما تعلم . وليس ذلك فقط بل ان تقلل النتروجين وتنقله من شكل جزيء الى شكل جزيء آخر يحدث التأين Ionisation اي انسلاخ بعض الكهارب من الجزيئات وحدوث شحنات كهربائية سلبية او ايجابية ،

ولا سيما في الجهاز العصبي اذ يمكن استكشافه هناك واثبات وجود تيار كهربائي ضعيف فيه .
وحدوث هذا التيار هو من جملة مصادر القوة والحركة في الخلية وسائر اعضاء الجسم
بقي ان نبحث قليلاً في كيفية حدوث الحركة في الحي او على الاقل في خلية الحي
ابتداءً البروتوبلاسم ، اول اشكال الحياة ، هلامي القوام (جلاتينياً) بسيطاً ذا نوع واحد من
انواع البروتائنيات . وتألفت جزيئات هذه البروتائنيات بسيطة جداً ، ابسط ما يمكن ان يكون
من هذا الصنف من المركبات الكيماوية الرباعية (ذات العناصر الاربعة) . تألفت تحت تأثير نور
الشمس وحرارتها المعتدلة وتأثير الفوتونات المنتشرة منها وسائر انواع التشعيع مما لا بد ان يحدث
التأين في هذه العناصر تارة بعد تارة . فهذه العوامل المختلفة تؤدي الى سلسلة من التركبات الكيماوية
المختلفة التي منها البروتائين

وابتدأت جزيئات البروتائين متصلة بعضها ببعض لما فيها من لزوجة وبواسطة جاذبية الملاصقة
Cohesion . فلا تنحل في الماء ولا تذوب فيه وانما ينفذها الماء ويتخللها Osmosis بما فيه من
مركبات كيماوية بسيطة كالحامض الكربوني مثلاً ، وبعبارة علمية « مضللة » ، تمتصه وتمتص معه
ما يذوب فيه من المركبات والذرات اللازمة لها لكي تتمثل فيها وتنفيذ منه ما لا حاجة لها به
ولا يخفى ان عملية الامتصاص والنبذ هذه تستلزم حركة انتفاخ وضمور متعاقبين في الجسم الهلامي .
وبين هذه الحركة وما في البيئة المائية (الحياة ابتداءً في الماء) من الحركة الميكانيكية تفاعل لا بد
منه . اي لا بد من حدوث تفاعل بين الجسم الحي وبيئته اخذاً ورداً ، او امتصاصاً ونبذاً . وفي
اثناء هذا التفاعل الطبيعي Physical يجري السائل في غضون الخلية او خلالها حاملاً مواد خارجية
مختلفة كالحامض الكربوني والاملاح من كربونات ونترات الخ . وفيما هذا السائل يتسرب الى
غضون الخلية تحدث تفاعلات كيماوية متوالية بين المواد التي يحملها وبين جزيئات الخلية . تحدث
هذه التفاعلات باستمرار ما دامت مواد جديدة تدخل وما دام النتروجين ينشئ من جزيء الى
جزيء وما دام الكربون يتفنن في تجديد الجزيئات بحسب الذرات التي ترد اليه . وفيما يحدث هذا
التفاعل الكيماوي يكون من نتائج التحولات انفلات بعض الذرات من المركبات بحالتها الغازية .
وهذه الحالة تحدث الانتفاخ والضمور المتعاقبين اللذين اشرنا اليهما سابقاً . وبالتالي يحدث مجرى
سائلي في غضون الخلية

فترى انه ما دام الامتصاص يدخل الى جسم البروتوبلاسم جزيئات جديدة واحياناً ذرات
ايضاً فهذا التفاعل الكيماوي يحدث باستمرار على التوالي وبسرعة . ففي كل هنيئة يحدث حل
وتركيب في الخلية مجدداً لحياتها ونموها . فتخرج منها جزيئات وذرات قد استغنت عنها كما دخلت
اليها جزيئات وذرات اندمجت في جزيئاتها اندماجاً كيماوياً . فكان البروتوبلاسم معمل كيماوي دائم
العمل — الحل والتركيب — ما دامت الخلية تستطيع ان تمتص من البيئة وتنفث فيها

ولأن سطح الخلية الكروي الخارجي ملابس للبيئة والتفاعل الاول يقع بينه وبينها ، فلا بد ان تكون جزيئاته مختلفة ولو بعض الاختلاف عن جزيئات داخل الخلية . وطبيعة هذا التفاعل تجعل ذلك السطح كغلاف امتن مما هو ضمنه واقبل للامتصاص . وهكذا تقضي سنة التطور ان تكون وظيفة هذا الغلاف الامتصاص والنبد ، وحماية الداخل من التفاعلات المنافية لمصلحة الخلية التي لا يستطيع داخلها ان يتوقاها كما يستطيع الغلاف اتقاءها . وهكذا يصير جسم الخلية ذا عضوين مختلفي الوظيفة . الغلاف الذي وصفناه . والنواة التي وظيفتها الرئيسية العمل الكيماوي المنمي بالتجديد والتحول Metabolism & Katabolism وبينهما مجرى السائل الذي يحمل المواد الداخلة والمواد المنبوذة

وما دامت البيئة المختلفة ذات عوامل مختلفة في احوال مختلفة فلا بد من تنوع مناطق الجسم او اجزائه بوظائف مختلفة لكي تقابل مفاعيل البيئة وتنتفع بها . وهذا التفاعل المنوع يسبب تنوعاً يضاهيه في العمليات الكيماوية . وكذلك تتنوع جزيئات الاجزاء المختلفة الوظائف . كذا نشأت اصناف البروتائينات والكربوهيدرات والدهنيات على تمادي الزمان بحكم قانون التطور . ففيما كانت الجزيئات تتجمع في هلام كانت تنوع في بروتوبلاسم

ليس غرضنا من هذا المقال الاسترسال في وصف العمل الحيوي والتطورات التي تتعاقب على البروتوبلاسم وتنتج انواعاً . فان هذا البحث من خصائص البيولوجيا . وانما غرضنا ان نستقصي سر الحياة الى اعماق ما يستطيع . وفيما استقصيناه من بيئة الذرات الاربع التي تتألف منها جزيئات البروتوبلاسم لم نجد الا تفاعلات كيماوية متوالية متعاقبة خاصة بالعناصر الاربعة تحت تأثير حرارة معتدلة وتأثير تشعّعات الشمس المختلفة . وقد رأينا ان الدور الاهم في هذه التفاعلات هو الدور الذي يلعبه الكربون لانه لولاه لما امكن تكون البروتائينات . ويليه في خطر الشأن الدور الذي يلعبه التروجين بنشوزم وشذوذه

فهل سر الحياة هو في الالفة الكيماوية التي تتلاعب بهذه العناصر الاربعة ، ام هو في هذه الالفة مع شيء آخر يستخدمها ولا زلنا نجعله ؟ ربما كان الكيماوي يقتنع بان الالفة الكيماوية هذه كافية لاصدار الحياة لانه لا يرى شيئاً آخر غيرها وراءها . وربما كان غير الكيماوي لا يرتاح الى هذا التعليل فتبقى الحياة سرّاً غامضاً له . فاذا صح ان الحياة اللفة كيماوية بين ٤ عناصر خاصة تحت تأثير حرارة خاصة وتشعّعات خاصة ايضاً فتكون قد ظهرت على الارض صدفة اي غير مقصودة في الوجود المادي ولا هي مضمرة في الفوتونات التي تألفت منها البروتونات والكهارب . والله اعلم

السيكولوجية الحديثة

الغريزة الجنسية في التحليل النفسي

لمعقوب فام

في سنة ١٨٥٥ كان فرويد في باريس يدرس تحت ارشاد شاركو ضروب العلاج بالتحليل النفسي وكان مما يقوله هذا الأخير لفرويد ان « السبب الأصلي في كل عقدة نفسية هو المسألة الجنسية » فكان فرويد يعجب لماذا لا يضع الاستاذ نظريته هذه ويدافع عنها أمام الناس . وعلى كل حال لم يفعل شاركو شيئاً من هذا وترك هذا الميدان دون ان يزعم هذا الزعم بطريقة رسمية ثم بدأ فرويد يعلن هذه النظرية للناس وينضح عنها بكل ما أوتي من جهد وقوة ، ولم يقف عند هذا الحد بل تهادى في هذا الفرض تهادياً جعلنا نعتقد انه لا يرى في الانسان شيئاً او مزعاً الاً من هذه الغريزة ، لا بل نستطيع ان ندعو هذه المدرسة بمدرسة السيكولوجية الجنسية من غير ان نكون متعنتين او مفترين بوجه من الوجوه

كنت ألتحدث في هذا مع صديق لي من المشتغلين بالسيكولوجية في مصر . فكان مما قاله لي اني لا افهم فرويد كما يجب ان يفهم ، قلت قد يجوز ، فأنا لا أدعي اني معصوم من القصور في الفهم ، ولا ادعي اني افهم كل ما يمر بي في مطالعاتي . اذ اني اذكر مرة اني قرأت كتاباً عدد صفحاته حوالي الاربعائة وثمته سبعون قرشاً دفعتهما من مالي الخاص دون ان افهم من هذا الكتاب شيئاً على الاطلاق ، فلا يجب ان اقطع برأي في مسألة فرويد ، ولا يجب ان ألتفت في طريقة عرضي لآرائه ، ولكن ما قولك في ان كل من قرأهم من علماء النفس متفقون على أنهم فهموا ما فهمت منه أنا ، وما قولك في أنهم يفهمونه على ان نظريته في السيكولوجية مبنية في الاغلب على « الغريزة الجنسية » وعلى كل حال سواء أكان اتهام صديقي لي على حق أم على غير حق فاني اعزم ان أترك الحكم للقراء في هذا الموضوع ، اريد ان أبسط امامهم نظريته ولهم وحدهم ان يحكموا في هذا النزاع

ينكر فرويد الزعم بأن سيكولوجيته مبنية على الغريزة الجنسية فقط . ينكر هذا ويلجأ في الانكار . ولكنه يزعم ان أهم شيء في التحليل النفسي هو العوامل الجنسية . هذا من جهة ، واما من الجهة الأخرى فان جميع حالاته يرجعها الى عوامل جنسية في تحليله ، لا بل يفسر جميع الظواهر النفسية على هذا الاساس ، فكأنه ينقض باليمين ما يبنيه باليسار ، واطن ان الخلاف بينه

وبين أدلر نشب في هذا الميدان ، وانفصل التلميذ عن استاذة لهذا السبب دون غيره . واستعرت بينهما الحرب لهذا وليس لشيء آخر ، فبينما يزعم فرويد ان جميع الحالات النفسية التي عالجها ترجع الى نزاع جنسي في النفس او الى نزوع جنسي لم يتحقق بشكل من الاشكال ، بينما يزعم فرويد هذا بقول أدلر ان رغبة التسلط هي الحافز لنا في جميع انواع النشاط ، وان الالتواء في هذه النزعة او القصور في تحقيق غاياتها هو السبب الاسامي في الاضطرابات النفسية ، وتكفي ان تكون المسألة الجنسية هي محور الخلاف وسبب القطيعة بين الاثنين لكي اكون مطمئناً الى اني لم أعد الصواب حين ازعم ان محور التحليل النفساني على طريقة فرويد هو المسألة الجنسية ، واذا كان صديقي الذي اوردت قوله فيما سبق لم يقتنع بعد فليرجع الى اسباب الخلاف بين فرويد وبين يونج ، فان يونج فهم ما فهمت ، واختلف معه فيما اختلف معه فيه الآن ، فما ذنبي يا ترى اذا كان الجميع قد فهموا من فرويد ما فهمت

ونظريات فرويد في الغريزة الجنسية يتلو بعضها بعضاً ويأخذ بعضها برقاب بعض حتى لا نكاد نفيق من كثرة تزاوجها امامنا . فالانسان في رأيه لا يأكل او ينام او يلهو او يجد او يفكر او يحلم إلا بدافع من الجنس . وقد يكون واعياً للدافع الجنسي ، وقد لا يكون واعياً ، ولكن الدافع الجنسي موجود بلا شك في جميع الحالات

طفل في السنة الاولى او في الشهور الاولى من حياته ، تضعه أمه على صدرها وترضعه فيشبع ويعاف الطعام ويريد ان يترك لنفسه ليله بنفسه ويلعب ، يشاهد الدنيا حوله ويتتبع الحركات فيها بعينه ، وبينما هو يراقب المناظر الطبيعية والاجتماعية حواله يضع ابهامه في فمه ويمتصه ، ثم يمتصه وقتاً طويلاً ، تدور انت تبحث عن الدافع لهذا العمل فتجد اجوبة تتعدد بتعدد المجيبين والدوافع الممكنة لمثل هذا العمل ، قد تقول ، وقد تصيب فيما تقول ان هذا الطفل يلهو بهذا العمل ، وقد يقول غيرك لثمة مهتاجة فهو يضع اصبعه فيها ليبرد من هياجها . قد يقول أحدنا هذا او شيئاً مثله ، وقد نخطئ او نصيب في البحث عن العلة في تصرف الطفل ، ولكن فرويد يزعم ان عمل الطفل هذا هو الغريزة الجنسية بعينها ، او هو وظيفة هذه الغريزة عند الاطفال ، وبالطبع هذا زعم لا يقبله لانه لا يقوم عليه دليل اولاً ، ولانه يتعارض مع الذوق العقلي في أبسط مظاهره

ومثل آخر على ما يراه فرويد في شأن هذه الغريزة التي اوشك ان لا يرى في الانسان سواها — انسان يرى فيما يرى النائم انه يتسلق سلم منزله او اي منزل آخر . بالطبع لا تكون هذه الحقيقة هي كل محتويات الحلم ، وانما يتبعها مشاهد ومظاهر اخرى ، فلو سألتني هذا الانسان في معنى حاضره لأجبت ان معدته ليست على ما يرام او ان احد اعضاء جسمه لا يؤدي وظيفته كما يجب ان يؤديها ، وان حرارة جسمه ارتفعت في اثناء النوم لسبب من الاسباب ، وان لم يعجبه واحد من هذه الآراء اقول له انها اضغاث احلام . اما فرويد فيفسره هكذا : في صعود السلم توافق من الحركات

الايقاعية Rhythm ، فالابعد بين الدرجات متساوية ، والحركة التي يأتيها الانسان في صعوده تكون بالتالي متوافقة ، ثم يجب ان لا ننسى ان الحركات التي تستتبع تحقيق الغريزة الجنسية فيها توافق ايضاً ، فيكون معنى هذا الحلم هو في الواقع تحايل من تلك الغريزة على تحقيق غايتها بشكل غامض مبرق ، فهذه الغريزة تريد ان تتحقق على اي حال ، ولما كان تحقيقها تقوم في سبيله صعوبات جمة لا قبل للواعية بالتغلب عليها ، فتتحقق بطريقة لا تستطيع ان تعترض عليها الواعية

وهذا التفسير لا يستقيم لافهامنا على اي حال ، لانه مناقض لابطس قواعد الذوق السليم Common sense ولا ارى ان هنالك علاقة بين صعود السلم والغريزة الجنسية ، ومسألة التوافق هذه ان هي الا تسكاة لا تصلح لتدعيم هذا الرأي بحال من الاحوال ، لاني ارى هذا التوافق او هذا الايقاع Rhythm في المشي والعدو والعموم ، واره في الطيور وهي تطير والحيوان وهو يسير ، واره في جريان الماء واهتزاز الاشجار واره في الموسيقى وفي الشعر والنثر ، وبالاختصار انا ارى هذا التوافق في كثير من المظاهر الطبيعية من النجوم في افلاكها الى الذرات في مداراتها ، وبالطبع لا يستطيع انسان ان يزعم ان جميع هذه هي مظاهر للغريزة الجنسية بشكل من الاشكال

يقولون ان الغريزة الجنسية عند فرويد لا يقصد منها ما تقصده عادة من هذا الاصطلاح في اللغة العادية وانما يقصد امراً اوسع واعرض مما تواضع عليه الناس ، فليس هو قاصراً على الدوافع الطبيعية التي تجذب الذكر الى الانثى من جميع الاحياء ، وليس الغرض منه فقط إخلاف النسل واشباع الرغبة الطبيعية ، وانما معناه عند فرويد اعم واوسع من هذا بكثير ، فحب الجمال من الغريزة الجنسية وحب السلطان والشهرة منه كذلك ، وغريزة حب البقاء والنسل من الغريزة الجنسية

ونحن نظن ان هذا تعسف في التفسير ، ومن قبيل تسمية الاشياء بغير مسمياتها ، فشأنهم في هذا شأن من يطلق مرضاً معيناً على جميع الامراض ، او لوناً معيناً على جميع الالوان ، وعلى هذا القياس يصح ان نسمي مجموعة الوان الطيف الشمسي احمر او اصفر ، على زعم اننا نقصد باللون الواحد جميع الالوان ، مع ان هذا لا يصح لان فيه كثيراً من الخلط والارتباك الذي لا يعود بفائدة على احد لا بل فيه ضرر كثير وتشويش للافهام

وعلى هذا القياس نزع انه سواء اراد فرويد بالغريزة الجنسية ما يريد ، ام اراد بها اكثر مما يريد فالنتيجة في الحالين سواء ، هي انه اغفل من حسابه معظم الدوافع النفسية التي تحفز الناس على العمل والحركة والسعي للحياة في مجموعها

يتبين هذا الاغفال للدوافع النفسية المتباينة من كثير مما كتب فرويد ، ومن مذاهبه في علم النفس حتى وان كنا نحن لا ننبه الى هذا الاغفال ، فمثلاً يزعم فرويد ان الصبي يميل لامه ويحبها اكثر مما يحب اباه . وينصب نفسه عنها مدافعاً ويقف منها موقف القوي يحمي الضعيف ، وتحب الابنة اباه اكثر مما تحب امها ، وتظهر لابيها العواطف الرقيقة المحببة ، التي تظهرها الانثى عادة

لذكر وليس هذا فقط ولكنها تفاخر بأبيها وتعجب به وتزعم أنه أقوى جميع الآباء وامضاهم
عزيمة واشدهم بأماً

ويزيد فرويد على ما تقدم أن الصبي يغار من أبيه للعلاقة القائمة بين الوالد والوالدة ، ويحقد
عليه ويود لو اختفى أبوه وترك الأم للصبي وحده ، وكذلك البنت تغار من أمها ، وتود لو احتلت
هي المكان الممتاز عند أبيها إلى آخر هذه المزاعم ، ثم يختم فرويد مزاعمه هذه بأن يعطي لهذه
الظاهرة اسماً قديماً حتى تبين عليها المسحة الكلاسيكية ، فيدعم الاسم الطنان هذا التخريج الذي
أقل ما يقال فيه أنه قد لا يكون هو الواقع

أما أن هذه الظاهرة النفسية تظهر على بعض الأولاد فقد يجوز لا بل ربما نزع منها أنها محتملة ،
أن الابن يحب أمه أكثر من أبيه ، ويجوز أنه يغار من الأب أيضاً ، ثم يجوز أن هذه الظاهرة
النفسية تبين على البنت ، ولكن ماذا بعد ذلك ، قد نسلم أن هذه الظاهرة النفسية موجودة في
الواقع ، فكيف نعللها ؟ وهل لا يمكن تعليلها إلا عن طريق الغريزة الجنسية ألا يمكن بحال أن
تكون هنالك دوافع نفسية غير هذه ؟ هل أثبت فرويد بما لا يدع مجالاً للشك أن الدافع لهذه
الظاهرة هو الغريزة الجنسية ؟ الحق أنه لم يفعل شيئاً من هذا وإنما هو قد زعم هذا الزعم وذهب
هذا المذهب ، ولكنه لم يقم الحجة القاطعة على صحته

ثم ما قول هذه المدرسة في هذه الظاهرة ؟ ابن يحب أباه أكثر من أمه ، وابنة تحب أمها
أكثر من أبيها ، هل هذا مستحيل ؟ هلاً يمكن أن نجد هذه الظاهرة بنفس الكثرة التي نَجدها
في الظاهرة الأخرى ؟ وهل هذا الحب وهذه الغيرة في هذه الحالة ناتجان أيضاً من الغريزة الجنسية
الحق أن هذه المدرسة تغالت في توكيد الغريزة الجنسية إلى حد أنها فقدت توازنها ، وعرضت
نفسها للنقد الشديد ، لقد امتعنت في هذا المذهب حتى أصبحت لا ترى في رضاعة الطفل من ثدي أمه
مظهراً من مظاهر الغريزة الجنسية ، واطنه من المعقول أن نزع أن حركات الرضاعة أن هي إلا
عمليات عضلية تتطلبها الرضاعة وكفى ، فكل عمل يتطلب بعض الحركات العضلية من غير أن تكون
للك الحركات غاية خارجة عنها ، كتحريرك الذراعين عندما يجري الإنسان ، وهذا بالطبع لا يستدعي
مننا أن نبحث له عن دوافع نفسية ، إذ يكفي أن نقول فيه أنه حركات يستلزمها الجري

ومع كل ما تقدم نستطيع أن نؤكد للقارئ أن الفرويدية خدمت السيكولوجية الحديثة خدمة
لا تقدر ، وأنه لولا هذا المذهب لبقى كثير من المسائل النفسية مستعصياً على الفهم ولصار من
المتعذر على علماء النفس أن يعرفوا الدوافع لكثير من تصرفات الإنسان ، ولعجزوا أيضاً عن فهم
كثير من الأسباب الأساسية لبعض المشكلات النفسية

فإن كنا قد تعرضنا لفرويد بالنقد فذلك لأننا نشعر بما له علينا من الفضل في الكشف عن
بعض المبادئ الأساسية للسيكولوجية الحديثة

أناطول فرانس

بعد عشرة أعوام من وفاته

لعلي كامل

مقدمة

بلغ أناطول فرانس في حياته اسمي ما يمكن ان يبلغه كاتب عبقرى . فوصل اسمه الى اقصى البلاد . وترجمت مؤلفاته الى معظم اللغات الحية وغير الحية . وطبعت كتبه مئات الطبعات . ونال من الجوائز والمراتب ارفعها شأنًا واعلاها ذكرًا مما تنقطع دونها أعناق أعظم الكتّاب . فنذ خط طريقه الى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور في ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٤ وفي عام ١٨٩٦ انتخب عضواً في الاكاديمية فرانسيز . وفي عام ١٩٢٠ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من الجنيهاً تبرع بها كلها لأهل روسيا ايام المجاعة !

على ان أناطول فرانس لم يكد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقد يحاسبونه حساباً عسيراً . ينهشون اعماله ويحللون ويناقشون افكاره فانتهى الكثير منهم الى ان أناطول فرانس قد نال في حياته من المجد اكثر مما يستحق بكثير ! واتهموه بأنه كان على نقىض ما اراد ان ينشره حول اسمه ونجح فيه بفضل « ادعائه ودجله » ! فقد اراد ان يظهر بمظهر الرجل الذي جاء الى هذا العالم ليغرس الرحمة في قلوب البشر المتحجرة . ولكنه كان في نظرهم ابعد الناس عن الرحمة والثناء للضعفاء والمساكين . قالوا : كيف يمكن ان يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً وهو الرجل الذي سخر حياته للسخرية من صرعى الحياة . رجل جاء الى هذا العالم ليستمتع بأ كبر لذة مستطاعة وليسخر من اكبر عدد ممكن من الناس . نعم كيف يفهم آلام الغير ويحس باوجاع المتألمين انسان لم يشعر بالألم الحقيقي مرة واحدة في حياته الطويلة لانه كان يكره الألم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فراراً الى سماء اللذات ومتع الحياة !

ولقد كان أناطول فرانس في كتاباته واقواله ديموقراطياً بل شيوعياً ثائراً . ولكم سخر منه في ذلك ايضاً فريق ناقدية . ألم يهزأ بالثورات ورجالها في قصته (الالهة ظلمى) ؟ ! ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الانساني والثقافة العليا ؟ !

ولقد اضاف النقد الى ما سبق فاعتبروا أناطول فرانس (لصاً بارعاً) سرق كل ما جاء به من الافكار من آداب وفلسفة الرومان والاغريق على الخصوص . ولقد خرج الناقد اندريه ليلي Lilly عن

ذلك الى اعتبار أناطول فرانس (مفكراً من الدرجة الثانية)^(١) اما الكاتب العظيم اندريه جيد Gide فقد قال عنه (كان يمكن ان يفيض حيي لأناطول فرانس اكثر مما هو الآن لولا ان عدداً من قلبي التبصر والدراية ارادوا ان يجعلوا منه كاتباً ممتازاً ان قيمة الكاتب كما يقول ستندھال هي في قدرته على هز قارئه وانا حين اقرأ أناطول فرانس لا اشعر مطلقاً بأقل اهتزاز^(٢))

ولسنا نود ان نذكر شيئاً من التحقير وانتشهر الذي وجهه جماعة الـ Surréalistes الى أدب أناطول فرانس لأنه يتعدى حد النقد المعتدل البريء

على ان أناطول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجهه الى (الاستاذ الاعظم) — كما كان يسميه الفرنسيون — حتى اعتبره ميشيل كورداي في كتابه عنه (نصف إله)

ياله من تناقض عجيب ! ان الانسان ليشعر بالعجز المذل حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتضاربة . على اننا سنحاول ان نتجرد من التأثر برأي كل من الفريقين . ولننظر الى أناطول فرانس كما كان هو ينظر الى الناس . لننظر اليه متعاليين متكبرين . لان التعالي والكبرياء ينفعاننا في الحكم عليه دون التأثر بتحزب عدو او الخضوع لمحاباة صديق . لنحكم عليه من خلال اعماله المجردة ولنستمعن الى جانب ذلك بمخلاصة صرخات النقاد طوال هذه السنوات العشر التي انقضت على وفاته ، من اصدقاء واعداء على السواء

❖ حياته واعماله ❖ ولد أناطول فرانس في باريس في اليوم السادس عشر من ابريل عام ١٨٤٤ وكان والده — ويدعى فرانسوى نويل تيبو — بائع كتب . فنشأ أناطول بين تلال المؤلفات العديدة المتنوعة يقرب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شيء دون ان يدري كنهها وقيمتها . فلما شب قليلاً وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وراث العقول بمجشع غريب وابدأت تنفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدّها من ثنايا الاسفار

على ان احوال حياته العائلية قد أعانته أيضاً اكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة فلقد عرفنا الآن ان أناطول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعياً ان يقضي الصبي أناطول معظم يومه في الشوارع والطرقات بين أمثاله من الصغار . لذلك كانت طفولته أقرب الى التشرّد والاضطراب منها الى الهدوء والاستقرار الذي يخلقه الحياة المنزلية الوداعة . ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول Craincaille وقد ظهر كل ذلك واضحاً في قصته . وعند ما شب أناطول فرانس اشتغل مساعداً لأبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه ما يحبها وما يكرهها . فعرف من ألوان الحياة كثيراً مما لا يعرفه الكثيرون

(1) André Lilly : La littérature française contemporaine p. 152

(2) André Gide : Morceaux choisis. 20ème édition p. 137.

وكان أناطول فرانس يعتز الى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر انه كان يعلّق بها شأناً خاصاً في توجيه تفكيره وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذي كان يمتاز به. وهذا هو مادعاه لأن يقول في (كتاب صديقي) Le livre de mon ami هذه العبارة القصيرة التي تضم روح الاعتزاز والغرور (إني باريسى بكل نفسي وبكل جسمي) لذا لكي ندرس أناطول فرانس وتفكيره وروحه يجب ان نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث

باريسي صميم — ابن بأبع كتب — طفولة متشردة

لم يكن أناطول فرانس طالباً مجداً. وكان اهتمامه بقراءة الادب وبناء آمال ادبية اكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية. بل انه كان يعتبر ان حياة المدرسة ودروسها كانت حائلاً بينه وبين العلم الحقيقي اذ يقول (اني لم ابتدء في التعلم الا عندما انقطعت عن الدراسة المدرسية) وكان أناطول طول حياته المدرسية فتى مشاغباً دائماً السخرية من أساتذته. ومجموعة ذكريات حياته التي كتبها فيما بعد حافلة بالشخصيات التي تمثل أساتذته أيام الدراسة مصورة روح ساخرة ماجنة! وكانت والدته أناطول فرانس — كسائر الامهات — تؤمن ايماناً صادقاً بأن ولدها سوف يصادف النجاح في جميع مراحل حياته. أما والده فكان على الضد شديد الخوف على مصير ولده وانك لتشعر بما كان يساوره من خطاب كتبه عام ١٨٦٨ وكان أناطول فرانس في الرابعة والعشرين. قال فيه (ان ولدي لا يتبع نصائحي فهو لا يزال دون عمل. انه يكتب. بل يجب ان اقول انه يكتب بأسلوبه الرديء يشوه به الصفحات! ^(١) ان ما كنت اخشاه منذ صغره قد شاء القدر ان يتحقق الآن. لقد عيل صبري في مقاومته. فهل سيكون من الفطنة والذكاء بحيث يستطيع ان يعول نفسه. واأسفاه! واأسفاه!)

أجل لم يقبل أناطول فرانس ان ينتظم في عمل من الاعمال يحقق بها رجاؤه والديه. بل ظل يقاوم مشيئتهما بعناد منابر آ على اعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغه بعد جهد جهيد نعم بعد جهد جهيد. فقد كان الدور التحضيري لمجده الادبي طويلاً مملاً، اذ قضى سنين طويلة يعمل في مكتبة ابيه. وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرها بعد ان يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة. وكان يشتغل في ذلك الوقت ايضاً بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية كانت اولها رسالة عن الفريد دوفيني (١٨٦٨) ثم ابتداءً يخوض غمار الشعر فنظم عدداً من المقطوعات جمعت في مجموعتين الأولى بعنوان Les Poèmes dorés (١٨٧٣) والثانية بعنوان Noes Corinthiennes (١٨٧٦) وكانت جميع هذه الاعمال — بأجماع النقاد — خالية من التفكير

(١) سري القارئ فيما بعد ان النقاد يجمعون على ان أناطول فرانس خير من كتب الفرنسية من الثورة الفرنسية الى الآن!

النير والذهن الصافي فلم ترفع ذكر مؤلفها . وفي عام ١٨٧٩ نشر اناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته في التأليف القصصي وهما *Jocaste et le chat maigre* فلم تسترعيا اليهما الانظار وفي عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستر بونار) *Le Crime de Sylvestre Bonnard* فخرج اسمه بهذه القصة مرة واحدة من الظلمة الى النور . وتوالت بعد هذه القصة اعماله الادبية فكتب قصة (آمال جان سرفيان) *Les Désirs des Jean Servien* و (كتاب صديقي) *Livre de mon ami* (١٨٨٥) وهو الكتاب الاول من كتبه الاربعة التي ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب *Balthazar* و (تاييس) *Thaïs* (١٨٩٠) و *L'Etui de nacre* و (آراء جيروم كوانيار) *Opinions de Gêrôme* و *Coignard* و *La Rôtisserie de la reine Pédauque* ^(١) و *Lys Rouge* و *Jardin d'Epicure* و *Puits de Sainte Claire* (١٨٩٥)

ومن عام ١٨٨٨ الى عام ١٨٩٢ كان اناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الادبي بجريدة الطان بعنوان الحياة الادبية *Vie littéraire*

الى ذلك الوقت كان اناتول فرانس مخلصاً لفنه واقفاً حياته عليه حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة تجذبه الى غمار السياسة ووقف معارضاً لدوداً لتلميذه شارل موراس . وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الاربعة في (التاريخ المعاصر) *Histoire contemporaine* وهي *Le Mannequin d'osier* و *L'orme du mail* و *L'Anneau d'Améthyste* و *M. Bergeret à Paris*

وفي اثناء هذه المدة ظهرت قصته *Clio* و *Pierre Nosière* وهو الكتاب الثاني من ذكرياته ومضى اناتول فرانس يوالي انتاجه القصصي وهو يسعى جهده في ان يغير طابع اعماله الادبية من قصص تشرح افكاره الفلسفية ونظراته العلمية الى اخرى تطغى فيها روحه الساخرة ونفسه الممرحة فكتب في هذه الفترة من حياته من النوع الاول قصصه *Sur la pierre blanche* و *L'Ile des pingouin* و *Vers les temps meilleurs* ومن النوع الثاني *Histoire comique*

و *Les Contes de Jacques Tournebroche* و *Les Sept femmes de Barbe — bleue*

وفي عام ١٩٠٨ نشر اناتول فرانس كتابه (حياة جان دارك) *Vie de Jeanne d'Arc* الذي حاول به ان يخرج عن طريقته في معالجة التاريخ كقصص الى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على ان اناتول فرانس قد اخفق في تحقيق ما تمنى

وفي عام ١٩١٢ نشر اناتول فرانس قصته (الآلهة ظاهري) *Les Dieux ont soif* ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) *La Revolte des Anges* وبكتابه *Le petit Pierre* و *La vie en fleur* أتم

(١) يكاد يجمع النقاد ان قصته *La Rôtisserie de la Reine Pédauque* هي خير قصص اناتول فرانس . على ان هذا الرأي لا يتفق ورأي اناتول فرانس نفسه . اذ هو يقول (اذا أعدت كتابة كل قصتي . فن القصة الوحيدة التي أعيدتها كما هي . كلمة بكلمة . هي قصة : *Histoire Comique*) فهي في نظره خير قصصه

اناتول فرانس كتبه الاربعة عن ذكريات حياته . وقد ذكر في ختام كتابه الاخير *La vie en fleur* ان هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والاخلاق والعادات) وان التغيير الذي حدث ينحصر فقط في تغيير الاسماء واحوال معظم اشخاصها

❖ كلاسيكية اناتول فرانس ❖ تفتحت عيننا اناتول فرانس منذ طفولته على مناظر السين ومياهه الجارية (كما تجري صور الحياة في هذا العالم كل منها يمر ولا يبقى شيء) كما شبهها اناتول فرانس . وكان غرامه النادر بالكتب والدرس يجعله يهيم بأرصفتي نهر السين (القديمة الحزينة — كما يقول — تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل . أجل مكان في العالم . حيث تجمع الاشجار والكتب . وتمر النساء أمام العيون) . وكانت نفسه الشاعرة الفنانة تدفعه الى طول التأمل في (اللوفر) وفي (كنيسة نوردام) وغيرهما من آثار قرون المجد السالفة . تلك الآثار التي لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهباً بعد بازدهام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة . فلم يكن غريباً اذن ان يطبع كل ذلك نفس اناتول فرانس بما عرف عنه من حب الآثار والحنين الى الماضي السحيق فانكب منذ صغره على دراسة آداب الاغريق وعلومهم ونقشت في ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل الجد مثل هوميروس وصفوقليس واثوقريطس أو أهل المجون مثل ابيقوروس ولقد تأثر فرانس أيضاً بالآداب اللاتينية وان كان تأثره بمظاهر الحياة اكثر من تأثره بأفكار الكتاب . كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره . ولا يجب ان ننسى أيضاً ما كان بين أناتول فرانس ومفكري القرن التاسع عشر مثل رينان وشوبنهاور وداروين من التجاوب الروحي والفكري

من ذلك نرى ان اناتول فرانس قد جمع في عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعاً وظهر ذلك واضحاً في كتبه حتى انه يؤثر عنه قوله : — لست اعثر على شيء جديد الا في كتاب قديم

❖ نفسيته ونظرته الى الحياة ❖ ان فن اناتول فرانس ما هو الا صورة من نفسه فالشخصيات التي رسمها في كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها وعاشرها . كذلك الآراء التي سردها على لسان ابطاله هي فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل اليه فهمه للحياة والناس كان اناتول فرانس سطحي النظر الى الحياة . ولعل هذا هو السبب في خلو افكاره من العمق الفلسفي . فهو لم يحاول ان يتغلغل الى اعماق عوالم يجهلها ليكشف عن اسرارها ثم يصبها في فنه وأدبه بل كان ينظر الى الحياة نظرة متفرج . كأنه قائد جلس على ربوة عالية يشرف من فوقها على معركة الحياة وهو قابع مستريح . ولقد شرح اناتول فرانس فلسفته في ذلك فقال (لقد كنت دائماً ميالاً في كل وقت الى النظر الى الحياة كما ينظر الانسان الى منظر من المناظر الطبيعية . فلم اكن يوماً من الايام ملاحظاً مدققاً لأن الملاحظة لا بد لها من طريقة توجيهاً وانا ليس لي طريقة من الطرق . ان

الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجههما الوجهة التي يريد بها . اما المتفرج فهو يستسلم لعينيه قائماً بما زاه . لقد ولدت متفرجاً وسأحافظ طول حياتي — كما اعتقد — على السذاجة العظمى التي تميز اطفال باريس . تلك السذاجة التي تجعلهم يحبون كل شيء والتي يحافظون عليها مهما تقدمت بهم السنون (والواقع الذي لا سبيل الى إنكاره ان أناطول فرانس قد جمع في نفسه سجايا المتكبر المغرور ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع وثقافته المترامية المستمدة من الثقافة الاغريقية وهي ام الثقافات جميعاً . فاصبح ينظر الى الجيل الذي يعيش فيه كما ينظر اجدادنا وأبائنا الينا . انهم ينظرون الينا بعيون ملؤها الاشفاق والرثاء كأننا مهمنا لننا من سعادة مُتَصَوِّرة او علم زهوى به وهو في نظرهم قشور . لا يمكن ان نبلغ ما بلغوا من سعادة ولا يمكن ان نحوي عقولنا ما حوته عقولهم من علوم ومعارف ! تلك كانت نفسية أناطول فرانس وكأنه كان يقصد نفسه بقوله (متى توصل الانسان الى فهم كل شيء لم يرد شيئاً) لذا كان أناطول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفي عليه من الامور . كان كبرياؤه العجيب يدفعه الى الايمان بأن كل ما يحمله لا يستحق ان يعرف ! ولذا لم يكلف نفسه عبء التغلغل الى صميم الاشياء لكي يصل الى فهم الحياة والناس كما يجب . وكيف يكلف نفسه وهو الذي يقول (ان علم الحياة الحقيقي هو احتقار كريم للناس اجمعين)

لقد فرض أناطول فرانس الشر في كل شيء وكان يجد العزاء الواسع في احضان المذات بنتهبها انتهاباً . وكان ايمانه بمذهب ابيقوروس في التمتع في الحياة بأكثر لذة مستطاعة انما وصل اليه بعد تفكير هادئ رزين . ولقد بلغ به حبه للذة مجرد اللذة ان أنكر الغيرة (التي لم اشعر بها قط طول حياتي) كما قال (١) كما انه أنكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجل بالمرأة لا تخرج عن (مهمة جسدية)

﴿ تفكير أناطول فرانس ﴾ كان تفكير أناطول فرانس يدور حول أمرين

(١) الشك Scepticisme (٢) الاشتراكية

فالامر الاول يحدد نفسيته العامة ورأيه في الاديان ، والامر الثاني يبين فكرته السياسية والاجتماعية

﴿ شك ﴾ ان شك أناطول فرانس ليس شك الرجل الذي يؤمن بعظم مسائل الكون وضآلة تفكيره حين يعمق في التعمق فيها بل شك العالم المستهتر الذي ركبه الغرور فصار يهزأ بكل رأي وليسخر من كل فكرة لجميع الآراء والنظريات في نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبدعوها وأي سخريه تلك التي دفعته لان يقول على لسان أحد أبطال قصة (آمال جان سرفيان) هذا القول (ان رأي العالم أجمع لا يستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) فأنت ترى ان أناطول فرانس كان ينظر الى العالم نظرة متشكك تأثر ساخر من كل ما يراه هازي . بكل من حوله حتى دفعه ذلك الى القول (كل قاعدة بحثت في اصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الأمر

حتى علمت انها لم تكن قاعدة ! وفي (حديقة ابيقور) يقول :

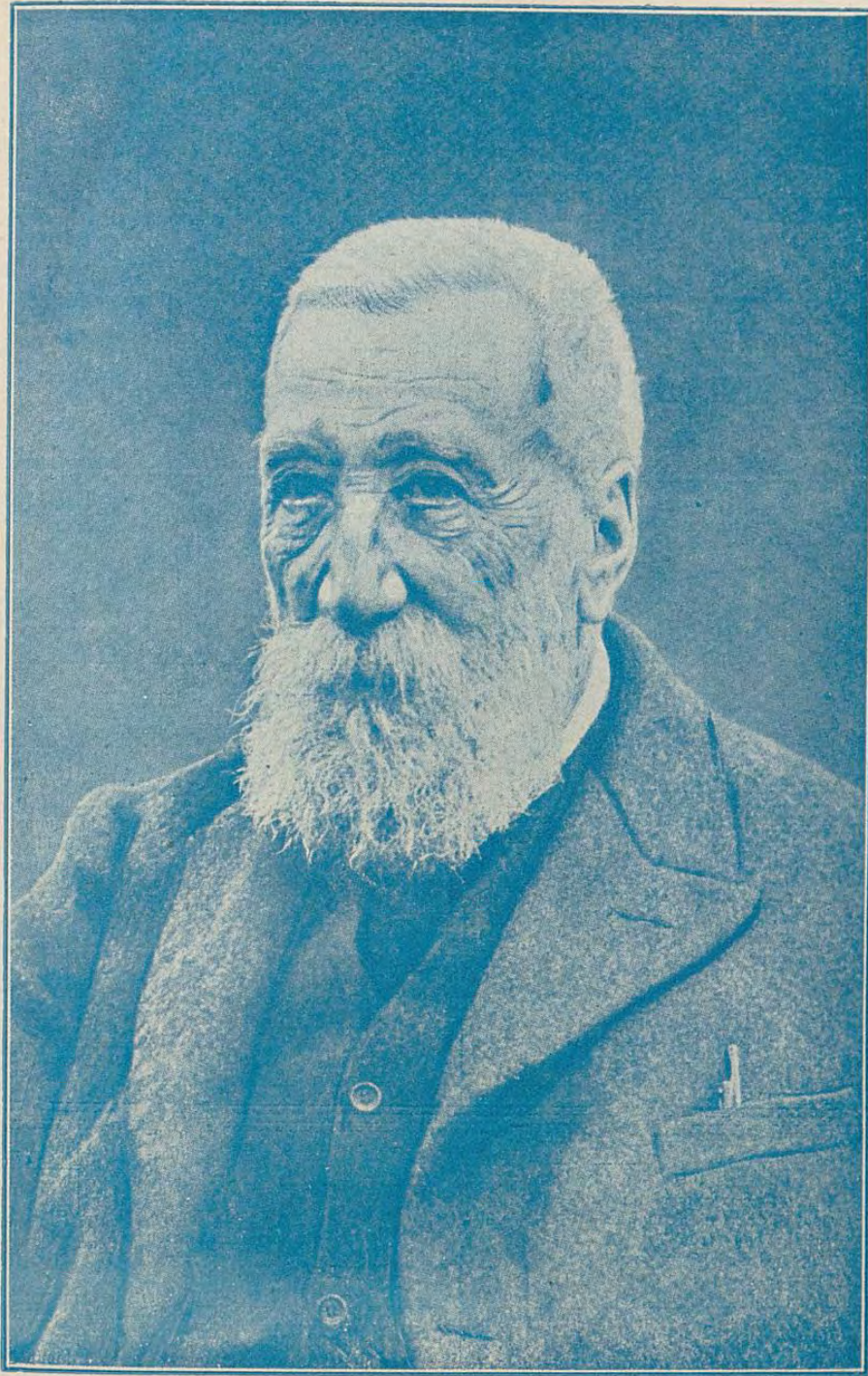
— كلما فكرت في الحياة الانسانية زاد اعتقادي في ان السخرية والشفقة هما الوسيلتان الوحيدتان للنظر اليها والحكم عليها . اذ ان السخرية والشفقة ناصحان رفيقان فالسخرية تحجب البنا الحياة . والشفقة تجعلها مقدسة لدينا . والسخرية التي أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة . انها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل ، انها السخرية الهادئة الكريمة . فالابتسامة الساخرة تسكن سورة الغضب وهي التي تعلمنا التهمك بالاشرار والحمقى وبدونها تضعف ويتسلط علينا الحقد والضعينة ولقد اراد أناتول فرانس ان يرسم نفسه في كتابه (آراء جيروم كوانيار) في مقدمة الكتاب تراه يحلل شخصية (جيروم) فيصفه بأنه : (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما في نظر أناتول فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وجيروم هذا (فيلسوف ومسيحي) تأثر باثنين كان لهما الأثر الاكبر في تفكيره : الاول ابيقور Epicure الذي اكتسب منه انطلاق الرأي وحرية الفكر والثاني سان فرانسوى داسيز Saint François d'Assise الذى أخذ منه بساطة النفس والبعد عن التكلف المرذول . والقارىء لكتاب (آراء جيروم كوانيار) لا يلبث ان يحس بذلك الجموح الذي يغمر آراء جيروم وبتلك الروح الماحجة الساخرة التي تجعله يعصف بالدين والاخلاق والتشريع والفكر الانساني وكل ما اصطلاح على تمجيده وتقديسه

فالهدم . الهدم . هو صفة أناتول فرانس العظمى . ان كل صفحة يخطها هي احتقار لتقليد من التقاليد أو تسفيه لفكرة سائدة من الافكار . خذ المجتمع الانساني مثلاً . أنه حين يذكره تراه قد انقلبت شخصيته وتحول استهتاره ومجونه الى قسوة لا رحمة فيها فينزل على المجتمع وعلى تقاليده واخلاق ابنائه بسياط من نار . حتى العقل الذي طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته اذ يقول في نهاية (آراء جيروم كوانيار) — اذا أردنا ان نخدم الناس فيجب ان ننبد كل منطق وتفكير . ونلقي به كما نلقي بأثاث يضايقنا . يجب ان نطير على أجنحه العاطفة والحمية . أما التفكير والتعن فلا . ان الانسان اذا فكر فإنه لن يتقدم مطلقاً تقدماً محسوساً

✽ أناتول فرانس والدين ✽ كان طبيعياً ان يؤدي شك أناتول فرانس الى عدم الايمان بالله فقد كان مادياً عنيداً وكان احتقاره للكنيسة وسخريته من رجالها لا مثيل له . اذ كان يعتقد انها العدو اللدود لكل فكر حر ورأي مستنير

ان جميع كتب أناتول فرانس تحميش بالحاد راسخ . ولقد بقي حتى آخر لحظة من حياته محافظاً على إلحاده مخالفاً بذلك لكثير من المفكرين الملحدن الذين حين تتقدم بهم الشيخوخة و تخور قوة أعصابهم وينطفي جوح شبابهم يهرعون الى صفوف المؤمنين كأشد الناس ايماناً واعظمهم تديناً ولقد لخص أناتول فرانس كل آرائه في الدين في كتابه (احاديث عن وجود الله) (١)

(١) راجع تلخيص هذه الآراء في كتاب ميشيل كورداي : Anatole France d'après ses confidences



اناتول فرانس قبيل وفاته

سنة ١٩٢٤

(١)

(٢)

lligence

تأليف برو

1 et 192

حز

Entretiens sur l'existence de Dieu الذي كتبه في آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلمه الى صديقه الكاتب ميشيل كورداي وعهد اليه في نشره فظهر بعد موته بعام كان هذا الكتاب آخر ما خطته يدا أناتول فرانس في عالم التأليف وهذا وحده يكفي لان يبرهن لنا ان اناتول فرانس بقي ملحداً حتى آخر لحظة من حياته . اسمعه وهو يقول : —
— نعم انني بالتأكيد ملحد . لقد فكرت وكل من وصل الى قدر معين من الذكاء لا يستطيع ان يكون غير ذلك . انني لا أبغي شيئاً من وراء اعلان إلحادي . وكل ما اريد قوله هو أنه حتى في اليهود التي كان الدين مسيطراً فيها على كل شيء كان هناك عدد من الكافرين اكثر من عددهم الآن . وكل ما هنالك انهم كانوا عاجزين عن اظهار ما يبطنون

واناتول فرانس كغيره من الماديين يرى انه ليست هناك قوة خارجية تسيطر الكون . وان كل هذه القوانين الطبيعية التي تتحرك بمقتضاها الكواكب والرياح وغيرها هي قوانين تحدث من تلقاء نفسها ولا تتغير . فالكون في نظره هو مجموعة قوانين يتوقف كل قانون منها على الآخر ويؤثر فيه (١)
على ان اناتول فرانس يرى ان الدين كان حدثاً لا بد منه . ذلك ان الدين في نظره وليد العذاب والشقاء . وما دام العذاب والشقاء لا يفارقان هذا العالم . فاذن كان لا بد من ظهور الاديان وسيادتها (فالؤمن المتدين — في نظر اناتول فرانس — هو الشخص الغارق في الخطيئة الذي يأمل بتدينه الصفيح والغفران او المعذب البائس الذي فاته نعيم الدنيا فالتمس العزاء بتصور نعيم الآخرة) (٢)
وكثيراً ما ترى اناتول فرانس يمزج انكاره لوجود الخالق بنوع من السخرية الجريئة التي هي اول خصائص تفكيره كقوله (ان علينا من واجبات الحياة ما فيه الكفاية فلم نخلق في تصوراتنا واجبات نحو إله لا وجود له) وقوله لقد جعل الناس من الله شخصية مخيفة . فكيف يمكن لانسان ان يتوسل ويبتهل الى كائن ثقيل الظل . — Les hommes ont fait de lui un personnage odieux .
Comment peut-on prier un être aussi antipathique ? وقوله ايضاً (ان عجز الله لا حد له) (٣)

L'impuissance de Dieu est infinie ولنختم الكلام عن الحاد أناتول فرانس بهذه العبارة التي زيك كيف يجد في الإلحاد والكفر نعيماً نفسياً لا يقبل التنازل عنه — ان الحزن الفلسفي قد فسر نفسه اكثر من مرة تفسيراً رائعاً مكتئباً . فكما ان المؤمنين الذين وصلوا الى أقصى حد من الجمال المعنوي يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع . كذلك العالم الذي اقتنع بأن كل ما يحيط بنا ما هو الا كذب وخداع تسكره تلك الحسرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادئ . ان الذين يتذوقون

(١) Emmanuel Chrysostome : Anatole France p. 40

(٢) راجع تلخيص الامير شكيب ارسلان لكتاب نيقولا سيجور Ségur المسمى Conversations avec Anatole France, ou, Inquiétudes de l'intelligence الملحق بكتاب (اناتول فرانس في مبادله) تأليف بروسون وتحرير الامير شكيب (ص ٦٤ و ٦٥)

(٣) Michel Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs p. 191 et 192

جمال ذلك الهم الدفين لا يقبلون ان يستبدلوه بالمسرات الجائعة والاماني الوهمية التي تلازم رجل الشارع
 ﴿ اشتراكته ﴾ رأينا ان الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس أجمعين هو الظاهرة الطاغية
 على فن اناتول فرانس . وانت اذا اردت ان تفتش من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض
 والسخرية المريرة وجدتهما يرجعان الى خيبة امله في النفس الانسانية والفكر الانساني فنحن كما كنا
 منذ عشرات القرون لا نزال ننغمس جميعاً في حمأة الرذائل والنقائص الاخلاقية والفكرية فاذا اردت
 ان تعرف بعد ذلك السبب الذي يرجع اناتول فرانس معظم هذه الرذائل والنقائص وجدته
 يرجعها الى شيء واحد وذلك الشيء هو المال

فالمال . المال عند اناتول فرانس هو الاساس الذي قامت عليه دامة معظم الرذائل الانسانية
 لذلك نرى ان اناتول فرانس رغم استهتاره بكل شيء ونظرته المتشائمة اليأس كانت تمر على ثغره بين
 حين وحين بسحات مضيئة من الامل العريض في مستقبل الانسانية . فقد كان يعتقد ان شيئاً واحداً
 لو تحقق انارت العالم موجة من السعادة الخالدة والهناء العميمة . ذلك الشيء هو تحطيم سلطة المال
 وانهار صرح النظام الاجتماعي الذي تعيش الآن في ذيله ليحل محله نظام اشتراكي ينشر العدالة
 الاقتصادية بين الناس ويمحو من الوجود ظلم الغني وعبودية الفقير ذلك ان (الأخاء بين الناس
 — كما يقول — هو النتيجة المحتمة للاشتراكية) وهو يقول ايضاً (ان السلام العالمي سوف يتحقق
 يوماً من الايام لا لأن الناس سوف يصبحون خيراً مما هم عليه الآن — فليس من السهل التعلق بهذا
 الامل — بل لان نظاماً جديداً للاشياء او علماً جديداً وضروريات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهم
 حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة في الماضي ان يعيشوا في حالة حرب دائمة)
 وكان اناتول فرانس يرى رأي كارل ماركس في ان اتحاد العمال من الوسائل الاكيدة لحفظ السلام
 العالمي . وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحرب . وكثيراً ما كان يكرر هذه العبارة
 (يظن البعض ان المرء يموت في الحرب من اجل الوطن . كلاً . انه يموت من اجل اصحاب المصانع)
 على ان اناتول فرانس رغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة انسانية عظيمة كان لا يؤمن
 بسيادة البراهين وبالتالي كان لا يؤمن بالديموقراطية . ولذا هاجمه النقاد واتهموه بالتذبذب والرياء
 والتجرد من اولى صفات الاديب العظيم وهي التعلق بمثال انساني أعلى . واعتبروا اشتراكته ودفاعه
 عن الفقراء واحتقاره للمال والاغنياء نوعاً من الدجل الفكري الذي اتخذه سماً لبلوغ قمة المجد الادبي .
 على ان اناتول فرانس رغم عدم ايمانه بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهوري على غيره
 من نظم الحكم الراهنة (لانه اخف من غيره ايذاءً واقل ضرراً . فهو ليس العدالة ولكنه اقرب
 الى الطبيعة والبساطة من غيره من النظم)

واناتول فرانس من هذه الناحية شديد التأثر بالفيلسوف ارنست رينان ^(١) فقد كان هذا شديد

الطعن في الديمقراطية متهماً إياها أنها تتعارض والمدينة لأنها تعوق التقدم الفكري . على أن رينان اعترف في النهاية بأن الديمقراطية لا تتعارض مطلقاً والمدينة بل هي من أكبر العوامل على دفعها إلى الامام في سبيل السمو والكمال . ومثل رينان كان اناتول فرانس فقد كان هذا الأخير رجلاً ثورياً يتخذ الاشتراكية مثله الاجتماعي الأعلى . على أنه كان يعتقد إلى جانب ذلك أن الفكر لا ينهض إلا في احضان الارستقراطية لذا كان يرى أن رسالته ككاتب وأديب فنان تقضي عليه أن يوفق بين الثورة والثقافة فإذا كان يرى أن سيادة الشعب تسيء إلى الفكر الانساني فهو لا يتردد في أن يظهر قلقه من سيادة الجماهير مبيناً عيوب النظام الديمقراطي وأن كان هو نفسه يفضل على غيره من نظم الحكم لما فيه من الفضائل التي تفوق نسبياً فضائل النظم الأخرى

ويفسر أميل فاجيه^(١) كره اناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم بأن اناتول فرانس كان كأستاذه فولتير شديد الكره للأديان وما يتخذ صورتها كالثورات العنيفة . ذلك أن الجماهير التي عرض احشائها الجوع ومزج كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين — هذه الجماهير حين تنفجر انفاسها المخنوقة في ثورة تأكل في طريقها الأخضر واليابس تراها تتخذ مثل الثورة الأعلى ديناً تمجده كسائر الأديان فتتصبب له وترتكب في سبيله وبنفس الروح نفس الجرائم والآثام التي يرتكبها رجال الدين الغاشمون ضد الخارجين عليهم . وقد أظهر ذلك اناتول فرانس بطريقة بارعة في قصته (الآلهة ظمأى)

أن اناتول فرانس يمتاز بأنه لا يأخذ بفكرة من الأفكار على أن في تحقيقها بلوغ الكمال المطلق . لذا تراه رغم إيمانه الصارخ بالاشتراكية كان لا يفتأ يوجه إليها نقداً لا يقل في مرارته عن النقد الذي يوجهه إليها أعداؤها اللدءاء . من ذلك قوله في حديث له مع جوريس رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي اغتيل عام ١٩١٤ — أن من البين أن محول الأنواع الحية لا يطابق المساواة فنظرية داروين في الانتخاب التي هي مفتاح التاريخ الطبيعي أو التاريخ بالاجمال كل اعتمادها على الفروق . والمخلوقات لا تترقى إلا بالبعد عن المساواة . أن في تاريخ الهيئات الاجتماعية وتواريخ الفنون والآداب والاختراعات براهين على أنه لا سبيل لوجود شيء إلا بوجود المتفوقين والتفوق هو تقيض التساوي^(٢)

وليس هنا مجال القول أن الاشتراكية — كما أجابه جوريس — لا تساوي بين كفاءات الأشخاص بل تساوي بينهم في الحقوق ودرجات الرفاهية وتوزيع العدل . وإنما الذي يزيد بيانه أن اناتول فرانس كان لا يتردد في انتقاد الاشتراكية وأظهار ما يراه فيها من عيوب . وأن كان يرى أنها المثل الأعلى لنظم الحكم جميعاً حيث بها يمكن تحقيق أكبر قسط ممكن من العدالة الإنسانية وبحو أعظم قدر من الشقاء الانساني أن لم يكن كله

والواقع أن هذه الطريقة التي يفكر بها اناتول فرانس لا تعيبه ولا يجب أن تكون موضعاً

(١) Emile Faguet : Petite histoire de la littérature française p 306 et 307

(٢) راجع كتاب (اناتول فرانس في مبادئه) ص ٧٢ و ٧٣

للموم او نقد بل هي في نظرنا دليل سعة الفكر والعقل الراجح فقد تعودنا ان نرى الشخص الذي يؤمن بمبدأ من المبادئ السياسية او الاجتماعية يتعصب له تعصباً شديداً ويدافع عن مبدئه في الحق والباطل . ينسى رذائله ويتشبه بأفقه فضائله . اما اناتول فرانس فلم يكن كذلك وكان اعزازه الذي لا حده وفكره الواسع المتراخي يجعلانه لا يشعر بالنقص الذي يشعر به غيره من الناس حين يعترف بنواحي الضعف في الفكرة التي يؤمن بها . وكانت طبيعة الشك التي تغمره تساعد على استكشاف مواضع الخطأ قبل مواضع الصواب في كل شيء يراه او يفكر فيه .

ان الذي لا ريب فيه ان اناتول فرانس كانت تجري في دماؤه روح العدل والمساواة وكان قلبه الكبير يفيض بالرحمة ويرفع عن الصغار . واذا كان همه طول حياته السخرية والتعالي فهي سخرية الأب الرحيم بتصرفات اطفاله الصغار الذين يحمل لهم في قلبه اعظم الحب واقدس الوفاء . ولقد بقي اناتول فرانس حتى آخر نسمة من حياته يردد هذا القول

— ان الاشتراكية هي ضمير العالم وان النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهي الا باختفاء هذه الطبقات

✽ اسلوب اناتول فرانس ✽ اذا كان النقاد قد اختلفوا في تقدير قيمة اعمال اناتول فرانس وتفكيره فان سوادهم متفق على انه خير من كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية الى الآن . بل ان الناقد اندريه بيبي يعتقد ان ما يمتاز به اسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لا نظير له في الآداب الفرنسية جميعاً

لقد كان اناتول فرانس هو المنقذ الاكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور والاضطراب بعد الثورة الكبرى . ورغم انه كان في تفكيره ثائراً فنبذ الافكار جميعاً الا انه كان بالعكس من جهة اللغة محافظاً فأعاد لها مجدها القديم . مضيفاً الى ذلك عبقريته الخاصة في حسن الصياغة والدقة النادرة في الاحساس بجمال الالفاظ والتعابير

ولقد كانت سهولة اسلوبه وابتعاده عن التكلف هي ميزته الكبرى . وكان يفتخر قائلاً (ان كمية الفاظه اللغوية محدودة فقيرة) وكان ايمانه بوجود السهولة المطلقة في الاساليب تدفعه للاعتقاد — بخلاف الكثيرين — ان الصحافة تساعد على تقدم اسلوب الكتابة لانها بالرغم ان الكاتب الصحفي على الاسراع في الكتابة تحول بينه وبين التكلف والافتعال فيخرج اسلوبه طبيعياً مستقيماً سلساً

لقد كان اسلوب اناتول فرانس — كما يقول الناقد بول سوداي — فريداً لا يمكن تقليده ولقد صدق جول لومتر في قوله : (لقد كان اسلوب اناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه ترى اثر اساليب راسين وفولتير وفلوبير وريمان واسلوب اناتول فرانس دائماً)

المراجع — (١) Michle Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs

(٢) Emmanuel Chrysostome : Anatole France

(٣) (اناتول فرانس في مبادئه) تأليف بروسون وتعريب الامير شكيب ارسلان . وبه ايضاً تلخيص كتاب نيقولا سيجور

(٤) René Lalou : Histoire de la littérature française contemporaine

(٥) André Billy : La littérature française contemporaine

(٦) Emile Faguet : Histoire de la littérature française

الإنسان الأخير

لسير قطب

صحا ذات يوم حين تصحو البواكر
ويشرق وجه الصبح في غمرة الدجى
وتضطرب الانفاس خفضها الكرى
وحين يعج الكون بالصوت والصدى
وبالصرخة الهوجاء ، والضحكة التي
وتستيقظ الدنيا ، وتجلو الدياجر
كما تشرق الآمال واليأس غامر
وتخفق ارواح ، وتذكو مشاعر
وبالكدح تزجيه المنى والمخاطر
يضج بها الأحياء ، والدهر ساخر !

ولكنه لم يلف للكون نامة
ففي نفسه ما يشبه الموت سكرة
جلال كأن الله أطلع وجهه
وصمت ففاني الكون صوت ولا صدى
فأدرك في اعماقه عن بديهة
نم على حيء ، ولم يهف خاطر
ومن حوله موت نمته المقابر
عليه ، فقرت في النفوس الضمائر
ولا خفقة يحيي بها الكون شاعر
نهاية ما صارت اليه المصائر !

وما هم بالتنقيب عن اي صاحب
ولكنه التي بها عبر نظرة
ركام واشلاء وأطلال نعمة
وفي نفسه من مثلها كل ذرة
تجمع فيها ما تفرق في الورى
خلاصة اعمار ، وشتى تجارب
ففي نفسه يأس ، من النفس صادر
على الكون والآيام وهي دوائر
وبؤس ، وشتى ما حوته الأداير
فهاتيك اشلاء ، وهذي خواطر !
وما ضمنت تلك السنون الغوابر
وجمع اشواق بها الكون حائر

وأوغل في إطراقة ملؤها الأسمى
تحت خطاها موكبا إر موكب
وأقبلت الآمال واليأس حولها
وجمع فيها الخير والشر رابط
فمرت عليه الذكريات العوار
وقد جاورت فيها المآسي البشار
تمزقها انيابه والاظافر
من النفس مشدود إليها مخامر

وشتي عبادات ، وشتي عقائد يؤلفها الايمان وهي نوافر^(١)
وفيهما من المجهول سرٌّ وروعة ورغبة محروم وخوفٌ مساورٌ
وقد كان في المجهول مطمح كاشف تحجبه عن طالبيه الستار
فيا ليتَه يدري بما خلف ستره فيختم سفر الناس في الارض ظافر^(٢)

وعادت له الآمال اذ جدَّ مطمح يُرجئى وأذكاه الخيال المغامر
لعلَّ وراء الكون مفتاح لغزه وطلسم ما ضمت عليه السرار
وما هي الا ومضة تكشف الدجى ويخلع هذا الجسم ، والجسم جارٌ
ولولا موثيق الحياة تشده اليها ، لأمضى عزمه وهو صابر
وخلف هذا الجسم للموت والبلى وأشرق روحاً حيث تصفو البصائر

وعاوده حب الحياة لذاتها وقد اجفلت تلك النوازي الكوافر^(٣)
وهاجت به الاطماع حب امتلاكها له وحده والناس ميتٌ ودائر
فعاد الى الدنيا العريضة مالكاً ولا من يغاديه ، ولا من يشاطر
ولكنه لم يستطب ملكه الذي تمحض لا يسعى به او يغامر
وما فيه من كد ، ولا من تسابق ولا سابق في الكادحين وقاصر
وليس يطيب العيش إلا تراحمًا فيريح مجدودٌ ونخسر طائر

هنالك دوت في السماكين صيحةٌ دعاء لعزرائيل والكون سادر
« برمت بهذا الكون همدان موحشاً برمت بملك ربه فيه خاسر »
« فهيا اذن للموت اروح رحلة لتكشف استارٌ ويهدأ ثائر »

وفيا يعاني سكرة الموت رقرقت الى مسمعيه هاتفات سواحر
« هو السر : ان تهفوا الى السر لهفةً وان تشتروا الآتي بما هو حاضر ! »

(١) مختلف العبادات والعقائد المتناقضة تجتمع عند عاطفة الايمان بالمجهول ورغبة اورهية (٢) ظافر بالسر الذي يبحث عنه الاحياء جميعاً فيما وراء المنظور (٣) النوازي الكوافر جمع نازبة كافرة وهي التي كفرت بالحياة في نفسه ودعته ان يخلع الجسم

عبقريّة محيطة

— ليوناردو الرجل —

لاديب عباسي

في يوم من ايام الربيع الضاحكة عام ١٤٥١ قام مسجّل العقود پيترو دافنشي من مدينة فلورنسا يؤمُّ قريته فنشي . ولكن عرض له ان يعرج على قرية صغيرة في الطريق . وبعد ان قضى حاجته بدا له ان يزور حانتها ويروي غُلّسته مما في دنائها من خمر واشربة سائغة . وكان روي الحانة فتاة قروية ساذجة في منتصف العقد الثاني من عمرها ، شخص نهداها واعتدل قوامها ونضجت أنوثتها ورآها پيترو تغدو وتجيء بين الشرب ، ولكن في وقار وحشمة . على ان پيترو المحرّب لم يحفل هذا المظهر من مظاهر الوقار والحشمة في الفتاة ، وآلى ألا يفوته هذا الصيد الطريف . وتلكاً هناك بحجة صيد السماني ، واخذ الفتى ينصب شراكه ويمدُّ شبّاكه ، ولكن لا ليصطاد السماني ، بل ليصطاد القروية العذراء كاترين . وقاومت الفتاة فتنة الرجولة الكاملة والاثواب الزاهية والالفاظ المعسولة ، واستنجدت العذراء وتحصّنت بجميع القديسين ، ولكن پيترو — برغم ذلك — استطاع ان يصطاد سمانه المشتهاة

ودار الفلك دورته ، واذا كاترين تضع بشراً سوياً ، واذا پيترو يفرُّ فراراً ، واذا الشائعة تطير وتقع في مسمع الشيخ الطونيو والد پيترو واذا الشيخ تغلي مراجله ويرسلها شواظ لعنات تترى لتنصب على رأس هذا الابن الفاسد المفسد ، ثم يدفع به فوراً الى فلورنسا ويعقد على خود دميمة ، ولكنها ذات ثراء وفي نسب

اما الفتاة — وكانت يتيمة — فقد رأى الشيخ ان يزفها الى عامل فقير من عمّاله ورضي هذا ان يُسبل عليها ستره ويغطيها بشرفه مقابل كرم من الزيتون يُوهبه . واستكانت المسكينة لتدبير الشيخ ، كما استكان الابن من قبل ، وان كان ذلك على كرم منه ، وكان يؤثر ألا تقطع بينه وبينها جميع الاسباب

وضمَّ الجدُّ حفيده اليه وعهد بتربيته الى زوجه . وظاهر من فعلة الشيخ وحده على الصغير ان حوادث السفاح والولادة غير الشرعية لم يكن يُنظر اليها اذ ذاك نظرة الاحتقار والزراية . ودليل ذلك ان ليوناردو شبٌّ وترعرع لا يشعر بمهانة ولا يحسُّ حقداً او موجدة على والدته التي رخصت واسلمت نفسها لاثم ابيه فأثت به سفاحاً . بل هو — على العكس — لم ينسها قط ، ولم ينس ان

ينسل في سواد الليل من حضن الجدّة ، وهي تغطّ ، ويفتح النافذة وينحدر على اغصان تينة دانية ثم يذهب يعدو كالظليم على الاحجار شاغبة الاسنان والاشواك مشرعة كالاسل لينعم بعض ساعات بحنو الأم . فاذا اقبل الفجر ايقظته الأم ليعود الى حيث كان فلا تعلم الجدّة بهذه الزورات الليلية

وشبّ ليوناردو بين اترابه ولداته غريباً عنهم بعض الغرابة بعيداً عنهم بعض البعد . فلم يكن يروقه ما يمارسوه من العاب عنيفة ويرتكبونه من قسوة ، ولم يكن يطيق ان يرى الفراشة الجميلة في ايديهم يُنتفّ جناحها وتطرح على الارض لتدبّ بدل ان تطير وتحبّو بدل ان ترفّ . ويروي مترجوا ليوناردو انه اضرب عن اكل اللحوم زمناً غير يسير لانه رأى خادماً في بيت جدّه يضرب خنوصاً رضيعاً ضرباً مؤلماً . ويروون ايضاً انه شاهد ذات يوم صبية تعلّقوا بخلدٍ كانوا قد احتالوا على اسره ، وبعد ان ارووا رغباتهم الجائعة من تعذيبه ربطوه بخيط ليطوّ حوا به ويلقوه بين فكي كلبٍ من كلاب الصيد . وادرك ما يوشكون ان يصنعوا فهجم عليهم ، وفي لحظات سريعة قوية صرع ثلاثة من الصبيان واختطف الخلد وانطلق يعدو لا يلوي على شيء . ولم يفق الصبية من دهشة المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها من الفتى المسالم حتى اصبح منهم على بعدٍ غير يسير . وعندها قاموا يلعبون ويضحكون ويصفرون ، ثم اندفعوا ورائه يحرقون الأرم . وكان اكبرهم سنّاً يكبر ليوناردو بخمس سنوات . فلم يمض الا القليل حتى لحق به وامسك بتلابيبه . ولحقت به بقية الزمرة واشتبك معهم ليوناردو في نضال عنيف ما كان ليخرج سالماً منه لولا ان قيّض له الحظ بستاني جدّه فأسرع حالاً الى نجاته وخلّصه من قبضة هذا الرهط الخائق الموتور . واستطاع ليوناردو في اثناء العراك ان يطلق الخلد من يده ، فراح هذا يعدو ناجياً بجلده . وهكذا نال ليوناردو بغيته من تخليص الخلد من اذى آسره

هذا وقد زاد في حب ليوناردو للعزلة في طفولته انه كان في تفكيره وذكاؤه يسمو درجات فوق مستوى الصبيان في سنه . فلم يكن يرتاح الى الاختلاط بهم ومشاركتهم في متعهم الصبائية اضاف الى هذا ما كان يعانيه من عنت اخوته الكثيرين (زوج والده اربع مرات) وحسدهم الذي كان يشبّه في صدورهم ويذكيه ما كان عليه من بروز في الصفات الجسمية والعقلية على السواء . وقد زيّن الحقد لهؤلاء الاخوة ان يستغلّوا ولادة ليوناردو غير المشروعة ليحرّموه من ارثه . الا ان هذه العداوة لم تؤثر فيه قط . وذلك ان العالم كان في نظره اوسع من محيط العائلة الضيق . لهذا لم يحقد على اخوته ولم يخترنّها لهم . بل نحن نرى من اريحيته وكرم طباعه انه يوصي في وصيته بمبلغ من المال لهؤلاء الاخوة الناقين

واعترّف الجدّ ان يعلم الحفيد ، واختار ان يكون هو اوّل المعلمين له . الا ان ميول الشيخ وادواقه كانت غير ميول الفتى العبقري ، فلم يمض الا القليل حتى برم التلميذ بمعلمه واخذ يسعى



ليوناردو ده فثني

Leonardo da Vinci

امام صفحة ٤٣٧

مقتطف ديسمبر ١٩٣٤

اشدّ السعي ليتخلّص من مجالس الشيخ التدريسية وعلى كل لم تلبث ميول الفتى الصحيحة ان
تكشفت واسفرت ، فاراح بذلك واستراح

وفي ذات يوم وقعت في يدي الأب صورة مما كان يصوّره ليوناردو عابثاً ، فرآها على شيء
نستحق من أجله ان تعرض على ارباب الفن ، فأخذها وسار بها الى صديق من اصدقائه الفنانين .
فتبين الفنان توتاً مواهب الفتى الفنية . ونصح للأب ان يدفع ابنه في هذه الناحية ، ورضي هو ان
يكون مدرّبه واستأذه . ولم يكن في فلورنسا اذ ذاك فنان ابنه منه شأنًا وارسخ قدماً . الا ان
الفتى المتوقد لم يلبث حتى بزّ الاستاذ وحتى لم يبق لهذا الأخير ما يستطيع ان يعمل به منهم هذا
الطالب الى المعرفة والاستزادة من أسباب التجديد في الفن . ولم يمضِ عام ١٤٧٢ حتى كان ليوناردو
عضواً في نقابة المصورين في فلورنسا

بيد ان ليوناردو لم ينجح نجاحاً مادياً في فلورنسا مع انه كان في نظر القوم خير من تمخضت
عنه النهضة واشرف من أنجبته . واحسّ في فلورنسا بغربة الغريب الذي يشعر انه مخلوق لغير هذا
الحيط وموجود بخلاف تلك البيئة . والذي كان ينقص ليوناردو من عناصر النجاح المادي عناصر
الغالبية والاندفاع مع الدعوى العريضة واجادة الاعلان عن النفس . وهي صفات أبعد ما تكون عن
طبيعة ليوناردو المتأبّية وعرفانه قدر نفسه . لهذا نراه في سن الثلاثين قد انتقل الى ميلان وانتظم في
خدمة الدوق وانبرى في تنفيذ رغائبه المتعددة دون ان يبدو منه شيء من السأم او ايثار نوع من
العمل على نوع آخر . ولعلّ هذا ناشئ من اعتقاد ليوناردو اعتقاداً قوياً ان جميع الاشياء على
السواء في قيمتها المطلقة لا تفاضل ولا ترجيح بينها ، وان الفرق بين شيء وآخر انما هو فرق في
العرض دون الجوهر . بل لقد ذهب ليوناردو الى أبعد من هذا وقال ان جميع اشكال المادة يمكن
تحويلها بعضها الى بعض

ولبت ليوناردو ثلاث سنوات في ميلان يعمل اعمالاً فنية وعلمية مختلفة أهمها صورة العشاء
الزباني . وبعدها بعام قطع الفرنسيون جبال الالب وأمروا دوق ميلان ، فرأى ليوناردو عندها
ان يغادر المدينة الى البندقية . الا اننا نعود فنراه وقد رجع ثانية الى فلورنسا . وذلك في فاتحة القرن
السادس عشر . وهناك انكبّ انكباً على الهندسة والتشريح دون ان يعنى بالتصوير الا أقل العناية
وأهم اعمال ليوناردو الفنية في هذه الفترة صورة مونا ليزا : وهي امرأة بارعة الجمال فقدت وحيدها
فتمت عليها سحابة ملازمة من الحزن . رآها ليوناردو ذات يوم فراءه جمالها ، وعرض عليها ان
جزء ٤

يصوّرها فقبلت راضية . ولكي يبدد ليوناردو عنها هذه السحابة المخيفة من الحزن كان يستأجر جوقة موسيقية تعزف امامها واناساً يجيدون العبث ليُسَرُّوا عنها فيستطيع الفنان ان يسترق من شفيتها تلك الابتسامة العجيبة ويخلدها على القماش . ولقد سلخ ليوناردو اربع سنوات في رسم هذه الصورة مما اطلق الالسنّة بالاقليل عن علاقة الفنان بأنموذجه . وليس ثمّ غير هذه الاقليل والاّ هذا الحرص الشديد من ليوناردو على الصورة اشياء تشير الى نوع العلاقة التي كانت بين الفنان وأنموذجه . ولم يتخلّ ليوناردو عن الصورة طيلة حياته . فكان ينقلها من محل الى آخر بين اقدس الاشياء لديه ، وظلّت هي وقصان صوفية من صنع والدته أعزّ ما يحرص عليه ويتمتع به الى ان وافاه أجله . على ان مرجفسي يلتبس عذراً للفنان على هذا الولوع بالصورة ان ليوناردو قد سكب في طلائها روحه ومزج في ألوانها بعض شخصه . فهو اذ يحرص عليها يحرص على بضعة من نفسه . هذا ويجب ألاّ ننسى ان ليوناردو ظلّ اعزب طيلة حياته . ومخطوطاته على كثرتها لا يرد فيها ذكر للمرأة الاّ مرة واحدة ، وذلك في صدد الكلام عن امرأة قبيحة المنظر أحبّ ان يرسم صورتها : وهنا يحسن ان نشير الى ان جميع الاشكال والصور كانت عند ليوناردو على مستوى واحد من حيث استحقاقها للتخليد والبقاء . فكان يرسم القبيح والمليح على السواء . وذلك ناشئ — في اعتقادنا — من نظريته الفلسفية التي ألمنّا بها فيما سبق : وهي ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة وان وجودها محتوم لا محيص عنه ، ولكن هذا الوجود لا يسيطر عليه السخف انما تسيطر عليه الحكمة او المنطق والقوانين الكونية والرياضية الخالدة . لهذا كان أشرف ما يمارسه المرء ويسعى اليه اكتشاف هذه القوانين والتنبيه اليها

ويلعل احجام ليوناردو عن الزواج والنساء بالنصراف كله الى الفن والعلم اللذين لا شك سموا به عن مستوى اللذائذ الحسية . وليوناردو نفسه يقول في هذا الشأن : « ان الاندفاع الفكري يطرد الشهوة ، وان عمل النسل وكل ما يتعلق به لمن الكراهة بحيث كان يزول الجنس البشري من الوجود لولا أن ثمة وجوه جميلة وميول شهوية »

ولما طُرد الفرنسيون من ميلان شخص ليوناردو الى روما . وهناك انتظم في خدمة البابا . الاّ ان هذا لم يعرف لليوناردو قدره . ولم يستطع ان يفهم استقلاله برأيه وإبائه التزلف وبطئه في العمل بالنسبة الى رفايل الذي كان يخرج للبابا اذ ذاك مثل ما تخرجه آلة التصوير في هذه الايام وبعد ان صرف ليوناردو عامين في روما جاءت دعوة من فرنسيس الاول ملك فرنسا . وليي الدعوة حالاً . وأحلّ في فرنسا محلاً ممتازاً واعدّ له الملك منزلاً جميلاً ولم يكلفه قطّ عملاً من الأعمال ، وما كان يستطيع ذلك ولو كلفه . فقد شلّت يده وعاد لا يستطيع العمل

وفي عام ١٥١٩ لفظ الفنان آخر نسمة من نسمات هذه الحياة الحافلة مستودعاً روحه الآسـه
الأعظم والعذراء ماري وجميع الملائكة والقديسين

كذلك عاش ليوناردو موزعاً بين العلم والفن جاهدآ في سبيلهما كل الجهد منصرفاً إليهما كل
الانصراف . على ان هذا الجهد وهذا الانصراف لم يفقدا الفنان صفته الانسانية . وهو ما يتعرض
المُنصرِفون الى الاعمال العقلية في الغالب . وظلَّ على اتصال شديد بالحياة محبباً للناس مؤثراً لهم
كربما رفيقاً بتلاميذه عطوفاً عليهم الى حدِّ بعيد . وقد اتخذ خصوم ليوناردو هذه العلاقة المحببة
بين المعلم وتلاميذه تكةً يتكئون عليها في نسبة ليوناردو الى الشذوذ الجنسي والميل الى الغلمان .
وقد نسي هؤلاء المشنعون ان عطف ليوناردو لم يضق حتى عن الحيوان . وقد رأينا كيف ظهرت
ببولة الرقيقة مذ كان يافعاً او صبيّاً

وهذا العطف من ليوناردو على الحيوان قاده في الشطر الأخير من حياته الى الانصراف عن
اكل اللحوم والاستعاضة عنها بأكل الخضر والبقول والحبوب ليس غير
اما المعتقد فالراجع ان ليوناردو كان على ايمان وطيء ، ولكن ليس هذا الايمان الذي كان
ناتعاً لمهده ، انما هو ايمان العالم سما عقله عن مستوى الخرافة ونُزِهَ عن تصديق المستحيل
وقد تساءل مرجسكي في عرض الحديث على معتقد ليوناردو فقال : أيعقل ان يكون
مُحدِّثاً من يرسم صورة كصورة العشاء الرباني ؟ ! ومن يكون اقرب الى المسيح من مصوِّر
لهذه الصورة ؟ !

وكان ليوناردو يميل الى البساطة في كل شيء . فلم يكن يطبق الالوان القوية في اللباس . وكان
يكره التضمُّش بالطيب من اي نوع كان . وهذه البساطة لم تكن مقتصرة على هذه النواحي المادية
وحدها انما كانت بادية في سلوكه وعلاقاته مع الناس . ولكنها كانت بساطة الرجل العظيم تحفُّها
لهابة ويجلِّسها الوقار ويُعلي من قدرها في نفوس اصفيائه واصدقائه ما وهبهُ من ذكاء خارق
بعبقرية نادرة

وبروى من تساهله ودماثة خلقه ان الفنان الناشئ مخائيل انجيلو انفجر يوماً في وجهه انفجارآ
مليداً لتوهمه ان ليوناردو نال منه في مناسبة من المناسبات . وخطب مخائيل ليوناردو بكلام
روح وعيِّره بأنهُ لم يستطع ان يكمل تمثلاً من تماثيله الضخمة عجزآ وقصور باع . وكان كل رد
ليوناردو على هذا الفتى الثأر ابتسامة هادئة مسامحة

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن هذه العبقرية ، آمليْن ان نكون قد جلوينا لقراء
القطف « الأغر في هذا المقال والمقال السابق صورة لاشك انها من اروع صور العبقرية
فأها على الدهر

أَجَلُ الْأَنْوَاعِ وَالْأَمَمِ^(١)

لِلرَّكَوَرِ سُوكْتِ مَوْفُو الشَّطْلِي
الاستاذ بمعهد الطب العربي في دمشق

تختلف اعمار الأنواع اختلافاً عظيماً فمنها ما يعيش ابداً كأنواع الحيوان والنبات الا ابتداءية التي يتركب فردا من خلية واحدة تتكاثر تكاثراً مستمراً فينشأ منها فردان مماثلان للأصل تماماً وينتج من انقسام كل من هاتين الخليتين خليتان اخريان وهكذا دواليك . ولذلك نعت رهط من المؤلفين هذه المخلوقات البسيطة بالخلود . الا ان ما يشاهد في العوالم الدنيا لا يبدو في غيرها اذ يعرض للمخلوقات المركبة من خلايا كثيرة عوارض تعوق تولدها وتموت بعد حياة تلبين مددها . ولكن بعض الخلايا التناسلية في الحيوانات العليا مستمتعة بالخلود كالحيويونات المنوية اللاقحة وهذا ما دعا فيقسمن الى تقسيم الخلايا فئتين

١ - خلايا بدنية (Soma) فانية

٢ - خلايا تناسلية (germen) خالدة . تستطيع هذه الخلايا اذا توافرت لها بعض الشروط ان تولد مخلوقاً جديداً مشابهاً لأصله . واما الخلايا البدنية فتعيش مدة من الزمن ثم تموت وتعود جنة تداعبها عوالم الفناء فهي والحالة هذه خلايا موقته خلقت لتعيش اجلاً مسمى وليس الأمر كذلك في الخلايا التناسلية التي خصت الطبيعة بعضها بتخليد النوع وبقاء الامة

﴿ عمر النبات ﴾ لا تعيش بعض الفطور والأشنيات وبعض انواع النبات الكمئية الا اياماً معدودة . وحيات الطحلب قصيرة ايضاً على ان بعض مربى النبات جففوا الطحلب وحفظوه مجففاً عشرين سنة ثم اعادوا اليه الحياة باروائه وتبليده ويصح ان يتخذ ذلك دليلاً على ان هذا النبات لم يموت بالتجفاف بل وقفت فيه ظواهر الحياة طول هذه المدة فلم يبد التجفيف الخلايا وما فيها من الغرويات بل ثبتتها تثبيتاً وابطل المبادلات فيها لأنه حرما من الماء ولا يمكن ان تتجلى الظواهر الحيوية في مخلوق من المخلوقات ما لم يتوسط الماء ذلك وقد جاء في القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ان انواع النبات الوحيدة الفلقة كالقمح والشعير والقطاني وغير ذلك لا تعيش الا سنة واحدة . وكذلك انواع النبات ذات الفلقتين كالقطاني (فول حمص وغير ذلك من البقول) وقد اشار الامام ابو حنيفة بتقسيم النبات الى ما هو باق منه وما هو بائد فقسمه ثلاثة اصناف : شيء باق على

الشتاء اصله وفرعه ، وشي في آخر يبيد الشتاء فرعه ويبقى اصله فيكون نباته في ارومته تلك الباقية ، وشي في ثالث يبيد الشتاء فرعه واصله فيكون نباته مما ينتثر من بذوره

ويعيش الشمندور او الشمندور ^(١) سنتين وقد استطاع المختبرون اطالة بقائه ٤ - ٥ سنوات ويعتقد فرين (Frise) ان الخوول دون موت بعض انواع النبات ممكن بنزع الازهار ابتساراً . جرب ذلك في بعض انواع النبات فعاشت سنتين بدلاً من سنة واحدة . ولا يخفى ان العشب اذا اجتز قبل التنوير دام سنين عديدة . وهذا ما دعا بعض النباتيين الى القول بأن من دواعي موت النبات نفاد قواه الحيوية في الاحباب ^(٢) ويعيش نبات الصبر الاميركي مدة تختلف من ٥٠ الى ١٠٠ سنة ولا ينور الا مرة واحدة ويموت اثر ازهاره . وذكر هيلدبراند (Hildebrand) ان النباتات السريعة التنوير والاحباب قليلة البقاء لأنها تصرف قواها الحيوية الكامنة في الايزار ^(٣) فتموت سريعاً . واما النباتات التي لا تنور الا بعد سنين عديدة فتعيش مدة طويلة

ومن النبات ما يزهر ويثمر في كل حول دون ان يؤثر ذلك في مدى حياته . ويزعم هيلدبراند وغيره من المؤلفين ان النبات يغتذي وينمو سعيًا وراء غاية اساسية وهي التكاثر فتتم له ذلك مات . وينطبق هذا الزعم على بعض انواع النبات ولا يجوز اتخاذ هذه الفكرة قاعدة جامعة مانعة بحث ميتالينكوف في كتابه الخلود والاشباب عن اسباب الموت السريع في بعض انواع النبات فقال : يموت النبات دون ما سبب ظاهر وآفة مؤذية او عامل ضار . وتبيد بعض انواع النبات قبل حلول الشتاء مع انها لا تصاب بالنفاد وليس التنوير فيها عاملاً مؤدياً الى الموت كما وان كثيراً من النباتات تنور وتثمر ولا يؤثر ذلك في اجلها . وقد جرب كليبيس ان يطيل عمر نبات الشوع فأخذ عقاقيله ^(٤) وشغوبه ^(٥) وغرسها في الارض فنبئت ونمت ودامت . يؤخذ من ذلك ان موت النبات في مدة معينة ليس امراً محتماً وان اطالة العمر ممكنة . لذلك جدد المؤلفون في البحث عن اسباب الموت الطبيعي الا ان هذه الابحاث لم تثمر بعد الثمر المطلوب لأن بابها لم يقرع الا في العهد الحديث وقد عرف ان الاشجار ذات الخشب الابيض الاسفنجية الخفيفة كالخور وغيره تعيش مدة تختلف من ٥٠ الى ١٠٠ سنة وان الاشجار القاسية الخشب البطيئة النمو تعمر عشرات العصور . ذكر لوبيشكو في ابحاثه ان الزان يعيش ٣٠٠ سنة وان الصنوبر يبقى ٥٧٠ سنة وان العرعر يدوم ٦٠٠ سنة وان ارز سبيريا يحيي ٧٠٠ سنة وان اجل التنوب او صنوبر القطران ١٢٠٠ سنة وان الكستنة والبلوط يبقيان ٢٠٠٠ سنة وان السرو والفشاغ *taxus baccata* والارز تعمر ٣٠٠٠ سنة وان البقس *Baxus* (شمشير) والزيتون والبرتقال يبقى عصوراً . وقد جاؤا على ذلك بأدلة

(١) تاويل Bettrave وتسميه العامة شوندر وصحيحها الشمندور كما اثبتنا وهو نبات غليظ الاصل يتخذ منه السكر (الافصلح) ويعرف في مصر بـ « البتجر » (٢) أحب الزرع صار ذا حب
(٣) ايزر النبات وبزر ادرك بزره (٤) عقاقيل الكرم ما غرس منه ولم يذكر لها واحداً (اللسان)
(٥) الشغوب والشغوب والشغوب اعالي الاغصان

خاصة منها : بزر دو كاستيل في العصر الخامس عشر بزرة برتقال في بستان فرساي فنبتت ولا تزال حتى الآن . وفي حديقة الكونت كور في انكلترا بلوطة يبلغ عمرها اثني عشر عاماً . وفي جادة الفيرا كروز في المكسيك بها^(١) التجأ إليها فرناند كورتز يزيد عمرها عن خمسة آلاف سنة وفي القدس زيتون شهد المسيح وفي الهرمل شجرة استظل بها عيسى عليه السلام وفي كاليفورنيا رُبُض عُمارة (باووباب) يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ متراً ومحيطها عن ٣٠ متراً وعمرها بضعة آلاف من السنين وقد بحث الامير مصطفى الشهابي في المقال الذي نشره في هذه المجلة الزاهرة^(٢) عن الارز وعن بقائه فقال عن ارز بشري : اعظم حراج الارز شأناً واقدمها سنناً حرج بشري فهو الذي يطلقون عليه اسم ارز لبنان تعميماً الى ان يقول :

وتعلمو الحرجة ١٩٠٠ متر ونيف عن سطح البحر وفيها ٤٠٠ ارزة تقريباً كبيرة وصغيرة اما الكبيرة ففيها جلال مسوق الشجر العظام ولقد قست ساق كبرها فبلغ محيطها نحو ١٦ متراً وعمرها اكثر من النى سنة ويقول بعضهم انها تبلغ ٤٠٠٠ سنة من العمر لكنه لا يمكن معرفة سنّها على وجه الضبط ولا على وجه التقريب . وشاهدت اربع ارزات مسنة محيط ساقها بين ١٢ و ١٣ متراً وعلوها نحو ٣٠ متراً وسنّها اكثر من الف سنة في الغالب

﴿أجل الامم﴾ اجناس الحيوان ﴿تعيش الامم الدنيا المشابهة للنبات مدة طويلة ويبدو تكاثرها بنمو طبقات جديدة كما في النبات وتراكب بعضها فوق بعض وتعيش اكثر الحشرات المتحولة كذوات الاجنحة المغلفة وذوات الاجنحة الغشائية وذوات الجناحين سنة واحدة او سنتين وتموت عادة بعد الاختلاف وقد تبلغ الحيوانات القشرية والأصداف خمس سنوات من العمر . اما الاسماك فتعمر كثيراً وقد اصطاد الصيادون سمكة من بطائح القيصر فبلغ طولها تسع عشرة قدماً ووزنها ١٦٠ ليبرا وكانت مطوقة بقطعة من النحاس نقش عليها « ان هذه السمكة وضعت في البحيرة عملاً بأمر الامبراطور فردريك الثاني » وقد حسب الفرق بين تاريخ وضعها في البحيرة ويوم اقتناصها فاذا بها تبلغ مائة وسبعة وستين سنة من العمر . ويعيش القمل مدة تختلف من ٢٧ — ٦٤ يوماً والنول (ذكر النحل) مدة ٤ — ٥ اشهر والنحل العامل ١٦ شهراً والزاباد سنة واحدة والرتيلاء من سنة الى سنتين والعصفور التفاضي خمس سنوات والأرنب والسنجاب ٧ سنوات والجرد واليزاق ٨ سنوات والعصفور السمانى والدجاج والنسعار والحسئون والطيهوج^(١) والخروف ١٢ عاماً والبط والبلبل والسنونو ١٥ سنة والثعلب والثور ١٦ سنة والبقر والخنزير والظبي والحمام والقط والكلب والذئب ٢٠ سنة والحصان ٢٥ سنة وكذلك الطاووس والبرقش .

(١) مفرد السرو (٢) ارز لبنان ومغارة قاديشا للامير مصطفى الشهابي في المقتطف المجلد ٨١ جزء ٤ ص ٤٠٤

(٢) تأويل rougegorge وقد جاء في حياة الحيوان للدميري : الطيهوج بفتح الطاء طائر شبيه بالجل الصغير غير ان عنقه ومنقاره ورجلاه حمراء

وأما الحمار فيعمر ٣٠ سنة والبيغاء والغراب والنسر والحدأة من ٦٠ الى ١٠٠ وكذلك السلحفاة وأما الصقر والباز فيعيشان مدة تختلف من ١٠٠ الى ١٥٠ سنة ويلبث الفيل ٢٠٠ سنة والتمساح ٣٠٠ عام. يتضح من ذلك ان مدة الحياة في مملكة الحيوان تختلف كثيراً كما اختلفت في مملكة النبات فمنها ما يعمر كثيراً ومنها ما لا يعيش أكثر من ساعات محدودة. ولم يعرف السبب حتى اليوم في تباين الأعمار واختلاف الأجل

﴿عمر الانسان﴾ لا يزيد عمر الانسان في عهدنا الحاضر عن مائة سنة. وقد تساءل الباحثون هل تبدل عمر الانسان وعاد في زمننا غير ما كان في الزمان السابق ؟

اذا بحثنا في الكتب المقدسة رأينا ان آدم عاش ٩٣٠ سنة وان شيث لبث ٩١٢ سنة وأنوش عمّر ٩٠٥ سنين وقينان بقي حياً ٩١٩ سنة ومهايل ٨٩٥ سنة ويارد ٩٦٢ سنة وأخنوخ ٩٦٥ سنة ولامك ٧٧٧ سنة ونوح ٩٥٠ وسام ٦٠٠ سنة وأرنخشاد ٣٣٨ سنة ولا نعهد في التاريخ المعروف نظير هذه الاعمار وأما التاريخ القديم فجھول تماماً وقد تكون سنتهم غير سنتنا

وعاش يعقوب مجتمعاً ببنيه سبع سنين وادركته الوفاة فقبض لمائة وعشرين سنة من عمره وعاش يوسف ١١٠ سنين وقبض الله موسى اليه لمائة وعشرين سنة وقبض هارون لمائة وعشرين سنة ايضاً ولبث ابقراط في قومه ١٠٤ سنين وبلغ جالينوس ١٤٠ سنة من العمر وبقي سقراط الخطيب حياً ١٠٦ سنين. ومن شعراء العرب المعمرين عمرو بن كلثوم ويؤخذ ذلك من وصية قالها لبنيه « يا بني قد بلغت من العمر ما لم يبلغه احد من آبائي ولا بد ان ينزل بي ما نزل بهم من الموت » وكان الحادث اكبر سنّاً من عمرو وعاش ١٥٠ سنة على رأي بعضهم

ويجمع الرواة على ان زهيراً كان من المعمرين ويقول زهير نفسه في معلقته :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا ابا لك يسأم

وعاش ليبد بن ربيعة اكثر من مائة وعشر سنوات ونسب الرواة اليه عدة ابيات في ايامه الطويلة تدل على عمره منها واحد قاله وهو ابن سبعين

كأني وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا
وآخر قاله في السابعة والسبعين :

باتت تشكّي الي الموت مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
وقال في العاشرة بعد المائة :

ليس في مئة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها عمراً
وقال لما بلغ مائة وعشرين :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليبد
غلب الرجال فكان غير مغلب دهرٌ جديد دائم معدود

يوم ارى يأتي عليّ وليّة وكلاهما بعد المضاء يعود

﴿ اخبار المعمرين في العصر الحاضر ﴾ ذكرت الصحف سنة ١٩٠٩ خبر وفاة امرأة عن عمر يناهز ١٢٠ سنة ونهت الجرائد الى ان السيدة مارك غورك ولدت سنة ١٧٨٠ وماتت سنة ١٩١٠ اي عاشت ١٣٠ سنة وذكرت القبس الدمشقية خبر معمر كان يكرمه جلالة المغفور له الملك فيصل بلغ من العمر مائة وعشرين سنة وما زال نشيطاً. وتذكر الصحف بين حين وآخر طرفاً كثيرة عن اخبار المعمرين وقد تقصى اخونا الاستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة خبر الشيوخ المعمرين فقال: ادركنا من الشيوخ المعمرين في دمشق ممن بلغوا القرن او كادوا ثلاثة اجلة احدثهم الشيخ عبد الله السكري الركابي وهو فقيه كبير ولد فيما اخبر به سنة ١٢٣١ هـ واخذ الفقه عن فقيه الشام الشيخ سعيد الحلبي المتوفي سنة ١٢٥٩ هـ والحديث وغيره عن المحدث الشهير الشيخ عبد الرحمن الكزبري المتوفي سنة ١٢٦٢ هـ وكانت وفاته سنة ١٣٣٠ هـ. الشيخ الثاني: الشيخ عبد الله الحموي وهو مقرر جليل ادرك الخطاط المعروف الشيخ عبد اللطيف الشطي المتوفي سنة ١٢٥٢ هـ وحدث عنه بنوادر طريفة وكانت وفاته سنة ١٣٣٠ ايضاً. الشيخ الثالث: الحاج علي الشطي وهو معمر قضى حياته بالتجارة والزراعة والسكد وقد ادرك ابراهيم باشا المصري واخبر عنه بأنه تغلب على الشام تسع سنوات من عام ١٢٤٧ الى عام ١٢٥٦ هـ وكانت وفاته سنة ١٣٣٤ هـ وهؤلاء جل من ادركنا من المعمرين الذين تمتعوا بصحة جيدة وعقل وافر حتى آخر حياتهم

وذكر بلنيوس Pline خبر قوم من الهند الشرقية يعيش بعض افرادهم ٤٠٠٠ سنة يغتذون بالثعابين والحيات ثم يسأل هل كان لذلك شأن في طول بقائهم اذا انعمنا النظر فيما اوردها حتى الآن جاز لنا ان نستنتج من ذلك ان عمر الانسان في العهد الماضي لا يختلف عن مدى عمره اليوم. واما ما ذكر عن اللبث مئات من السنين فذلك دليل على ان الواحد القياسي للسنة فيما سبق يختلف عن واحد السنة القياسي اليوم. ويشاطرنا في هذا الرأي المفسرون العصريون مثل العالم الجليل طنطاوي جوهرى

﴿ اختلاف متوسط مدى الحياة ﴾ يتضح من الاحصاءات الصحية العامة ان متوسط عمر الانسان قد زاد في القرنين الاخيرين بفضل الطرائق الحديثة المتبعة اليوم في مكافحة الإوبئة كالجدري والطاعون والهيضة والربيض (التيفوس التي كانت تنفشي فتجرف ملايين). فقد وقع في حلب طاعون سنة ٨٢٠ فأربى من هلك فيها وفي ضواحيها على مائتي الف انسان. وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد الهالكين بدمشق في كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم اربعمئة وبالرملة مائة^(١) ويقدر عدد من هلكوا في القرون الوسطى بالطاعون بـ ٢٣ مليوناً من البشر مات في باريس سنة ١٤١٨ ثمانين ألف شخص من ٣٠٠.٠٠٠ شخص وهو

مجموع عدد سكانها اذ ذاك وهلك في اوروبا خلال اربع سنوات اي من سنة ١٦٦٣ الى سنة ١٦٦٧ اكثر من ٥٠ مليون ولا يأخذك العجب ايها القارئ من ذلك فقد روى الرواة ان الطاعون حل بدمشق فأهلك من فيها الا خمسين شخصاً اجتمعوا حول الجامع الاموي . ولا يخفى ان دمشق كانت مأهولة بعدد اوفر من السكان . ان كشف الجراثيم والتعرف على طرق التلقيح الحديثة وتقليل امراض العمال والعناية الصحية ومكافحة السرطان والسبل قد ساعدت على تخفيف وطأة العوامل الخارجية في تقصير العمر ولم يك في الماضي من سبيل الى تخفيض الطفل المولود في بيئة مسالوة من مخالب السل الا ابعاده عن البيت الذي ولد فيه وارساله الى حيث لا يجد بيئة ملوثة غير ان اكتشافاً حديثاً باهراً ابتدعته عبقرية العلامة كالمث ومؤازره غاران التي في ايدي البشرية سلاحاً جديداً ماضياً بقي الطفولة الاولى من شر هذا الداء نغني به اللقاح المسمى (ع . ك . غ . B. C. G.) اي «عصيات كالمث و غاران» من مؤسسة باستور في باريز^(١) . بدىء باستعمال هذا اللقاح اولاً في فرنسا منذ اول تموز (يوليو) سنة ١٩٢٤ ثم في بلدان اخرى . وقد أبان الاحصاء ان معدل وفيات العائشين في بيئة مُسَلِّة ولم يلقحوا هو ١٦ - ٢٥ ٪ بين الشهر الاول والسنة الاولى . وقد هبط هذا المعدل في الملقحين الى ٤ ٪ . واذا فصل الطفل بسرعة شهراً واحداً عن والديه بعد ولادته وتلقيحه هبط معدل الوفيات بالسل الى ما يقرب من الصفر . ومعدل الموت بالامراض الاخرى الى النصف . وقد افادت مستوصفات السل ايضاً فائدة كلية فهبطت نسبة الوفيات بعد ان انشئت هذه المستوصفات في فرنسا هبوطاً محسوساً واذا فسرنا نسبة الوفيات في انكلترا بعد انشاء هذه المستوصفات وقبل ثلاثين سنة من انشائها تحققنا انها هبطت هبوطاً معادلاً لـ ٧٢ ٪ . وقد بلغت الوفيات بالسل في برلين ٥٨٠٠ في سنة ١٩٢٠ و ٤٣٠٠ في سنة ١٩٢٨ و ٤٠٠٠ سنة ١٩٣١ . وصفوة القول ان لقاح «ع . ك . غ» والمستوصف وقفا حصناً منيعاً في وجه هذا الداء الجارف وقد اشتركت خمس وثلاثون دولة في مكافحة السل وأنال من مجموعها (اتحاد مكافحة السل الدولي) الذي يلتزم مندوبوه في كل سنة للبحث في الطرق الحديثة التي يجب اتخاذها

ويؤخذ من احصاءات شركات التأمين الاميركية ان متوسط عمر الانسان زاد ١٢ سنة من اوائل هذا القرن الى الآن . ولا ريب في ان زيادة متوسط عمر الانسان سببها تقليل الوفيات بين الاطفال ، وعدد الرجال والنساء الذين يجتازون سن الخمسين او الخامسة والاربعين اكثر الآن مما كان قبلاً^(٢) . فيتبين لنا من ذلك ان العوامل الخارجية المميتة ابتساراً قد خف شأنها ولم يتبدل مع ذلك حد تعمير الاقصى لان العوامل الباطنة التي تحدد عمر كل امة من الأمم لم تعرف بعد ولا يزال عليها سحر كشيء من الغموض

(١) من محاضرة القاها الدكتور لوسر كل Lecercle الاستاذ في معهد الطب بدمشق وترجمها الدكتور غرة بك مريدن
(٢) فتوحات العلم الحديث لحرر المقتطف فؤاد صروف ص ٣١٠

العوامل التي تنظم عمر الامم (اجناس الحيوان) والانواع * سعى بعض الحيويين الى تحليل اختلاف عمر انواع النبات فزعمت طائفة منهم ان الشجرة ليست مخلوقاً واحداً ولكنها مخلوقات عديدة مجتمعة تحمي حياة مشتركة وتتكاثر وتبقى كذلك حتى ينفذ الغذاء من الارض ولا يعود كافياً لادامة حياتها فتموت. ينطبق هذا الزعم على بعض المخلوقات الدنيا ولكنه لا يناسب ما يقع في انواع النبات والامم العليا التي تتركب من اعضاء مختصة بوظائف نوعية خاصة عويصة. ان لهذه المخلوقات العليا في الحيوان والنبات دورة حيوية خاصة تختلف باختلاف الانواع والامم. ولكنها ثابتة نوعاً في النبات الواحد او الامة الواحدة

وقد زعم بعضهم ان لطول عمر النبات صلة بقساوة بنائه وان العصارات الراتنجية او العطرية التي يفرزها بعض انواع النبات تقيه شر المؤثرات الاقليمية والخارجية فيطول عمره وان كثرة السماد وغزارة الاخصاب من العوامل المبيدة للنبات. قد ينطبق هذا القول على بعض انواع النبات غير انه لا يبين لنا السبب في نظام مدة الحياة واختلافه بتباين الامم والانواع. ويقول بعض المؤلفين ان السبب في طول حياة النبات حرمانه من الجملة العصبية الا ان ياغاديس شوندر Yagadis Chunder وغيره من جهابذة العلماء لا يقررون هذا الرأي كما وان النبات غير محروم من الاعصاب وقد نبه الى ذلك الدكتور يعقوب صرّوف في كتابه «فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان». ودليل آخر على فساد هذا الزعم هو ان الحيوانات الدنيئة التي لا تعرف للعواطف معنى ولا تقيم للاحساس وزناً ولا تدرك للضمير مغزى تموت في برهة وجيزة بينما يعيش الانسان عصراً او اكثر من ذلك. وقد استنتج من ذلك بعض المؤلفين ان شأن الجملة العصبية في تقصير العمر او اطالته ثانوي. الا اننا لا نشاطر اصحاب هذا الرأي ولا نستنئ بسنّهم لان الخلية العصبية النبيلة المميزة تتكاثر فلا يرى في هيولاها جسيم مركزي ولا في نواتها صور الانقسام المعتنف. واما الخلايا العصبية التي لا تتكاثر فهي التي لا تزال في دور الفتوة ولا تكون قد اكملت نموها وتميزها. وما دامت الخلية العصبية محرومة من خاصة التوالد كانت معرضة للموت لا محالة ويقدر العلماء امكان بقائها نشيطة وفعالة مدة ١٤٠ سنة ولذلك يجوز ان يبلغ عمر الانسان الاقصى هذا الحد

ويعتقد اوغست لومبار ان للعامل الاساسي في اطالة العمر صلة بمحاذة التكاثر الخلوي فما زال التكاثر نشيطاً دامت الحياة وتناءت الشيخوخة ومتى بطل الانقسام فسدت الغرويات وشاخت الخلايا ثم تموت بسبب رسوب الغرويات فيها او ذوبانها

ان لهذا الرأي قيمة علمية وهو رأي من جملة الآراء المقترحة على ان الفكرة المستندة الى الرسل وعملها اصح وعدد مناصريها كبير اليوم. وليس من الصعب التوفيق بين الرأيين فالرسل تدعو الخلايا الى التكاثر وتحفزها على الانقسام ومتى تم ذلك تجددت الغرويات واستمرت المبادلات فيها وسوف نقرّد بحثاً او ابحاثاً خاصة نبين فيها ما عرف عن صلة الرسل والغدد الصم بالاشباب

غرائب الاعداد

وعجائب المعادلات

لقرى حافظ طوقان

لا يخلو الكون من غرائب في نواحيه المتعددة المختلفة ففي بعض الظواهر الطبيعية غرائب وفي بعض الحوادث غرائب ، وفي بعض العادات غرائب ، وفي بعض التقاليد غرائب ، وفي بعض العلوم غرائب . وتختلف هذه الغرائب اختلافاً بيناً ويصعب في حالات كثيرة تحليلها وفي بعضها يستحيل . وقد تختلف غرائب العلوم عن غيرها فيمكن تحليلها عند التدقيق والتعمق في البحث وإذا اتفق ورأينا غرائب ولم نجد لها تعليلاً فالذنب يقع على الانسان الذي لم يستطع اكتشاف السبب وادراك كنه التحليل . وكثيراً ما نجد في علم الفلك ظواهر وحوادث تبدو غريبة عجيبة لاول وهلة ولكن عند البحث نجد ان لا غرابة فيها وهي فوق ذلك ليست خارجة عن دائرة القوانين والانظمة التي نسيطر على علم الهيئة . ألم يبد الراديو للناس غريباً ؟ ألم يكن الحديث عنه كحديث السحر والسحرة لغرابته ؟ ولكن الملم بقواعد العلوم الطبيعية والواقف على بعض اسرارها يرى ان عمل الراديو مبني على مبادئ بسيطة كشف عنها الانسان وعرف كيف يستغلها لمنفعته . وما قول القارئ في التلفزة ؟ اليس الحديث عنها يثير الدهشة والاستغراب ؟ افرض ايها القارئ ان قال لنا قائل قبل عشر سنين ان طاماً يقول بأنه يستطيع رؤية الاشياء عن بعد وان لديه آلات تمكنه من ذلك ! ! ما ذا كنا نقول عن ذلك القائل وذلك العالم ؟ من الطبيعي اننا لا نصدق قوله . ومما لا ريب فيه اننا نرمي العالم بالشعوذة وقد نتساهل في التعبير فنقول ان ذلك العالم ذو خيال رائع . والآن اليس التلفزة حقيقة لا يمكن نكران مبادئها وآلاتها ؟ والذي يدرس المبادئ التي تقوم عليها التلفزة لا يجد فيها ما هو فوق العقل فالقوانين السائدة عليها معروفة والاساس الذي تستند اليه غير غامض وقد استطاع الانسان ان يكشفه وينتفع من تطبيقه

قد لا يصدق القارئ اذا قلنا ان في الاعداد وفي بعض فروع العلوم الرياضية غرائب وعجائب من الصعب تحليلها، ولكن اذا انعمنا النظر في هذه مجدها على غير ما تبدو لاول وهلة اذ ليس فيها ما يبعث على الاستغراب والدهشة فهي تركز على مبادئ اساسية وقوانين ثابتة . ومن البديهي انني في هذا المقال لا استطيع ان آتي على جميع غرائب الاعداد وعجائب المعادلات . فغرائب الاعداد لا تدخل تحت حصر عدا كون بعضها يحتاج الى استعمال ما قد يدخل السأم والملل على نفوس القراء . واما عجائب المعادلات فسنأتي على ذكرها تنوياً اذ نحتاج الى استعمال الصعب من القوانين الرياضية

والمعادلات العويصة وهذا ما سنحاول تجنبه في مقالنا هذا . ولكننا سنأتي على بعض امثلة بسيطة من غرائب الاعداد وعجائب المعادلات من التي لا تحتاج الا الى الملم بسيط في قواعد الحساب ومبادئ الجبر الاولى

خذ الكسر $\frac{1}{7}$ وحوله الى كسر عشري فينتج لدينا الكسر الدوري البسيط (١٤٢٨٥٧ و) . ومعنى ذلك ان ارقامه تعيد نفسها اذا ما مضينا في عملية التحويل . واذا ضربنا هذا العدد (١٤٢٨٥٧) في ٢ ينتج العدد ٢٨٥٧١٤ . انعم النظر في العددين ، تجد ان ارقام العدد الاول هي نفس ارقام العدد الثاني والفرق بين الاثنين اختلاف في ترتيب الارقام فقط . واذا ضربنا نفس العدد في ٣ او ٤ او ٥ او ٦ ففي كل حالة يفتج معنا عدد ارقامه نفس ارقام العدد المذكور ويكون الاختلاف في منازل الارقام . ومن الغريب الطريف اننا اذا ضربنا العدد نفسه في ٧ ينتج لدينا عدد متكون من ست خانات تحتوي كل واحدة منها على الرقم ٩ اي ان

$$999999 = 7 \times 142857$$

وكذلك خذ الكسر $\frac{1}{13}$ وحوله الى كسر عشري ينتج الكسر الدوري البسيط الآتي : ٠٧٦٩٢٣ و . واذا ضربنا هذا العدد في ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ كان الحاصل في كل حالة متكوناً من ارقام العدد المذكور نفسها مع اختلاف في الترتيب فقط ، ولكننا اذا ضربناه في ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١١ نتج لدينا في كل مرة مت خانات تحتوي على الارقام ١ ، ٥ ، ٣ ، ٨ ، ٤ ، ٦ مع اختلاف في الترتيب ومن الاعداد ما اذا ضربته في عدد آخر يصبح عدداً قديداً غريباً اذاً تحتوي خاناته كلها على نفس الرقم . خذ العدد ١٢٣٤٥٦٧٩ ولنفرض انه يضرب في عدد بحيث يتكون حاصل الضرب من خانات كل منها يحتوي على الرقم ٥ ، فلدى البحث نجد انه اذا ضرب العدد المذكور في ٤٥ ينتج معنا عدد يحقق الشرط المطلوب . اي ان $12345679 \times 45 = 555555555$ واذا كان الشرط ان تحتوي الخانات على الرقم ٨ فما عليك الا ان تضرب العدد في ٧٢ وهكذا

ليس هذا عجيباً ومثيراً للاستغراب ؟ ولكن ما لنا ولهذا النمط من الغرائب فقد لا يكون ممتعاً وقد لا يجد فيه القارئ ما يحمله على متابعة قراءة المقال . والآن لناخذ نوعاً آخر غير الذي ألقينا اليه . يوجد في الجبر بعض حالات تقودك الى نتائج تناقض الحقائق المسلم بها وتناقض المنطق . ومن الغريب انك اذا تتبعته الخطوات التي توصل الى النتيجة الغريبة تجد انها منطقية ومبنية على قوانين حسابية وجبرية نسلم بصحتها ولا يختلف فيها اثنان ، وبديهي انه لا يوجد في علم الرياضيات حقائق ومبادئ أساسية تسير بك الى متناقضات او الى ما هو مخالف للواقع والحقيقة وقد يسأل غير واحد : اذن . كيف اوصلتنا هذه الخطوات المنطقية الصحيحة الى متناقضات بل ومضحكات في بعض الاحايين ؟ والجواب على ذلك بسيط ويتلخص في القول بأن احدى الخطوات تكون مغلوطة وغير صحيحة ولا يظهر فيها الغلط الا عند التفكير العميق وهي (بذاتها) التي اوصلتنا الى ما

حسب المعادلات انها تسهل حل الاعمال الصعبة الى درجة كبرى وتوفر وقتاً في إيجاد اقرب الطرق للوصول الى النتيجة ، وتعبر عن كلام كثير برموز قليلة وحسبها ايضاً انها سهلت الاختراع والاكتشاف ووسعت مجال الاستفادة من القوانين الطبيعية ، وفوق ذلك فللمعادلات فوائد اخرى هي من خطورة الشأن بمكان عظيم . لقد استطاع بعض العلماء بفضل استعمال المعادلات واكتشاف بعض انواعها ان يقدموا للحضارة الصناعية خدمات جليلة . وقد استخرج غاليليو من العلاقة الموجودة بين الكتلة والحركة معادلة لولاها لما تمكن الانسان من صنع آلات تحركها القوى على اختلاف انواعها وقد لاحظ ملكن العالم الاميركي الشهير الفوائد التي جنتها الحضارة الصناعية من القوانين والمعادلات الرياضية فقال « اننا اذا ازلنا من العمران الحالي احد القوانين الرياضية التي ابتدعها وحققها نيوتن لوجب ان نزيل كل آلة بخارية فكل سيارة وكل محرك وكل مولد كهربائي بل كل آلة تستعمل لتحويل القوة الى حركة لانها كلها بنيت على هذا القانون الرياضي الشامل . . »

ولعل أغرب شيء في المعادلات انها استطاعت ان تتنبأ عن اشياء كانت مجهولة وحوادث ما كانت معروفة وظواهر لم يلتفت لها الانسان في بادى الامر . ولا يخفى انه ليس في استطاعة كل واحد ان يرى المجهولات في المعادلات او ان يتنبأ بواسطتها فهذا ما لا يستطيعه الا القليلون الذين عكفوا على دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والذين مارسوا هذه سنين كثيرة وتفهموا دقائقها ووقفوا على اسرارها وغازوها على كنوزها بقصد التعمق والتثبت . ولا ارى بأساً من ذكر قصة اكتشاف بعض السيارات ففيها ما يؤيد قولنا بخصوص التنبؤ من المعادلة . لقد اقتنع بعض العلماء كنتيجة لبحوثهم بانه يوجد اضطراب في فلك اورانوس وقالوا بان هذا الاضطراب يجب ان يكون ناتجاً عن سيار غير معروف ، ولم يكن في الامكان التثبت من ذلك ومن وجود سيار الا باستعمال الرياضيات فقام ادمس ولقرية واستطاعا بالمعادلات ان يتأكدوا من وجود كوكب سيار جديد قبل ان يروه . اما الكوكب المكتشف فهو نبتون ، وتنبأ الاستاذ لول بوجود سيار وراء نبتون وكان تنبؤه عن طريق المعادلة وقد شغل جانباً كبيراً من حياته في حساب بعده وقدره وجرمه وسرعته ، واستطاع ان يعين الفلك الذي يسير فيه السيار الجديد الذي سمي بالسيار بلوطو . واتفق العلماء على ان اكتشاف بلوطو من اهم الاعمال العلمية التي جاءت مؤيدة لكثير من مبادئ علم الفلك وقوانينه ومشييرة الى الارتباط المحكم المتين بين الرياضيات والفلك وسائر العلوم الطبيعية . وقبل الختام اود ان أوجه النظر الى ان الاسلوب العلمي او الطريقة العلمية الحديثة التي هي اساس الاكتشاف والاختراع والتي ميزت هذا القرن عن غيره ، ترتكز الى درجة جدية بالاعتبار على المعادلة . اذ بالمعادلة توسع مجال الدقة واصبح في الامكان وضع كثير من المبادئ والقوانين في قالب رياضي وفي هذا توسيع لدائرة الاستفادة العملية من العلوم المختلفة والفنون المتنوعة

الاثير : لغز الدهور

تحول صورته في اذهان العلماء والفلاسفة^(١)

من نيوتن الى اينشتين

نشأ القول بالاثير عن حاجة الانسان الى تعليل التفاعل بين اجسام بعيد بعضها عن بعض . ولم تبد هذه الحاجة ملحجة الا بعد ما وضع نيوتن قواعد الجاذبية . ذلك ان وزن الجسم كان الى عهد نيوتن شيئاً مستمراً يتوقف على الجسم وحده دون اى جسم آخر . فلما بين نيوتن ان وزن الجسم يمكن تعليله بالتجاذب بين كتلتي جسمين ، وان تطبيق هذه القواعد على القمر لتعلل حركته سأل المفكرون كيف يتم هذا الفعل وليس بين الارض والقمر صلة مادية تصلح ان تكون وسطاً لنقل القوة الجاذبة . ومما لا ريب فيه ان انتقال الحرارة وغيرها من مظاهر الطاقة تحتاج الى وسط ينقلها وقال احدهم : يستطيع جسم من الاجسام ان يفعل حيث لا يكون الجسم نفسه . فكان الجواب المبني على الاختبار ان ذلك متعذر . فرغبة في توحيد القوى الطبيعية ، قيل ان الجاذبية تفعل في الظاهر من دون وسيط ، ولكنها في الواقع تنتقل عن طريق وسط متصل بملأ الكون ، لا فجوة فيه ولا انقطاع ، ودعي هذا الوسط ، الاثير . ولكن لم يشر احد الى تصرف هذا الوسط في نقل القوة الجاذبة . بيد ان نيوتن لم يعلق به شأن كبير ، لانه كان يراه استنتاجاً محضاً ، لا عاملاً أصيلاً في نظريته في الجاذبية

وكانت الخطوة التالية في نظرية الاثير ، اخراج النظرية الموجية للضوء على يد العالَمَين هوجنس ونيو. ومؤداهما ان الضوء ظاهرة موجية ، ذات نبضات مستطيلة . وكانت هذه النظرية في حاجة الى وسط تنقل بواسطته طاقة الشمس ضوءاً وحرارة ، اذ المعروف ان ضوء الشمس وحرارتها يجتازان الفضاء بين الشمس وسياراتها ، فاذا كانا ضرباً من الامواج وجب ان يكون هناك شيء في ذلك الفضاء يستطيع ان يتموج

وتلا ذلك تكهن العلماء بخواص هذا الوسط . فقليل اولاً انه شفاف كل الشفاف اي ان الطاقة التي تخترقه لا تفقد شيئاً من قوتها ، والآخر لما استطعنا ان نرى النجوم والسدم القصية ، لأن ضوءها لا يتبدد في اختراق مسافات شاسعة من الاثير

ثم قيل ان من خواصه ان الاجرام لا تحتك به في خلال اختراقها اياه ، والا لما استطاعت ان تمضي في افلاكها من دون عائق يعوقها

ولما كان الاثير ، ينقل امواجاً مستطيلة ، فيجب ان يكون سائلاً او من قبيل السائل ولكن لا يمكن ان يكون لزجاً لان اللزوجة تقتضي الاحتكاك بين الاثير والاجرام. واما نقله الحركة الموجية بسرعة عظيمة هي سرعة الضوء فيقتضي ان يكون شديد المرونة

هذه هي الخواص التي كانت تسند الى الاثير لما اعلن فرنل Fresnel الفرنسي (١٧٨٨-١٨٢٧) مباحثه في الضوء المستقطب polarized التي اثبت بها ان الضوء امواج مستعرضة transverse لامستطيلة longitudinal فاقتضى هذا التعديل في نظرية الضوء الموجية تعديلاً يقابله في الاثير الناقل للضوء . فالقدرة على نقل امواج ما على الاطلاق يقتضي مرونة ، ولكن نقل امواج مستعرضة يقتضي مرونة من ضرب خاص هي المرونة الخاصة بالاجسام الجامدة او مرونة الشكل . وبكلمة اقتضى اكتشاف فرنل ان يكون الاثير جامداً ومرناً في آن

ثم تباحث العلماء في موضوع حركة الاثير ، او حركة بعض اجزائه ، وخرجوا من مباحثتهم الى انه لا بد للاثير من ان يكون مستقراً لكي يمكن تفسير تجربة فيزو Fizeau (١٨٥١) التي اثبت بها ان سرعة الضوء لا تتغير ، سواء كان الضوء متجهاً مع مجرى من الماء او ضده . بل قالوا حينئذ انه لا يشترك في حركة الاجسام ، وان اجزائه لا تتحرك بقياس بعضها الى بعض ، الا حركتها الخاصة بالتوج

وشرع الحاسبون يحاولون ان يقرروا هذا الخواص تقريراً رياضياً . فقالوا ان كثافته تفوق كثافة الرصاص ١٠ ملايين مرة ، وان قصور inertia سنتمتر مكعب منه يفوق قصور سنتمتر مكعب من الماء مليون مليون ضعف . وقالوا كذلك انه لما كان الاثير ينقل امواجاً مستعرضة بسرعة الضوء فيجب ان يكون جسماً جامداً صلابته تفوق صلابته الفولاذ مليون مليون مرة

هذه هي الاركان التي قامت عليها صورة الاثير في اذهان علماء القرن التاسع عشر الى مطلع نصفه الثاني وقد كانوا يظنون ان معرفتهم بالاثير وخواصه تضاهي معرفتهم بالمادة وخواصها ولكن هؤلاء العلماء كانوا في مأزق . فليس من المستطاع ان تنتقل طاقة الضوء والحرارة في الفضاء من دون وسط تنتقل فيه ، ولكن انتقالها امواجاً مستعرضة ، اقتضيا في هذا الوسط خواص عجيبة تناقض الخبرة الانسانية

كان الطبيعيون الى هنا ينظرون الى الاثير نظراً الى المادة ، فوجدوا ان هذه النظرة تقتضي عليهم باسناد خواص للاثير ، لا تتفق وخبرتهم العملية ، فحملهم ذلك على القول بأن خواص الاثير لا يمكن ان تحدّد بما حدثت به خواص المادة

فلما خابت النظرة المادية الميكانيكية الى الاثير ، تطلعوا الى ميدان الكهرباء والمغناطيسية .

وأول من أدخل الأثير في هذا الميدان من ميادين البحث كان العلامة ميشيل فراادي . وقد كان علماء الكهربية يقولون حتى عهد فراادي بشيء يدعو الشحنة الكهربائية تستقر على الجسم المكهرب وتؤثر في الاجسام المكهربة ، البعيدة عنه ، على نحو ما تؤثر الاجسام بعضها في بعض بفعل التجاذب . بل كانوا قد افروا تلك القوة الكهربائية في معادلات رياضية . ولكن فراادي لم ترقه فكرة التفاعل عن بعد . وقد أشار مكسويل في مقدمة كتابه (رسالة في الكهربية والمغناطيسية) الى فراادي فقال : ان فراادي رأى بعين عقله خطوط القوة تخترق الفضاء ، حيث رأى الرياضيون مراكز القوة تتفاعل عن بعد . ففراادي رأى وسطاً حيث لم يروا هم الا مسافة . لذلك بحث فراادي عن مركز هذه الظاهرات في الافعال الحادثة في هذا الوسط »

وفي نظر فراادي كان هذا الوسط ينقل الكهربية

ولما كانت القوى الكهربائية تنتقل في الفراغ فرض فراادي ان الوسط الذي تنتقل فيه هو الاثير ، وان خواصه تتغير بوجود المادة فيه ، وبهذا يعلل نقص القوى الكهربائية بين جسمين مكهربين اذا توسط بينهما لوح من الزجاج

وعلى هذا النحو كذلك فسرت الظاهرات المغناطيسية

وبعيد ذلك جرب فراادي وكار Kerr تجارب ادخلت في روعهما ان الضوء والكهربية والمغناطيسية تنتقل في الوسط نفسه — اي في الاثير

وأوجت مباحث فراادي الى مكسويل البحث العظيم الذي تفرّد به ، فأثبت بالمعادلات الرياضية أنه اذا وجد وسط كالوسط الذي فرضه فراادي وجب ان يكون في الامكان احداث اهتزازات متساوية فيه قوتها قوة المجال المغناطيسي والكهربائي ، وتتصف بصفات الأمواج . وبعيد ذلك تمكن هرتز من توليد هذه الامواج الكهربائية (اللفظ منحوت من كهربائي ومغناطيسي) واثبت انها من قبيل الضوء وان الفرق الوحيد بين نوعي الامواج انما هو في طولها فقط

فنجم عن تجارب هرتز ان رسخت دعامة النظرية الاثيرية ولكن تحولت من ناحيتها الميكانيكية الى ناحيتها الكهربائية والمغناطيسية بل ان العلماء تفرّفوا في هذا التحول حتى لئرى هرتز يحسب المادة والاثير شيئاً واحداً وان المادة ليست الا اثيراً قد اصابه التنويع . وقد قاده الى هذا الاعتقاد ما رآه من اختراق الامواج الكهربائية لأصناف مختلفة من المادة ، من دون ان يعوقها عائق ما وكانت الحال على ما تقدّم لما خاض الاستاذ لورنتز Lorentz الميدان فوفق بمباحثه الرياضية ومعادلاته بين النظريات السائدة حينئذ وحقائق الخبرة الانسانية العملية ، فلاثير في نظريته كان مجرداً من خواصه الميكانيكية القديمة . والمادة من خواصها الكهربائية . وما يرى في المادة من الظاهرات الكهربائية (خواص نقل الضوء والكهربية والمغناطيس) لم يسند الى التّرات بل

الى الاثير الذي يتخللها وينبث فيها . فعللت هذه النظرية تعليلاً بديعاً ما يشاهد من ضعف الضوء بعد اختراقه لاشد الاجسام شفوفاً ، وكذلك عطل بها ما يشهد من زيادة امتصاص الاشعاع الكهروضويسي بزيادة كثافة المادة . وعلى ذلك لم يبق من خواص الاثير الميكانيكية الا خاصة الاستقرار ، وهي خاصة تلتئم وتجربة فيزو القديمة ومباحث ولسن C. W. Wilson الحديثة

اما اليوم فليس للاثير شأن خاص في النظرية الكهروضوئية . فاذا كتب عالم هذا الموضوع فرض وجوده بوجه عام ثم قال كما قال ادنغتن في كتابه « الفضاء والزمن والجاذبية » : « ان في نقطة معينة فيه مقداراً كهروضوئياً له كتلة واتجاه ويمكن قياس قوته » وبعدها يعود الباحث لا يعني بالاثير ، بل بخواص هذا المقدار . والمفروض ان هذا المقدار يمثل حالة الاثير « ولكن الاثير ليس عاملاً فعالاً في النظرية »

فلما بدا للعلماء ان الاثير مستقر قالوا : اذن نستطيع ان نتبين سرعة الارض فيه . ولكننا نعلم اننا لا نستطيع ان نتبين سرعة جسم ما الا بالقياس الى جسم آخر . فكيف نستطيع ان نتبين سرعة الارض بالقياس الى الاثير المستقر ؟

المقرر ان الضوء يسير في الاثير ، فاذا بعثنا بشعاع ضوء في اتجاه حركة الارض وجب ان تنقص سرعة الضوء الظاهرة ، لانه لا بد من طرح سرعة الارض من سرعته ، لانهما سائران في اتجاه واحد من هنا نشأت تجربة ميكلسن ومورلي المشهورة . فتعذر عليهما ان يتبين بها سرعة الارض في الاثير ، فظن اولاً ان الآلات التي استعملوها لم تكن على جانب كاف من الدقة . ولكن هذه الآلات كانت شديدة الاحساس يستطيع الباحث ان يتبين بها حركة دقيقة أدق من حركة الأرض حول الشمس . ثم أعيدت هذه التجربة ، أعادها ميكلسن نفسه بعد وفاة زميله واعادها غيره كذلك ، فلم يظفر أحد بما يدل على حركة الأرض — الا عالم يدعى دايتون ملر — فتعددت أساليب التفسير الى ان جاء اينشتين بنظرية النسبية الخاصة ففرض فيها ان سرعة الضوء في انفضاء ثابتة لا تتغير ، وانها مستقلة عن حركة مصدرها ومشاهدها . ولذلك لا يمكن تبين حركة الارض في الاثير عن طريق الاختلاف في سير شعاعتين من الضوء احدها سائرة في اتجاه الأرض والاخرى في اتجاه معامد للاول

وكذلك فقد الاثير اخرى الصفات الميكانيكية التي اسندت اليه

والواقع ان الاثير لم يكن يوماً ما حقيقة اقيم الدليل على وجودها ، بل كان يتصف بخواص تناقض خبرتنا العملية ، وهو الآن في نظرية النسبية فرض لا ضرورة له ونختم هذا التلخيص بكلمة للسر اوليفر لدج قال : « صحيح اننا نستطيع ان نمضي في الحساب الطبيعي والاكتشاف العلمي من دون ان نستند الى الاثير ، ولكن اذا اردنا ان نتفلسف وجدنا انه لا ندحة لنا عن ان يتصف الفضاء بخواص طبيعية وانه جدير بشيء اكثر من اسم هندسي » ١

تقرير هادو^(١)

واصلاح التعليم فى انكلترا

لعلى حسن الرها كع

عرف عن الانكليز عدم النزوع الى التغيير المفاجئ العنيف ، وها هي الثورات السياسية والاقتصادية تعصف بأنحاء العالم ، فلم ترحم قوماً ولم تسه عن امة الاً وعبثت بها ما عدا انكلترا . فهي الامة الهادئة العملية ، لا تزال أمنع من أن تستهويها فكرة او نظرية ، ولا تحترم الاً الأمر الواقع والتجربة الناطقة . فاذا أخذت أي ناحية من نواحي حياتها السياسية والاجتماعية فلن تعثر الاً على نمو بطيء وتعديل فوق تعديل . وكما يميل الانكليز الى التريث فى الاخذ بالآراء الحديثة حتى يستبينوا قيمتها فانهم اذا ما أخذوا بها كانت يقيناً ودينياً ، اذ يضعون قوتهم كلها فى دعمها ولا يترجعون قبل تحقيقها لذلك لم يكن عجيبة أن ينبت هذا المجتمع الناضج اقوم الآراء وامتن الحجج . أليست انكلترا خالقة النظام النيابي ومنشئة العناية بالأبدان والألعاب ومبتكرة حركة الكشف ؟ وانك اذا احتككت بأفرادهم فى مجتمعاتهم او اطلعت على منتجاتهم العقلية وجدت فارقاً جلياً بين تفكيرهم وتفكير غيرهم من الامم حتى البارزة منها . وقد تجدد فى الصحف اللاتينية كالإيطالية والفرنسية حماسة ولهيباً فى اسلوب رشيق جذاب وفى الألمانية غزارة فى العلم وتعمقاً فى الفكرة . اما الانكليزية فهي لا تتعمق ولا تصخب وانما تبسط الحقائق المحسوسة بأسلوب عملي خالٍ من الاسهاب والتجميل . ومن هنا كان الأدب الانكليزي غير متذوقٍ كثيراً لدى غيرهم من الامم الحالية التي لا يشبعها الاً السطحي الضحاضح من الادب الذي لا يحرك الاً الغرائز الفطرية . وهذا لون من ألوان التسمم العقلي ومن هنا كانت للآراء الانكليزية فى مختلف ميادين النشاط العقلي قدر ممتاز بين خاصة المفكرين فاذا ما صدر الرأي فى صحيفة او مجلة تناولته اسلاك البرق بالاهتمام لما عرف عن هؤلاء القوم من الأناة والتريث ووزن الحقائق . لذلك أبحث قومي على التزود من الآراء الانكليزية الناضجة فى مختلف الشؤون وكرجل مربٍ يدهشني حقاً ان يصدر فى عام ١٩٣١ تقرير لجنة — برئاسة السير هادو Sir Hadow — لكفتها الحكومة لخص حالة التعليم العام بانكلترا ، ثم لا نقرأ كلمة عنه فى صحفنا . فبعد جلسات كثيرة عقدتها اللجنة واتصال مباشر بكبار علماء النفس والتشريح ورجال الاعمال اصدرت اللجنة تقريرين طافين بزيد الآراء النظرية والعملية . وقد اخذت الحكومة فعلاً بجلٍ ما جاء فى التقريرين حتى اصبحت روح التقريرين هي المتسلطة فى ميدان التربية الانكليزية

ولضيق وقتي لم أفرغ من قراءة التقرير الخالص بالتعليم الابتدائي إلا منذ بضعة شهور ، فإذا به كنز قيم لا يقتصر على آراء أئمة المربين بل يتناول آراء كبار المفكرين وعلماء النفس والتشريح ورجال الأعمال الذين استطلعت اللجنة آراءهم في سبيل اصلاح التعليم العام . واني لا ارى مندوحة عن جلاء نقطة هامة في هذا الصدد . وذلك ان التقرير خاص بالمدارس الابتدائية الانكليزية ، وفي انكلترا وفي سائر بلاد العالم لا نجد مرحلة في التعليم العام اسمها التعليم الاول واخرى اسمها التعليم الابتدائي كما هو الحال في مصر مع الاسف المرتبـل هناك مرحلة واحدة تسمى في بلد « ابتدائية » وفي آخر « اولية » وفي ذلك ضمان لوحدة الامة وعدم التحطيم بين طبقاتها وألوان حياتها كما في مصر

ومع الفارق العظيم بين مستوى التعليم في انكلترا وبينه في مصر فانك تجد مقابلات كثيرة بين الحالين في كثير من المواضع تستعرض نفس المشكلات المصرية كمشكلة تعليم اللغتين الثنائيتين في ويلز وهي تقابل مشكلة اللغات الاجنبية هنا . وما يزيد في قيمة هذا التقرير استناده الى ملحقين عاميين نفيسين في ذيله يشملان أحدث وأقوم ما وصلت اليه الحقائق العلمية بشأن الطفل وطبيعته . فالملحق الأول خاص بجسم الطفل من الولادة الى سن الانتهاء من التعليم الابتدائي من الوجهة التشريحية والفسولوجية ، والملحق الثاني يتناول خصائصه النفسية . ولما كانت مهمة اللجنة البحث في مناهج الدراسة وخاصة ما اتصل منها بالاوساط الريفية ، كانت تلك الآراء عظيمة القدر للباحثين من المصريين يقول التقرير في المقدمة « ان المشكلات عديدة وخطيرة »

فالمدرسة محيطة طبيعي ومحل تربية للعقل وجمعية روحية في وقت واحد ويعجبني من التقرير انه بعيد عن الرجعية بعده عن الثورية ، اذ لم يغفل أحدث الأساليب في التربية ، وأخذ منها الكثير الذي طبقته الحكومة الانكليزية ومجالسها المحلية واني أحث اخواني المدرسين ، وبصفة خاصة القائمين بشئون التعليم في مصر كباراً وصغاراً على النزود من هذا التقرير النافع إذ انه كما قلت خلاصة دسمة ثمينة للنظريات العلمية ونتائج التطبيقات العملية لها كما قطعت به التجربة والاختبار . فهو لذلك يغني من لا يتسع له الوقت عن قراءة عشرات من الكتب . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان في استعراض مشكلات التربية كما استعرضها واضعو التقرير من جهابذة ، خير مرشد لنا في معالجة مشكلاتنا وبالاخص في الطريقة العلمية النافذة التي تتطلبها مثل هذه المعالجة

يبدأ التقرير بمقدمة عن مهمة اللجنة ، يتلوها استعراض تاريخي لمشكلة التعليم الابتدائي بانكلترا وتطوراتها ، ثم فصل علمي ممتع عن نمو جسم الطفل الى سن ١١ آخذاً بأحدث الآراء كالرأي القائل بنمو الطفل في مراحل محدودة على نوعين امتلاء ثم انفراد ثم امتلاء وهكذا . ومن اهم ما جاء في هذا البحث ان مرحلة التعليم الابتدائي تتفق مع مرحلة امتلاء (filling out) ويسمى البحث « تمكيناً » أي (Consolidation) تستطيع فيه التربية الحقنة ان تصلح العيوب الجسدية

واعداد الجسم للمرحلة الانفرادية الثالثة في البلوغ عند ما يكثر استعداده للأمراض المعدية الخطيرة كما أثبتت الابحاث التشريحية الاخيرة . ان عظام الكتف والحوض لا يتم نموها ولا تحكم مفصلها الا في سن ١٦ سنة تقريباً وبذلك يتبين الخطر من اجهاد الجسم في حركات عنيفة قبل بلوغ هذه السن . وقد اثبتت الابحاث أيضاً ضرورة الراحة الجسمانية وبخاصة بعد تناول الطعام ، وكيف ان الطفل يجنح بالغريزة الى جلسة التربع (Squatting)

ومما هو جدير بالذكر ان واضعي التقرير لزموا ، في المواضع التي لم يأت العلم فيها بجديد ، جانب الصراحة باقرار العجز عن المعرفة ، كذلك المفاجأة الهامة بالاقرار بعجز العلم الى الآن عن معرفة معظم التفاصيل عن المخ وأدوار نموه وعلاقته المحيطة بالاحوال النفسية والعقلية وحنه علماء التشرح والفسولوجيا على توجيه عناية كبيرة خاصة الى هذه الناحية الرئيسية

ثم يلي فصل عن نمو عقل الصبي في نفس الفترة مع التعرض المستمر لناحية التربية التطبيقية applied وهو يأخذ اجمالاً بالرأي الحديث الذي يقول به الاستاذ Spearman وهو ان التفكير ادراك للعلاقات . ويشيد بالتفكير الاستنباطي inductive فيقول بأنه أسهل للطفل من التفكير القياسي deductive . اي عكس ما هو مألوف . ثم يأتي فصل نفيس عن الناحية الذوقية aesthetic والعاطفية في الطفل ثم بحث يتناول علاقة المحيط بالصبي ومن ذلك يخرج الى بحث سن التخرج في التعليم الابتدائي وعلاقته بالتعليم الاولي من جهة والتعليم الذي يتلوه من جهة اخرى ، ويبحث التقرير على ضرورة التعاون والاتصال الدائم بين القائمين بالتعليم في هذه المراحل بعضهم ببعض ، ويقرر بأنه مع التسليم بضرورة جعلها مدارس منفصلة احتراماً لطبيعة النشء المتباينة عنها في الاخرى ، فان النمو المستمر والانسجام يتطلبان هذا الاتصال ويتلو ذلك فصل في توزيع التلاميذ على الفصول وادارة المدارس ثم ينساب الى فصل ممتع جمع بين العلم والتجربة القيمة عن ضعاف العقول مقسماً اياهم الى طبقات متفاوتة في الضعف ويرى ضرورة وضع الضعاف في فرق معزولة تحت عناية خاصة مبنية على دراسة للضعف العقلي من جانب القائمين بتدريسهم . ولم يكتف بذلك بل ابار اسباب ذلك الضعف وضرورة عزل الطلبة من مبدأ الدراسة وبذلك يقتصد مجهود عظيم مع كل من الضعفاء والعاديين ويحسن توجيه الصبيان الى المهنة المقبلة . ويرى التقرير عدم الاقتصار على تخصيص فرق خاصة بل مدارس منفصلة للمعنيين في الضعف العقلي اي الذين يقربون من البله idiocy

ثم يتلو ذلك فصل عن المنهج ثم فصل عن توزيع العمل واعداد المدرسين ثم فصل عن بناء المدارس واثاتها ووسائل الايضاح وبحث في الاخذ بالوسائل الحديثة من سينما ورايو الخ وبلي ذلك فصل ممتع في الامتحانات وفيه يأخذ التقرير بأحدث الآراء من حيث الاخذ باختبار الكفاءة والمقدرة لا المعلومات Capacities not attainments وان يكون النقل على هذا الاساس . ويسمح بأن يعاد النظر بين حين وحين في حالة التلاميذ كأن ينقل تلميذ سبق تقرير اعادته . ونص

التقرير على التسهيل في الامتحانات كأن يقصر اختبار الدخول في المدارس الثانوية على اللغة والحساب (هذا رأي المستر مان في تقريره الممتع عن التعليم في مصر) وبذلك يستجنب ذلك الارهاق وتلك القدسية الصناعية التي اسبغت على الامتحانات العامة . وقد تعرض لاختبارات الذكاء الجمعية group tests فوصل الى انه مع التسليم بفائدتها لا يرى الاقتصار على الارتكان عليها

وقد اتى بشيء جديد حقاً عن الاختبارات الشفوية ذلك ان الاختبارات المألوفة التي يتبع المختبر فيها مع الطالب كما تسوقه خواطره لا فائدة منها ، بل يجب ان يكون الشفهي اختباراً أعدت أسئلته ونواحيه . ويرى فائدة كبيرة في الاختبارات الفردية للذكاء كوسيلة منتجة لتوجيه الطالب في حياته الدراسية . وبذلك قضى هذا التقرير قطعياً على الامتحانات كما هي شائعة ويرى ان يستبدل بها في تقرير مستوى المدارس والتلاميذ تفتيش دقيق نزيه . ثم يتلو ذلك تقرير تفصيلي عن مواد المنهج مادة مادة وهي صفحات جدير بكل معلم ان يقرأها بعناية لانها زبدة قيمة لحدث الابحاث كما سبق ان بينت . وعلى ذكرها بحسن ان نبين ان المناهج في انكلترا ليست موحدة كما في مصر . اذ لكل مجلس مقاطعة بل لكل مدرسة ان تضع منهاجها غير متقيدة الا بمحدود عامة

ويأخذ التقرير في المناهج بكثير من النظريات والطرق الحديثة ويدمجها بدون ازواج الأنظمة القائمة . ولما كان هذا الفصل ممعناً في التفصيل لا أرى لبسطه محلاً هنا ولعلي اعرض له في فرصة اخرى وانما لا يفوتني التنويه بما اجمعت عليه المذاهب الحديثة وما اقره التقرير من ضرورة الاخذ بالعمل قبل المعرفة action . ولذلك يقرر ضرورة الاتصال بالحياة وشؤونها في كل شيء والترابط بين المواد بعضها ببعض في ذلك الاتصال ويعلق شأنًا عظيمًا بالأعمال اليدوية كدروس الاشغال والرسم وتربية النباتات والحيوانات وعمل نماذج لمختلف المشاهدات من اعمال وصناعات وسائر ما يتصل بالحياة العملية حتى يشب الصبي مندمجاً في بيئته ، نافعاً لمجتمعه ، خبيراً بالحياة ، بعيداً عن اوهام النظريات والمعلومات التي تتطاير بمجرد فوات الامتحان

وهنا يسترعي نظرنا عيب رئيسي لا يزال قائماً في مصر . هو ان الطالب في مدارسنا الابتدائية يُوجه من قبل عدة مدرسين كل يوجهه في ناحية معينة اسمها علم . فهذا يدرسه العربية وآخر الانجليزية وآخر الحساب وهكذا ، وبذلك يُقضى على وحدة الملاحظة والتوجيه وما يتبع ذلك من ربط وانسجام بين سائر المواد ويتسلط على الناشئ اكبار واعظام للمعلومات فيشحن حافظته بحقائق كل مادة . ويصبح الامر حشواً لا ربية حقة

هذا تنويه بسيط بذلك التقرير النفيس الذي لم احظ بأشارة ولو بسيطة اليه في مجلة او صحيفة علمية او ادبية !! واني اطلب الى اخواني المعلمين عامة والى كبار القائمين بالتعليم خاصة ان يقرأوه وينعموا بالنظر فيه . ولعل وزارة المعارف تعني بترجمته وتوزيعه على المعاهد . ففيه فائدة لا تقدر لاستخلاصه زبدة الحقائق العلمية واحتوائه على نظرات ثاقبة عملية في احداث الطرق والاساليب في التربية

روح الصومعة^(١)

في معترك الحياة المادي

سادتي :- تهجع روح الشعب دهرآ او دهورآ ، ثم تستيقظ . ويلبث الشعب امينآ مستقرآ ثم نغمه اليقظة كموجة طاغية تدفعها ريح عاتية ، وتعصف بحياته المستتبة كفتنة محتاجة ، وبنظامه المستقر كاعصار مكسح . واذا الامة الهاجعة المطمئنة تتلظى بحمى الحياة شديآ وشبانآ ، نساء ورجالآ تنهب جذوتها من اشتباك النصال آنآ او تقبس شعلتها من منائر الآداب وصروح العلم آونة اخرى وشد ما اخشاه ايها السادة ، ان يمنعا اندفاعنا في تيار الحياة العصرية ، والسير مع رياحها ، والاخذ بكل ما يثير ويدهش من بدائعها ، عن التريث للتأمل في هذه المظاهر . اهي تتصل باعمق النفوس وتنبثق من قراراتها ، فيلقنها الجيل الحاضر للجيل المقبل ، ويترك الآباء الامانة في اعناق الابناء ، ام هي مظاهر تطفو على وجه الحياة ، كالجباب على سطح الكأس ، ولا تتصل بمجذورها ؟ ان قراءتي للتاريخ ، ولعبر العمران ، تدلني على ان المحك في كل ذلك هو امر واحد

المحك هو الحرية الروحية ، التي يدفعنا اليها اتساع افق النفس ، وسمو معاني الحياة ، والطموح الى غايات من الرفعة والتبيل والجمال لا يشتهاها الا الانسان الكامل . ثم ان الحرية الروحية ، وما يلزمها من الحرية الفكرية ، أساس كل نهضة ، ولا اقول سياسية او اجتماعية او علمية ، لأن هذه المظاهر ، انما هي نواح لحقيقة خالدة ، ولا يمكن ان تجلي هذه الحقيقة ولا ان تكمل تلك النهضة الا اذا اندمجت هذه المظاهر بعضها ببعض واتصلت باعمق النفوس

قد يقال ان التفكير الحر يفضي الى تراخ هنا وانحلال هناك وانقلاب وفوضى هنالك . اما انا فاقول : لا تسألوا عما يفضي اليه التفكير الحر ، بل دعوه يسير ، يقاوم ويقاوم ، وتصطدم حريته بمجريات اخرى ، وثقوا بأن النصر النهائي لا يكون الا للفكر الصحيح . فاصطدم الافكار ينقيه ، والاختبار يحصه ، والتنازع على البقاء في عالم الفكر كالتنازع في عالم الاحياء ، يستبقي الاحسن والاصح

وليس المقام مقام تحليل لنهضتنا الشرقية ، ولا هو مقام موازنة نبغي منه التعرف على مكانة هذا الركن الاساسي من اركان النهضة ، في حياتنا ، فأنا اعرف وانتم تعرفون اسماء عشرات من المفكرين الاحرار ، احياء وامواتا ، قد عانوا ما عانوا في سبيل هذه الحرية ، فلم يلبثوا ولم تغمر لهم قناة . ان ذكريات هذا الاضطهاد الذي لقوا ، او تلك المقاومة التي وعرت امامهم السبيل ، لن تذهب ادراج الرياح ، في امم تتوثب الى النور ، وتتلقى بحمى الابداع في ميادين الجهاد الانساني . كلا ورب الحق ! ان

(١) من الخطبة التي القاها رئيس تحرير المقتطف على جمهور كبير من اعيان نابلس ووجهائها في لوكاندة فلسطين بدعوة من الوجية قدرى حافظ طوقان

الذاكرة الشعبية تحتزن هذه الذكريات ثم تطلقها قوة تدفع الى الامام، وحكمة ترشد الى الطريق القويم فروح الشعب تهجع ثم تستيقظ . ويلبث الشعب آمناً مستقراً ، ثم تغمره اليقظة كموجة ، وتعصف بحياته كفتنة ، وبنظامه كاعصار ، فتهز حياته من اركانها

قال الدكتور بطر، رئيس جامعة كولومبيا من سنوات في مقال جليل ، ان مركز الثقل في العمران الحديث، انتقل من سياسة المبدأ الى سياسة المنفعة ومن العناية بمشكلات الحرية الى العناية بمشكلات الثروة ولو ان الناس يعنون في مقدمة ما يعنون به، بالشعر والفلسفة والحياة الروحية، لكن اعظم الاحياء واعلام مقاماً واعظمهم نفوذاً، هم الشعراء والفلاسفة والحكماء ... أما انهم ليسوا كذلك فدليل على روح العصر هذا حكم غربي على روح الحضارة الصناعية الاقتصادية الغربية التي تكاد تكتسحنا

أما نحن القائمين على القنطرة التي تصل بين الشرق والغرب، حيث يلتقي المشرق والمغربان، فخير بنا ان نمهد لجعل هذه البقاع المباركة ، مهذاً لهضة روحية غرضها اخضاع وسائل المادة لاغراض الروح العليا ، فنجعلها وسيلة لبناء الحياة الأدبية السامية في الافراد والامم ، ورابطة تحكم ما بين الشعوب بصلة الصداقة والتفاهم والتعاون لتحقيق تلك الاغراض

هذا يجب ان يكون لب الثقافة الشرقية الجديدة ، والى هذا الهدف الاسمى يجب ان نتجه ولكن الشقة طويلة . والمخاطر حمة ومهاوي السقوط تغويننا . ننظر الى حضارة الغرب فنؤخذ بما فيها من ابداع ونخلد الى نفوسنا فنقول بلسان عالمها الصناعي - ولا أقول بلسان عالمها الفيلسوف - : ما أعجب الانسان . ينقذ جماهير العمال من العمل المضني بآلة . ويبلغ السدم القصية بنظارة . ويطيير الى القطبين على جناحين من النسيج والحديد . ويجلس في القدس فيصغي الى لندن او يخاطبها وغداً قد يراها . اننا نؤخذ بكل هذا . ولكن أرضي ان نغدو عقولاً متحجرة تديرها آلات صنعتها آلات اخرى ؟ قد ينجي الشباب نفسه فرحاً هازجاً وهو قابض على زمام سيارة : لا سيرن بسرعة مائتي ميل الى القمر . . . كل ما تفعله يا أخي رهن الروح التي تقبل بها على عملك . أنتقدم اليه كقطعة مندفة من الانسانية لا تعلم من اين أنت ولا الى اين تقصد ولا لماذا تسير ؟ ومتى وصلت الى القمر فاذاً يمثل لك القمر اذا لم تأخذ اليه الا عقلاً ضيقاً وروحاً مستعبدة تحيط بها كرة او اسطوانة من الفولاذ ؟ اننا نؤخذ اذ نرى الالعوبة الميكانيكية ١١ أفنكتفي بذلك أم نؤثر ان نكون جميعاً ، الرجل الذي يحلم احلاماً ويرى رؤى ويظل يحلم ويرى حتى تصير احلامه ورؤياه قواعد واصولاً تقوم عليها صلته باخيه الانسان ! ليس في هذا الكلام دعوة الى الاعراض عن الغرب ، ولكن فيه دعوة الى اخضاعه . انا لا اقول اعرضوا عن العلم ، بل اقول ارتفعوا بالعلم الى مستوى الروح حتى يندمج الاثنان في سبيل الخير العام . أنا لا اقول اصدفوا عن الصناعة بل اقول يجب ألا تلهينا الصناعة عن قوى الابداع التي وراها . انا لا اقول لكم اقبعوا في صوامعكم واعتصموا بقمم جبال بل اقول انزلوا الى ميادين الحياة ولا تنسوا روح الصومعة في التغلب على سخائف الحياة ، او روح القمة التي تشرف على السهل الفسيح كذلك علمنا أنبيأونا في قديم الزمان . وكذلك يجب ان نعلم العالم اليوم

من الضيق
البرقية ،
ولما
الاسس
نك حال
الاربع
المقطم و
فني
باب الفتو
ولا
كابين ذلك
المقرزي
واذا اجتا
زكي من
السبيل
باب زويله
(١)
بسم بنو
القوس قتيبا
من مر به
جزء

تأسيس القاهرة

- ٢ -

بقلم الكاتب كرسويل استاذ الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية

Capt. K. A. C. Creswell

ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

✽ اسوار القاهرة وابوابها ✽ يمكن تتبع حدود سور جوهر في اكثر اجزاء دائرته بكثير من الضبط بفضل المعلومات التي امدنا بها المقريري ، ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية ، فاننا ليس لدينا تفاصيل عنه

ولما كانت الاعمال الاولى قد تمت في اثناء الليل وبعجلة كبيرة فقد لحظ في الصباح التالي لوضع الاسس ان هناك اضطراباً في تخطيط القصر وان الخطوط لا تسير على استقامة . وكانت هذه بلا شك حال اسوار المدينة ايضاً . ومع ذلك فقد كوّنت مربعاً منتظماً تقريباً تواجه اضلاعه الجهات الاربع الاصلية . فيواجه الجانب الجنوبي منه القسطنطينية ويسير الغربي محاذياً للخليج . ويواجه الشرقي المقطم والشمالى الخلاء . وكانت هناك سبعة ابواب كما يلي :

ففي الجنوب باب زويله المزدوج الاقواس : وفي الغرب باب الفرج وباب السعادة : وفي الشمال باب الفتوح وباب النصر : وفي الشرق باب البرقية وباب القراطين الذي سمي فيما بعد بالباب المحروق ولا يوجد الآن شيء من هذه الابواب ولكن يمكن تعيين مواقع الكثير منها بكثير من الدقة كما بين ذلك رافيس وكازانوفا

✽ باب زويله الاول ✽ يمكن تحديد موقع باب زويله الاول اعتماداً على ما رواه القلقشندي والمقريري ^(١) من ان قسماً منه كان لا يزال موجوداً في عصره بالقرب من مسجد سام بن نوح . واذا اجتاز الانسان باب زويله الحالي وسار تاركاً مسجد المؤيد على يساره فانه يجد نفسه امام سبيل زكي من العهد الاخير (سمي مدرسة العقادين على خريطة مصلحة المساحة . . .) وفي ركن هذا السبيل القريب من باب زويله باب صغير لمسجد سام بن نوح وهو يعطينا نقطتنا المحددة لموقع باب زويله الاول

(١) « كان باب زويله عند ما وضع القواعد جوهر القاهرة باين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح . فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من احدهما وهو الملاصق للمسجد الذي بقي منه الى اليوم عقد ويعرف بباب القوس فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الالسنه ان من صر به لا تقضى له حاجة . وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم » مقريري جزء ٢ ص ٢٠٩

﴿ باب الفرج ﴾ لا يعرف بالضبط موقع باب الفرج وقد جمع كازانوفا ما ورد في المقرئ في عن هذا الباب كما يلي

١ — « كان في الجانب الغربي من القاهرة وهو الجانب الذي يواجه الخليج الكبير بابان : احدهما باب السعادة والآخر باب الفرج »

وهناك اشارات اخرى في خطط المقرئ الى ان هذا الباب كان يقع في الجانب الغربي

٢ — « رُبِع السلطان خارج باب زويلة بين باب زويلة وباب الفرج وتعرف هذه البقعة الآن بهذا الاسم ويطلقون عليها اسم تحت الربع » ولا يزال تحت الربع موجوداً

٣ — « وفي منتصف جمادي الثانية ٨١٨ بداوا بهدم السور الحجري بين باب زويلة وباب الفرج » ويضيف كازانوفا ان شارع سكة الشيخ فرج — الذي ربما كان تذكاراً لهذا الباب — موضح

على خريطة القاهرة في عهد نابوليون (١٧٩٨) بجانب شارع تحت الربع بقرب الخليج

ومن ذلك نستخلص انه كان يقع بالطرف الجنوبي من الجانب الغربي وليس كما يضعه كازانوفا

بالطرف الغربي من الجانب الجنوبي على عكس رواية المقرئ التي كررها في كتابه اربع مرات انه كان يقع في الجانب الغربي

ولنحاول الآن تعيين موقع هذه الزاوية من السور فاذا رسمنا خطأً وهمياً متجهاً الى الغرب من مسجد سام بن نوح فاننا نجد جنوبيه مباشرة شارعاً يسمى القسم الغربي منه سكة النبوية والقسم

الشرقي شارع الاشراقية ، وعلى شمال هذا الخط الوهمي نجد عدداً لا يحصى من الشوارع الصغيرة المسدودة والازقة المغلقة بدلاً من ان تفتح على شارع سكة النبوية . فلماذا تقف كل هذه الشوارع

والازقة الملتوية مقفلة عند هذا الطريق

اننا نرى انها تقف جميعاً امام سور جوهر الذي كان يمتد جنوبيها وان تخطيط الشوارع قد احتفظ بالنظام الذي كان عليه منذ ذلك الوقت الى الآن

ولدينا دليل آخر في شيء مشابه لهذا هو انه لا توجد فتحات مطلقاً في الجانب الشمالي من شارع تحت الربع الذي نعرف انه كان يسير خارج السور الجنوبي الذي انشأه بدر الجمالي ، وان كان هذا

السور قد ازاله المؤيد منذ خمسمائة عام

فاذا قبل هذا الرأي ، وكان صحيحاً ، فان السور الجنوبي كان لابد ان يتصل بالسور الغربي في المكان

الذي تشغله الآن محكمة الاستئناف ويكون موقع باب الفرج في هذه النقطة

﴿ باب السعادة ﴾ يضع رافيس باب الفرج وباب السعادة في الجانب الغربي ، ولكنه يجعل

الباب الاخير بقرب الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة . ولما كان المقرئ يتكلم عن ربع السلطان خارج باب زويلة ، بين باب زويلة وباب الفرج ، فمن المؤكد ان هذين البابين كانا متجاورين ، وان

باب السعادة كان ابعد منهما ، وبمعنى آخر كان موضعه الى جهة الشمال اكثر من باب الفرج

ويضع كازانوفاً باب السعادة بالقرب من الطرف الجنوبي للسور الغربي لما رواه المقرئ من أن هذا الباب قد سمي باب السعادة تيمناً باسم سعادة بن حيان الذي قدم من مراکش بعد أن بنى جوهر القاهرة ونزل بالجيزة . فذهب جوهر لمقابلته وتلا ذلك أن دخل سعادة بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب في رجب سنة ٣٦٠ (مايو سنة ٩٧١) وعسكر بها

ويرى كازانوفاً أن سعادة لابد أن قد عبر النيل إلى الفسطاط على الجسر الذي كان مقاماً من المراكب ثم سار إلى القاهرة من الجنوب ولدخوله من باب سعادة - الذي نعرف أنه كان في الجانب الغربي - يرى كازانوفاً أن هذا الباب لا بد أن كان قريباً جداً من الطرف الجنوبي لهذا الجانب ولو كان سعادة بن حيان عازماً على دخول القاهرة من أول باب يلقاه في طريقه لكان هذا الاستنتاج صحيحاً

ولكننا نعلم أنه قد امتنع من الدخول من باب الفرع وهو أول باب يلقاه لذلك فنحن لا نوافق كازانوفاً على رأيه. إذ من الواضح أنه قد اختار باب سعادة لأنه أصلح الطرق الموصلة إلى قصر الخليفة أو إلى القصور الأخرى التي كان يدعو الواجب إلى التوجه إليها ولا يزال يوجد شارع يسمى درب سعادة يحفظ لنا ذكرى هذا الباب ونظراً لأن هذا الشارع يسير موازياً للخليج من باب الخلق إلى مسجد السلطان ققمق فربما كان موقع هذا الباب إلى جهة الشمال بالقرب من هذا المسجد

❖ باب الفتوح الأول ❖ يقول المقرئ أنه كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية وأن هذه الأجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من جنوبيها دون جدار الجامع الحاكمي^(١) وقد بديء في بناء هذا المسجد في رمضان سنة ٣٨٠ (نوفمبر - ديسمبر ٩٩٠) وكان خارج أسوار ذلك العهد

ولذلك فباب الفتوح الأول لا بد أن كان يقع قريباً من ركن هذا المسجد الغربي ❖ باب النصر الأول ❖ كان يقع باب النصر الأول قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي . وقد روى المقرئ^(٢) أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت توجد رحبة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبيين لمسجد الحاكم

وهذه المدرسة لا توجد الآن ولكن يظهر على خريطة القاهرة في عهد نابليون التي رسمتها البعثة العلمية سنة ١٧٩٨ مسجد يسمى مسجد الشيخ قاصد . فلذلك نرى أن موضع هذا الباب كان بشارع باب النصر قريباً من الركن الجنوبي لمسجد الحاكم . ويظهر أن تخطيط هذا الشارع واتجاهه بقي على حاله ولم يتغير

﴿ باب البرقية ﴾ ان تحديد موقع باب البرقية امر صعب التحقيق لأن الفصل الذي حالج فيه المقرئ ابواب القاهرة يقف عند عنوان باب البرقية

ويقول كازانوف ان الفصل الخاص بباب البرقية غير موجود في جميع مخطوطات المقرئ التي رجع اليها في باريس بل ان بعض هذه المخطوطات لا يوجد به حتى عنوان هذا الفصل ولا يوجد الآن باب بهذا الاسم . كما انه لا يوجد على خريطة القاهرة في عهد نابوليون سنة ١٧٩٨ باب بهذا الاسم ايضاً . اضع الى ذلك اننا لا نعرف بالضبط موقع الجزء الشمالي من السور الشرقي

﴿ باب القراطين ﴾ يمكن تعيين موقع باب القراطين تعييناً أقرب الى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق ^(١) وقد اطلق عليه هذا الاسم بسبب ما فعله سبعمائة مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الامير اقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ (٦ أكتوبر ١٢٥٤ م) ففي اثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر اذ كانت تغلق ابواب مدينة القاهرة في الليل . فأوقدوا النار في الباب « حتى سقط من الحريق » وخرجوا منه ، ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق ونظراً لان المقرئ يخبرنا انه كان يوجد حتى سنة ٨٠٣ هـ (سنة ١٤٠٠ - ١٤٠١ م) جانب كبير من السور الذي بناه جوهر بالطوب بين باب البرقية ودرب بطوط . وان هذا السور كان يبعد خمسين ذراعاً خلف سور صلاح الدين

فلذلك نقرر ان موقع باب القراطين الاول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي واذا رسمنا خطأ متجهاً نحو الشرق من مسجد سام بن نوح الى نقطة تقع تماماً على امتداد الموقع الذي قررناه آنفاً لباب القراطين الاول فمن المحتمل ان نكون قريبين جداً من سور القاهرة ومن المهم ان يلاحظ ان هذا الخط يمكن رسمه بين نهايات عدد من الشوارع والازقة المغلقة التي تقع على جانبيه كما رأينا عند ما رسمنا خطأ متجهاً الى الغرب من المسجد نفسه . ولا يخترقه الا شارع واحد متعرج هو شارع حيضان الموصل الذي يقع فيه مسجد الامير سودون القصري

﴿ باب القنطرة ﴾ بعد ان مضى امان على تأسيس القاهرة اضاف جوهر باباً آخر هو باب القنطرة ^(٢) الذي سمي باسم القنطرة او الجسر الذي أقامه فوق الخليج ليوصل المدينة بميناء المقس حين تقدم القرامطة في شوال ٣٦٠ هـ (يوليو - اغسطس ٩٧١ م)

ونضيف نحن ان جسراً يدعى القنطرة الجديدة كان يوجد هنا حتى ردم الخليج في نهاية القرن

(١) المقرئ جزء ٢ ص ٢١٣

(٢) المقرئ ص ٢١٣ جزء ثان

التاسع عشر . وقد جمع كازانوفاً ما ورد بالمقريري عن هذا الباب . واني اذكره هنا مع تغيير يسير في الترتيب حتى يكون اقرب الى الوضوح والتسلسل المنطقي

١ — « ان خط باب القنطرة كان يعرف باسم المرتاحية والفرحية » وهذا الحي الأخير تبعاً للمقريري هو نفسه سوق أمير الجيوش

٢ — « ويوصل سوق أمير الجيوش الى باب القنطرة » ويخبرنا ابو المحاسن ان اسم أمير الجيوش قد غير الى مرجوش فنستنتج من ذلك ان باب القنطرة كان يقع في النقطة التي يقطع فيها هذا الشارع الخليج . ولا يزال يطلق على هذا الشارع الاسم الاخير أي مرجوش

٣ — « والى جانب باب الفتوح يقع طريق يوصل لحارة بهاء الدين وباب القنطرة » وهذا الحي تبعاً للمقريري يقع بين باب الفتوح القديم وباب الفتوح الجديد أي بين السورين القديم والجديد . وفي الحقيقة يسير شارع بين السورين متجهاً الى الغرب من الركن الجنوبي الغربي لمسجد الحاكم حيث وضعنا باب الفتوح الأول

وأهم من ذلك انه يميل بزاوية قائمة عند طرفه الغربي ليلتقي بسوق مرجوش عند نفس النقطة التي قررنا انها كانت موضع باب القنطرة . وفي نفس هذا الموضع في الجانب الشمالي من نقطة اتصال الشارع بالخليج وجد باريكولو اثناء عمليات الحفر التي باشرها منذ اثني عشر عاماً قاعدة البرج الشمالي للباب مع واجهة نصف دائرية شبيهة بالاراج التي تقع الى جانب باب الفتوح وباب زويلة ويرى في القسم الخلفي من البرج الجزء الاسفل من سلم حلزوني والى الشمال منه وعلى بعد كبير من سطح الارض الحالي يوجد الجزء الاسفل من حائط حجري يسير شمالاً موازياً لشارع الخليج المصري او بمعنى آخر موازياً للخليج القديم

باب حديدي منقول من الفسطاط * لحظ ريتمر انه كما كان العرب مغرمين عند انشائهم مدناً جديدة في العراق بنقل ابواب المدن القديمة الى المدينة الجديدة فكذلك فعل جوهر حين انشأ القاهرة اذ نقل اليها باباً حديدياً من قصر الامارة بالفسطاط . ولكننا لا نعلم بالضبط اين وضع هذا الباب . ومن المحتمل ان جوهر كان يقصد بذلك ان ينافس المهديّة التي كان لها كما روى البكري بيان من الحديد . وربما كان اشهر الامثلة لوضع ابواب حديدية للمدن هو ما يأتي : —

استولى الخليفة المعتصم على عامورية سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) بعد حصار دام ٥٥ يوماً سويت بعده المدينة بالارض ثم اخذ باب المدينة الى سر من رأى وبعد ان هجرت سر من رأى اخذ الباب الى الرقة . وفي سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ارسله سيف الدولة الى القرامطة ليسد حاجتهم الى الحديد . ثم نسمع بعد ذلك ثانياً انه استخدم في حلب . استخدمه الملك الناصر يوسف ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) عند ما اعاد اصلاح باب قنسرين . وعند ما اخذ المغول حلب ١٢٥٨ كان هذا الباب اول ما

نهبوه . ولكن استردّه منهم ببيرس عند ما اخذ المدينة . ثم مزق الصفائح الحديدية التي كانت بواجهته وأرسلها هي والمسامير الكبيرة المستخرجة منه الى القاهرة

﴿ الخندق ﴾ رأينا فيما سبق ان موقع القاهرة قد اختير لغرض سريع هو تغطية الاماكن القريبة من المدينة الثلاثية الفسطاط والعسكر والقطائع وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يغرون وينهبون ويحربون السهل ويهددون الفسطاط

فتنفيداً لهذه الخطة الدفاعية امر جوهر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة اذرع كان يتجه غرباً من المقطم الى منية الاصباغ . وقد بدى فيه في شعبان ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١م) وتم حفره سريعاً وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة عقب ذلك بقليل احدهما في ربيع الاول ٣٦١ هـ (دسمبر ٩٧١) والثانية في ٣٦٣ هـ (٩٧٤م) وقد استطاع القرامطة ان يعبروا الخندق في الغارة الثانية ولكنهم لم يستطيعوا ان يستولوا على القاهرة

﴿ الطوب المستعمل في بناء الاسوار والابواب ﴾ ليس لدينا مع — الاسف الشديد — تفاصيل معمارية عن الاسوار والابواب التي بناها جوهر الا ما رواه المقرئزي مما سبق ذكره من ان اللبن الذي بنى منه ذلك الجزء من السور الذي كان قريباً من باب البرقية كان مقاسه ذراعاً × ٣ ذراعاً وقد كان استعمال الطوب الكبير الحجم من خصائص العمارة قديماً في فارس وبلاد النهرين ويقول أشر ان الطوب المبني منه السور القديم لمدينة نينوى كان متوسط مقاسه ١٥ بوصة وسمكه ٥ بوصات . كما شاهد بالقرب من اصفهان بقايا سور معبد قديم من معابد النار كان مبنيّاً بطوب كبير الحجم ايضاً

ورأى Ferrier طوباً محروقاً في القهائن مقاسه ٢٠ بوصة × ١٥ بوصة في خرائب بلخ . بل وجد أحياناً قوالب من الطوب طولها تقريباً ثلاثة اقدام وسمكها اربع بوصات مبعثرة في قلعة فرح في سستان وذكر ايضاً طوباً تبلغ الواحدة منه ياردة مربعة في رود بار وپولسكار على نهر هلمند وذكر الكولونيل ث . ا . بيت انه شاهد طوباً كبير الحجم مستوي السطح مساحته قدم مربع وسمكه بوصتان او ثلاث بوصات في اكوام وخرائب بسستان بين مرجان وجلال آباد على نهر هامون وكذلك في جسر متخرب ذي عقدتين يسمى تختيل بالقرب من بلجي

وشاهد ايضاً في جومش تبي (او التل الفضي) — وهو تل يقع على شواطئ بحر قزوين يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً تقريباً ومملوء بقوالب الطوب المهشمة — بعض هذه القوالب ومتوسط حجمها ١٤ بوصة مربعة × ٣ ١/٢ بوصة

وذكر الكولونيل ايضاً اربعة جسور هي پل خاتون وماروشاك وتربل وپل خشتي (عند التقاء

نهر الكوش بنهر مرغاب) مبنية جميعها بالطوب المستوي المحروق الكبير الحجم الذي مساحة الواحدة منه قدم مربع

وذكر أيوان سميث طوباً محروفاً مساحته ١١ بوصة مربعة بقلعة الفتح في سستان كما تكلم عن خزان في ناد علي مبني بالطوب الكبير الحجم . وتقول Lady Shiel ان معاقل فيرامين التي تبلغ مساحتها نصف ميل مربع ومحصنة بأبراج على مسافات قصيرة قد بنيت بلبن كبير الحجم . ومع أنه لا يوجد أي شك في قدم هذه الامثلة فإنه لا يمكن تحديد تاريخها بالدقة . ولكنها مع ذلك تدلنا على ان استعمال الطوب الكبير في البناء كان واسع الانتشار

ولنذكر الآن بعض الامثلة المعروفة المتوارخ . فقد بنى السور الداخلي لمدينة المدائن بفارس (طيشفون) على اساس مكون من مداميك من ثلاث طبقات من الطوب المحروق المطبوع عليه اسم بختنصر (٦٠٤-٥٦١ ق. م.) المأخوذ من خرائب بابل . وكان مقاس هذا الطوب ٣١ الى ٣٣ سم مربع ويتراوح سمكه من ٦ الى ٧ ١/٢ سم

اما طوب السور الخارجي وبقية السور الداخلي فيبلغ حوالي ٣٦ سم مربع وسمكه ١٣ سم . كذلك الطوب الذي استعمل في بناء ايوان كسرى بالمدائن الذي اثبت العلامة هرتسفلد أنه من عمل شابور الاول (٢٤١-٢٧٢ م) فان مقاسه ٣٠-٣٢ سم مربع وسمكه ٨-٩ سم وفي تل مسامي التي تبعد عن المدائن بمسافة يقطعها الراكب في ساعتين وجد الكومندر جون لبناً مساحة الواحدة منه ١٤ بوصة مربعة ونوعاً آخر كبير الحجم من المحروق في القمائن . وبالقرب من دستجرد وجد هرتسفلد سور مدينة مبنياً بطوب مساحته ٤٢ سم وسمكه ١٢ ١/٢ سم . كما ان اسوار مدينة بغداد المستديرة التي اسسها المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) قد بنيت بالطوب المجفف في الشمس وبعضه مربع طول كل ضلع من اضلاعه ذراع وزنته مائتا رطل . وبعضه طوله ذراع وعرضه نصف ذراع وقد بنى السور المحيط بمسجد الرقة سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) بلبن مساحته ٤٣ سم مربع وسمكه ١١ سم

اما احدث الامثلة المعروفة لنا فتوجد بشرجاز في ميل نادري في مئذنة يرجع عهدها الى القرن الحادي عشر او الثاني عشر مبنية بالطوب المحروق الذي تبلغ مساحته ١٤ × ١٢ × ٢ بوصة

لذلك يمكننا ان نقرر اعتماداً على الحقيقة المعمارية الوحيدة المعروفة لنا عن سور جوهر - وهي حجم الطوب - ان هذا السور مظهر من مظاهر تأثر فن البناء في مصر بالفن الفارسي حيث ان الطوب الذي كان يستعمل بمصر الى ذلك العهد كان معتدل الحجم

مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها

لمحمد مظهر سعيد

استاذ علم النفس في معهد التربية وكلية اصول الدين

تناولت هذا الموضوع الهام في عدة مقالات بينت فيها كيف صارت لغة هذا العلم خليطاً غريباً من كل صنف . من فلسفي قديم ينوء تحت عظمة مجده وتاريخه القديم . الى دخيل من علوم اخرى لم ترد عاريته . الى حديث موضوع لم يحف مداده بعد . وعرضت نماذج متعددة لكلمات تخيرتها من الوف مصطلحات هذا العلم في اللغة الانجليزية تظهر بأجلى وضوح مبلغ اختلاف اللغات الاجنبية — بل اللغة الواحدة — والمدارس السيكولوجية في تحديد مدلولها ، ومبلغ تضارب العلماء المصريين من رجال التعليم الذين درسوا علم النفس دراسة منظمة ودرّسوه للطلاب ورجال الادب الذين لم يدرسوه دراسة تعمق وتخصص ، في نقلها الى العربية . او اقتصار الواحد منهم على لفظ او مدلول واحد يستعمله في جميع مؤلفاته وكتابه . كل هذا لاستطرد الى النقطة الجوهرية التي دفعتني الى خوض هذا المضمار . وهي صعوبة نقل هذه المصطلحات الى العربية ومبلغ العناء الذي سيجده المجمع اللغوي في تأدية هذه المهمة اذا حاول ان يقوم بها وحده على مكانة اعضائه من اللغة وتملكهم لناصرتها . ذلك لأن الكثير من هذه المصطلحات يصعب تحديد معناه بكلمة عربية واحدة . ويشق نقله على المترجم الذي يعتمد الاعتماد كله على قواميس اللغة ومعاجمها وألفاظها المثبتة فيها ، من غير ان يدرس جميع فروع علم النفس دراسة محكمة مستفيضة تتناول جميع ادواره ونظرياته ومدارسه المختلفة وآراء علمائه واحداً واحداً . واذا كان هذا في الكلمات العادية المألوفة التي يستخدمها المدرسون والطلاب كل يوم والنوع الواحد من علم النفس الذي يدرّس في مدارسنا وهو علم النفس التعليمي ، فكيف يكون الحال في الكلمات البعيدة كل البعد عن القراء العاديين او التي تتناول فروعاً اخرى في علم النفس لم تصل الى علمهم بعد ولم تدخل في ميدان تأليفهم واطلاعهم . وهي داخلية لا محالة اذا اردنا ان نهض بهذا العلم ونحله المكانة اللائقة به بين العلوم كما فعل الغرب ؟

وما بالك بالكلمات الجديدة التي يضعها العلماء لتبيان ظاهرة خاصة درسوها ولم تصل بعد الى علم سائر المشتغلين بالعلم ، ولم تثبت في قواميس اللغات ككلمة Abience التي وضعها Holt للدلالة

على النزعة لتجنب زيادة التهييج العصبي او كل ما يهيج الجهاز العصبي الى اكثر من طاقته الطبيعية .
وعكسها كلمة Adience للدلالة على النزعة او الاستعداد لاستبقاء الحالة المهيجة
والكلمات التي لا تقيد ترجمتها الحرفية شيئاً من معناها على الاطلاق لانها حددت تحديداً خاصاً
في لغة مدرسة من المدارس السيكلوجية . فعبارة Absolute Factor التي تدل في لغة مدرسة
Gestalt تعلم الحيوان اختيار احد شيئين مميزة يمتاز بها عن الآخر ، لا تقيد اي معنى اذا ترجمت
حرفياً (العامل المطلق) ولذلك زى ان تترجم (حامل التعلم المطلق) . ومثلها عبارة Problem
Achievement الدالة على الطرق التي يتسنى بها للانسان ان يقوم بكل عملية أولى من نوعها . ويجب
ان تترجم (مشكلة العملية الاولى) لان الترجمة الحرفية قاصرة . والصفات التي تلحق بالمصطلحات
فتحدد معناها تحديداً خاصاً تحتاج الى شيء من التفسير فالفعل العادي Habitual Action يختلف
عن الفعل الآلي Mechanical Action في ان الاول يقول به الانسان من غير ضرورة بحكم تعوده القيام
به في احواله المناسبة كتدوير زنبرك الساعة كلما أخرجت من الجيب . والثاني يقوم به الانسان بطريقة
آلية من دون تفكير او شعور كامل به لتعوده او اتقانه كربط الحذاء مع ان الكثير من الناس لا يفرقون
بين الصفتين — عادي وآلي . وهذان بدورهما لهما معنى آخر غير معنى mechanistic و automatic
والكلمات الاخرى التي اذا ترجمت حرفياً لم تجعل المعنى غامضاً كالسابقة فحسب وانما هي قد
نضال القارئ . فنحن نطلق على الصورة الذهنية التي تحدث في العقل على اثر تأثره بمؤثر ما مدة
طويلة after-image فاذا كانت مطابقة للاصل تماماً Positive او Homochromatic (من نفس اللون)
اذا كانت لوناً . واذا كانت عكس الاصل تماماً negative وفي حالة الالوان تسمى مكملة Complementary
فاللون الاخضر مثلاً يعطي بعد زواله صورة حمراء . ولا معنى لترجمتهما بالصورة الموجبة او السالبة
اذ لا محل للحالة الايجابية او السلبية والأفضل ان ترجمهما بالصورة المتخلفة المطابقة او العكسية او المكملة

وكذلك اسماء الأجهزة والآلات التي تستطيع اللغات الافرنجية ان تضع لها كلمة واحدة ولها
في الأصول اليونانية واللاتينية خير معين فالجهاز Algesimeter هو آلة قياس مقدار الألم اللسي
الناتج من ضغط الجلد بشيء مدبب . ولا نستطيع ان نختصر الترجمة فنقول مقياس الألم لان
هناك جهازاً آخر كالسابق يقيس النهاية القصوى للألم اسمه Algometer والأفضل ان نسميهما
باسميهما الافرنجيين الجيزمتر والجويمتر . والكلمات التي لا يمكننا ترجمتها حرفياً كعبارة All-or-none
التي تطلق على طائفة من الاحساسات الغشومة المختلطة غير المحدودة وهي تسمية يرتاح اليها العالم
الفسولوجي السير هنري هيداك اكثر من كلمة propathic وخير ترجمة لها الاحساسات الغشومة

والكلمات القديمة المعروفة التي اختلفت المدارس الفلسفية والسيكولوجية في تحديد معناها. مثل كلمة Apperception فقد استخدمتها مدرسة هربارت الالمانية للدلالة على تمثيل العقل للمعلومات وضمه لها. والمدرسة الانجليزية التجريبية Empirical ومن اقطابها ستاوت وجيمس وسلي ودارو اعتبرتها مجرد اعطاء الآثار الحسية او المواقف الجديدة معنى محدوداً مستمدّاً من التجارب القديمة او من كتلة المدركات القديمة وزادت مدرسة هوفدغ وفنط الالمانية على هذا اندماج المواقف الجديدة بعد تحديد معناها بكتلة الآثار القديمة المماثلة لها حتى تصير جزءاً منهما . ولكن الرأي الحديث يعتبر تحديد المعنى ادراكاً حسيّاً . اما هذه العملية فهي تثبيت الموقف في الذهن بعد تحديد معناه عن طريق اندماجه فيما يماثله في المدركات القديمة ولذلك ترجعها (تثبيت المدركات الحسية)

ولعلّ القارئ المنصف بعد هذا البيان يغفر لنا ما سيجده من نقص في معجمنا لمصطلحات علم النفس الذي اضعه انا والسيدة حرمة لنؤدي شيئاً من الواجب نحو اللغة التي نقدها والعلم الذي وقفنا حياتنا عليه . أما مجلة « المقتطف » الغراء فلا تستطيع أن أفياها هي وصديقي العزيز الاستاذ فؤاد صروف حقهما من الشكر . جعلهما الله منارة للعلم . ولهما من العلماء كل تقدير واعجاب

السهم والاغنية

للشاعر الاميركي لونغفلو

اطلقت سهماً الى الفضاء فهو على الارض حيث لا ادري

انطلق السهم بسرعة فعجز البصر عن تتبعه في خلال انطلاقه

وارسلت اغنية في الهواء فوقعت على الارض حيث لا ادري

اذ من يملك بصرأ حاداً يستطيع ان يتتبع امواج الاغنية

وبعد انقضاء زمن طويل ، وجدت السهم سليماً في شجرة من البلوط

والاغنية من اولها الى آخرها ، وجدتُها ثانية في قلب صديق

العوامل المعنوية

ووحدة الامم

للكاتب عبد الرحمن شهبندر

الفن والوطنية لا ادل على ان الوطنية شعور داخلي وفيض معنوي من التفاعل القائم بين الفن وحب الوطن ، فكم من وطنية خاملة ايقظتها عبقرية الشاعر وقومية ذابلة انعشتها ألحان المغنين ، وكم من فن ميت احيت ان انتصارات في الحروب وادب صامت انطقته اعمال الابطال المجدين ، والفن من الاصل ميزة وطنية خاصة تتفرد بها الامة بل هو عصارته والافراز الداخلي من غددها الصُّم الذي يوقظ انتباهها الى نفسها وشعورها بحوزتها ، في حين تكون العلوم والمعارف ووفقاً على جميع الشعوب ، فنرى العامل الميكانيكي في الحجاز مثلاً يتلذذ بدرس السيارة وتفكيكها والاطلاع على سرها كما يتلذذ العامل في سويسرا ولكنه لا يرى لذة في شعر السويسريين كما يراها ابناءؤها . ذلك لان الفن نتيجة انفعالات الامة مما اصابها من الاختبارات الخاصة بها على ظهر سفينة الحياة ، فاذا كان البحر هادئاً كان الفن سهلاً سلس القياد والاً كان هائجاً مضطرباً تتخلله الانقلابات والثورات ، فلا عجب والحالة هذه ان يكون كبار اهل الفن من كبار الوطنيين وذلك للمهمة الروحية التي يقومون بها من الافصاح عن الهواجس التي تجول في افئدة الامة التي ينتمون اليها . قال الاستاذ (بايندر) وتوقف عظمة اهل الفن على طاقاتهم ان يقدموا للمجتمع موضوعات طفحت بانفعالاتها انفسهم وان بشرحوها للقوم من وجهة نظرة الشريك المساهم لا من وجهة نظر المشاهد المحايد ، يعني اذا اراد الفنان والاديب ان يفصحوا عن مواهبها خير الافصاح فعليهما ان يفتخبا الموضوعات المعاصرة جهد الطاقة ، وهذا هو سر الفن جميعاً ، وعليهما ان يعرضاها من الوجهة الوطنية لان روح الامة تتطلب الافصاح والتجلي بطريقتها الخاصة واسلوبها الممتاز

وحدث لنا اننا لما كنا في الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٤ دعينا الى حفلة اقامتها بعثة هندوكية في احد مسارح نيويورك وفيها شنف مسامعنا اعضاءها بمنشخبات روحية من اغاني (الفيدا) الشعرية الجيدة مع رقص مقدس غاية في الاحكام كانت تتوسل به الراقصة الى الآلهة الهندوكيين ، وكان الى جانبي عين من اعيان الاميركيين الحريصين على العرب وهضتهم فقال لي اذا كان عندكم فن من الفنون الجميلة فهاتوه الى هنا لانه يكون خير دعاية تبثونها لقضيتكم ولاظهار العري المعنوية التي تربط افراد امتكم بعضهم ببعض وتدلون الاجانب بواسطته على ما في بلادكم من النخيرة الروحية الادبية . فاذا كان هذا فعل الفن في ايقاظ اعجاب الاجنبي بنا فما أحوجنا اليه في ايقاظ اعجابنا بأنفسنا — بوطننا وبحدودنا وبأوضاعنا وتاريخنا

ولما كانت الوطنية في الاصل كما قلنا شعوراً داخلياً متأصلاً في اعماق النفس فهي تحتاج الى الفنان ليفصح عنها ويبرزها بصورتها الفتانة وثوبها القشيب ، وهنا يتجلى فضل اللغة على النهضة الوطنية لانها هي المادة التي يستعين بها الفنانون من أهل الادب . وقد قال أهل التبعية من علماء فلسفة التاريخ ان الامة التي ليس لها شعراء وملحنون وكتّاب متأجبون وغيرهم من أهل الفن تموت سراعاً ما لم تحصل على ما يعادلهم بطرق اخرى

ونكون قد اغفلنا مسألة جوهرية في بحثنا هذا اذا نحن لم نشر هنا الى بعض المتحجرين منا ممن جعلوا ديدنهم محاربة الفن ، وقد يتلمس لهم المرء بعض العذر عند ما كانت ستائر الجهل مسدولة على النهضة الحديثة في ديار الغرب والادوار الخطيرة التي مثلها الفن فيها ، ولكن ما عذرهم اليوم والامم تجمعهم شبكة وثيقة من ثقافة لا يتعذر على أحد ان يحيط بمجملاتها . ثم ان هذه الحياة ثقيلة على الرجل الحساس مع كل هذه الفنون الخلابية ، فليت شعري ماذا يكون الحال لو نجح هؤلاء المتحجرون فجردونا منها ؟ ألا يصبح المجتمع حينئذٍ شبيهاً بحلقة درس عقيم او مجلس نواب جامد غلب على اعضائه النعاس ؟

✽ المجد والوطنية ✽ تزداد الامة تصلباً وتماسكاً بقدر ما كان لها من مجد غابر تمت اليه بأنسابها ، فالابطال المتقدمون من افرادها ممن دوخوا الممالك ومصروا الامصار ووطئوا بسنابك الخيل عروش الملوك هم النواة التي تجتمع حولها مشاعر الافراد وتتعاون بواسطتها عقولهم وتخضع لها ارادتهم . وكذلك شأن من كان لها من العلماء المبرزين والمخترعين المتفوقين والفنانين العبقريين وسائر الرجال من افرادها ممن تركوا وراءهم في المجتمع المادي والعقلي والروحي دويماً وأثاروا عاصفة من الدهشة والاعجاب ، وقد كان للخلفاء الراشدين في هذا المضمار ولمن اختاروا من اهل القيادة والزعامة من الاثر في تكوين العرب خاصة والمسلمين عامة ما لا يتطلع الدهر الى محوه . وكذلك الحال في تلك الشموس التي أنارت حندس الليل في القرون الوسطى بعلمها وأدبها وفنها من أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وابن رشد وابن تيمية الى ابن خلدون ، وبما نوره من الامثلة الحديثة في العالم العربي على شأن الرجل العظيم في تكوين الأمم ان الملك فيصل أفاد الجامعة العربية ليس في حياته فقط بل بعد مماته ايضاً . فلما تم التي اقيمت له في طول البلدان العربية وعرضها وعمدت فيها مناقبه والمثل الاعلى الذي وضعه نصب عينيه أثارت موجة من الانتباه الى القرابة بينها لم يشهد التاريخ مثلاً منذ دهور ولا مرأ ان الحضارة العربية التي اسبطرت واخضر عودها في الشام والاندلس ومصر والعراق والفتوحات التي طوقت اوربا من جانبيها الشرقي والغربي ما فتئت موضوع شعرائنا وكتّابنا ورواد الاصلاح فينا منذ دب فينا وعينا القومي . ذلك لأن تذكير الامم بمجدها الغابر بصور معقولة هو اشبه شيء بتوجيه نظر الفرد الى عظمة آباءه وجدوده يولد الأنفة واحترام النفس والابتعاد عن الذل والمسكنة

﴿الام والوطنية﴾ رأينا البلدان المغلوبة على امرها والخاضعة للعصالح الاجنبية والمصوصة بمراشف الاستعمار تشعّر بالكثير من الاشتراك في العواطف التي تغلي في صدور ابنائها . فاذا كان وراء هذا العامل السليبي القائم على الكراهية والنفرة من المستعمرين الطفيليين عوامل اخرى ايجابية من العوامل الوطنية التي عرضنا لها ازداد تأثيره فكان من اكبر الدواعي الى توحيد الجبهة ، لا جرم اننا رأينا المحنة التي تعانيها فلسطين من وعد بلفور الجائر مثلاً تحدث في الأقطار العربية الأخرى استياء يبلغ حد المشاركة ، وكذلك الحال في الظهير البربري الذي اعلنته فرنسا في المغرب الأقصى لفصل البربر عن اخوانهم العرب ، وقد امتلأت الصحف السيارة بالاحتجاجات على المستعمرين من أجله وعقدت الاجتماعات في شتى البلدان لاطهار الصخب والسخط مما دلّنا على شدة التماسك بين أبناء العربية . ومما لحظه علماء الاجتماع ان الافراح المشتركة هي مثل الدواعي المؤدية الى الشعور بالمجد تسبغ على الوطنية حلة من الزهو والابهة في حين تلقي عليها الآلام المبرحة ستاراً حالكاً من نكد وغم وتنفث فيها ما دطاه الاستاذ (بايندر) شعوراً تصوفياً من حيرة وامرار ، ويصاب أهل الآلام بمرض الاكثار من التشكي قد يبلغ حدّ (الهستريا) في المرأة العصبية مع اقلال من العمل يجعل صاحبه في حكم المقعد ، ولحظنا في بعض الأحيان افراطاً عظيماً جدّاً في التشدق بالعظمة المدفونة تحت الثرى والتمدح بالماضي والافاضة في ذكر محامد الجدود حتى ضاق صدرنا كما يضيق صدر كل احد بالفقر الحافي الذي يجعل ديدنه في الحياة التغي بما كان «للمرحوم» جده من الاحذية ! وليس من مصلحة الامة في شيء ان نجعل المثل الاعلى للنشء الحديث الرضى بالانتساب الى العطاء فقط اننا نمجد الآباء والجدود ونبني على محامدهم الصحيحة وطنيتنا الناهضة ولكننا لن نعبدهم ، ويكون فارغاً من كان خالياً من جميع المزايا الا ما يدعيه من كرم المحتد

ولعلّ الموسيقى العربية وما فيها من أنات وآهات وبكاء واحزان ورجيع وحنين هي المدرّة المعبر عن الالم المتأصل في شعوب العالم العربي ، وقد ينحط هذا التوجع في بعض المغنين حتى يصير تخفناً ويفقد جميع اسباب الرجولة ، ولم يصب فننا الموسيقي بمصيبة أكبر من تلك البدعة المبتذلة الثقيلة المعنونة الباردة التي يكررها المغني في كل محفل وهي «ياليلي» فليت شعري متى يزول الظلام عن الافق فيلمع الشرق بنور الفجر ليصبح المغني «يانهاري» ؟ والالم نافع ما بقي حافظاً للعمل منبهاً لعزة النفس ولكنه متى صار اداة للتسول والاستجداء والاستعطاف وعلامة على القنوط فهو حشرة الصدر ساعة الموت . وقد بقيت الموسيقى التركية الى السنين الاخيرة على هذا النمط ولكن الانقلاب السياسي الخطير الذي تناول تركيا من بعد الحرب اخذ يحدث اّراً ظاهراً في ألحانها فلا يمضي زمن طويل حتى تتخللها اصوات شديدة تردّد اصوات قعقة السلاح في صقاريه وكوك صو ويتلأأ منها في صدور سامعيها لمعان ينعكس عن وميض سيوف الغازي وقنابله المتفجرة وقد عاب الاستاذ (بايندر) على اهل البلدان الضعيفة المرهقة استعماهم التورية والتمويه في كلامهم

وتجنّبهم الصراحة حتى في أبسط الامور فلو انك سألت الواحد منهم عن صحة زوجه او عن عمله او عن الحدث السياسي المنتظر اجابك جواباً مطلقاً من كل قيد وربما اصحبه باشارة ذات معنى او بهز الكتف . وبدهي ان مثل هذا الموقف يحمل الظالم على حسابان المظلوم بليداً او غداراً في حين يتهم المظلومون اسياهم بكل انواع الجناية ويميلون كما قال (نيتشه) الى التخلق باخلاق العبيد لحماية انفسهم وللاحتفاظ بالبقية الباقية من حرمتهم القومية ^(١)

وقد لحظنا شيئاً آخر في بعض بلدان العالم العربي غير ما اشار اليه الاستاذ (بايندر) وهو ما يدعو الى الاشتزاز كثيراً ويستحق أصحابه الاستنكار الشديد لانه يطبع في نفس الاوربي فكرة سيئة عن المستغلين بالقضايا العامة ، فقد اعتاد بعض ابناء البلاد انهم اذا ظهروا على المسرح امام الجمهور ابدوا من التطرف في الوطنية الشيء الكثير فهم لا يفاوضون مثلاً — اذا كان هنالك حديث مفاوضة — الا اذا التى الاجنبي بقضه وقضيضه في البحر ، ولكنهم متى خلوا بهذا الاجنبي نفسه اظهروا من اللين « والكياسة » ما كانوا يعدونه على المسرح خيانة عظيمة في الآخرين ، فالخروف الذي رفضوه في الوليمة أمام المدعويين الآخرين بحجة قلة الغذاء والدسم قبلوا في الخلوة محله كسرة من الخبز ، ومثل هذا الموقف المداجي المخزي يدعو المحتل الى تجنب الامة والطمع في الافراد يقوم بمساومتهم للحصول على ما يعتقد انه متعذر مع الشعب

الوطنية تعصب للوطن * نحن نعتز هنا بمنتهى الصراحة ان التربية الامة الحرة وما يلزمها من نظرة سمحة عامة وعقيدة تعاونية مشتركة هي تربية لا تتفق والتعصب على انواعه في شيء — سواء في ذلك التعصب الديني والتعصب الجنسي والتعصب الوطني — ولو كانت الامم سمحة لا يفكر بعضها في استثمار بعض وتسخير لغاياته الحقيرة لفقدت الوطنية ركناً من اعظم الاركان التي تعتمد عليها وهو ركن التعصب . وطالما قلنا ان التعصب الديني في القرون الوسطى كان السور الوحيد الذي يحمي دمار الجماعات لان الرابطة الدينية كانت اساس ارتكازهم ومبنى حوزتهم وقد حل محلها في القرون الحاضرة عند معظم الامم الراقية التعصب الوطني لان الوطنية اصبحت اساس هذا الارتكاز، فالوطنية بهذا المعنى اذن دين من الاديان . وقد تصدر من بعض كبار الوطنيين المتصفين بالعلم والنباهة والاخلاق اقوال وأعمال لتمجيد الوطن تكاد تكون في نظر العالم الحكيم السمع هزءاً وسخرية ولا تقل سخافة عن بعض الذين جعلوا دينهم في الحياة وصناعتهم في كسب المعاش الطعن المنكر في الاديان جميعها الا الدين الذي وجدوا عليه آباءهم عرضاً ، فمن ذلك ما كان يزعمه قادة السياسة البريطانية من ان الله ارسل انكلترا رحمة للعالمين ، وكان الامبراطور غليوم يزعم انه مرسل من الله على رأس الامة الجرمانية لقيادة العالم ، وما حاربت امة امة اخرى الا اعلنت على رؤوس الاشهاد يوم شهر الحرب ان الله انحاز الى جانبها ، ومن اعجب المظاهر الوطنية السخيفة ان

كتب الفرنسيين في تاريخ العلم والادب والسياسة تنسب كل اختراع او ابتكار او اكتشاف الى رجل من الفرنسيين حتى لو ان فرنسيًا استبدل بتفاحة (نيوتن) رمانة مثلاً ما خجلوا ان ينسبوا اليه ناموس الجاذبية محتجين بأن الرمانة غير التفاحة! وفي احد الكتب الجرمانية المنتشرة في الايدي كثيراً عبارة مضحكة عن ميزة اللغة الالمانية وفضلها على غيرها ذكرها الاستاذ (بايندر) وهي « ان الفرنسي يقبع في كلامه كما يقبع الخنزير والانكليزي ينخر من انفه نخرًا ولكن الجرمانى هو الوحيد الذي يتكلم » وسئل احد المبشرين وهو يستعرض المعجزات والخوارق الواردة في الكتاب المقدس وما لها من الشأن في تأييد دينه عن كرامات الاولياء في الاسلام فقال هذه من عمل الشيطان وأما تلك فن عمل الرحمن!

لقد رجعت الى نفسي وحللت عقيدتي في التعصب فوجدتها تنحو هذا النحو من الاستهجان وهذا ما يجب ان يتصف به كل من كانت له نزعة علمية مجردة عن الهوى ، بيد انني ويا للأسف مرغم على القول بمنتهى الصراحة ان التعصب الوطني قد يكون العلاج الوحيد الذي ينقذ امتنا من براثن عبدة المادة من المستعمرين المستنزفين ، وانني اصف هذا الدواء على مضض مني كما يصفه كل طبيب غيري يرى مثل هذا الخطر المهلك محدقاً بالمريض الذي يداويه . لا جرم ان الامم المغلوبة على امرها تبالغ في شأن لغتها وعاداتها وتعاليمها وعقائدها وأدبها وفنها وعلمها وجمال بلادها مبالغة تتجاوز المعقول في بعض الاحيان كما ذكرنا سابقاً وتنقب عن المستعمرين بعين محبرة فتذكر عيوبهم ومساوئهم وتكره ابناءها بهم وبالروائح المنبعثة من اوضاعهم لان دواء الافاعي في نظرها جمل الرجفة من منظر هذه الافاعي والخوف من انيابها غريزة طبيعية

وكانت كلمتا مؤمن وكافر في عصر التعصب الديني سبب رعشة عند الامم لما يحدث مدلولهما في الاذهان من النفرة المستنكرة ، وسترغم الدول الاوربية المستعمرة اهل البلدان المقهورة على جعل كلمة افرنجي في نظرهم سبب رعشة ايضاً لانها تمثل في اذهانهم تلك المغارم والمظالم التي شهدناها بام العين فلا يحق لاحد ان يجادلهم او يجادلنا بها . والبغض المتوارث يزداد شدة باستمرار الدواعي التي احداثته وينتهي بالانفجار الخطير عند حدوث الشرارة الاولى

القناعة الاقليمية خطر على الارتقاء! لقد أيدنا في هذه المقالات « الجامعة العربية » تأييداً كلياً وابتعدنا عن السياسة الاقليمية او الموضوعية ابتعاداً كبيراً لسبب اجتماعي يعد في المقام الاول وذلك لما عرف عند علماء الاجتماع من ان الارتقاء يسير سيراً حثيثاً متى كان للأفراد المتحدين وجهات نظر يختلف بعضها عن بعض وميزات خاصة متباينة في حد ذاتها ولكنها لم تبلغ في تباينها هذا حد النفرة او ما يدعو الى التفتت بل هي مشدودة برباط الوطنية الوثيق ، فاذا ما طلبنا تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض فلانني ابدأ اننا نريد طبع افرادها على غرار واحد بل نريد ان يترك للفرد فيها مجال تظهر فيه ميزاته الخاصة ضمن الوحدة العقلية الاجتماعية الشاملة،

والفرد الواحد لا يخرج عن دائرة الجمود التي يأسن فيها ولا يشعر بالخوافز التي تبعثه على الحركة والعمل إلا بالاحتكاك بغيره ممن اختلفت مزاياهم وبرزت خصائصهم ، فلو قدر له ان يعيش دائماً بجانب من هم على شاكلته بحيث يطابقهم ويطابقونه حفراً وتنزيلاً لم يتغير ولم يتغيروا ، وهذا التباين الفردي هو سر الجلاء الذي يكتسبه اهل السياحات ممن يختلطون بالامم الاخرى ويمارزونها ، والميزات الفردية الخاصة التي تطبع صاحبها بطابعها الممتاز لا تفسر الا في الامم الكبيرة ، فقد رأينا اهل القرية الصغيرة اكثر تشابهاً واتساقاً فيما بينهم من اهل المدينة الكبيرة لذلك كانوا اقرب الى الجمود والسير في الحياة على نمط واحد حقاً من الزمن

وهذا ما حمل كبار الوطنيين في الامم العظيمة الناشئة على محاربة السياسة الاقليمية وما تؤدي اليه من اقتصار على البقاع الموضعية ، ويكون من الضربة الاجتماعية قاصمة الظهر ان يقتصر زعماء البلدان العربية كل منهم على خدمة القطر المحلي الخاص الذي يعيش فيه ويغفل شأن الخصائص الموجودة في الاقطار الاخرى ، ولقد اصاب الاستاذ (بايندر) الحز حين قال « ليس للامم الصغيرة او المظلومة حرمة مقدسة وسياستها سياسة وضعية غالباً تكاد تكون على نسبة مساحة ارضها بالضبط والعطايا التي تتحف بها الانسانية هي مادة لتسليية الامم الاخرى غالباً » ^(١) وقد حمل كرهه لمثل هذه الامم الصغيرة على التمسك بأهداب مذهب النشوء وتنازع البقاء وبقاء الانسب فلا رحمة في قلبه لمن ليس في طاقته ان يخلع بقوة ذراعه نير الاستعباد ، والضعيف محكوم عليه بالخضوع والتسخير سواء كان انساناً ام حيواناً ، لاجرم انه يأبى ان يعيد المساعدة للمقعد الذي لم تنبت له اطراف يقوم عليها ، فليتذكر متسولو الاستقلال وشحاذو الحرية هذا الكلام اللاذع وهذه العبرة البالغة . ثم ان هذا التباين المعقول في الميزات الفردية لا يأتي بالثمرة المطلوبة من التقدم والارتقاء بحيث تتولد من الاحتكاك بين الافراد المتباينين شرارة النهضة الا اذا كان هنالك تربية وطنية تتحلل من اسامها بالتسامح الداخلي وسعة الصدر وبعد النظر بحيث تستطيع مع الزمن تعرّف الصالح والطالح من خصائص ابناء العشيرة ^(٢) الارادة العامة والوطنية وقد تجتمع عوامل التجانس التي ذكرناها جميعاً المادية منها والمعنوية ولكن الجماعة المزدانة بها لا تؤلف الوحدة المنشودة ، وذلك لفقد عامل اجتماعي خطير عليه المعول في توحيد الافراد وهذا العامل هو تنظيم هؤلاء الافراد في داخل الجماعة تنظيمًا يجعل لهم رأياً عامّاً وارادة شاملة مركزة عليه ، فكل شعب مهما بلغت فيه عوامل التجانس من الظهور لا يحسب وحدة ما لم يفكر تفكيراً واحداً ويحزم جزماً واحداً ويرد ارادة واحدة — ولا عبرة بالشذوذ الذين خرجوا على الجماعة وانشقوا عن الدولة . ويجرنا هذا الكلام الى البحث في الزعامة وضرورة افراد باب لها لأن هذا التنظيم المعنوي الذي جعلناه اس الوحدة هو عمل الزعماء والسرا الذي تبني شخصيتهم عليه ، فحيث لا توجد زعامة صحيحة لا يوجد رأي عام خبير ولا ارادة عامة صادقة

(1) Major Social Problems, p. 216.

سبل الانتعاش الاقتصادى

في بريطانيا

بمحت في تاريخ السنوات الثلاث الاخيرة

الانتعاش الاقتصادى الذي اصابته بريطانيا في السنوات الثلاث الاخيرة ، مثل بليغ على ما رز الزعامة الحكيمة في عصر تكاد تكون آيته الاضطراب والافخاق . اذ قلما يزور لندن زائر في هذه الايام من دون ان يحس بانها مدينة لا تجثم على صدرها اشباح القلق والخوف من المستقبل . فلندن اكثر العواصم رخاء في العالم اليوم ، يستطيع الاحصائي ان يثبت ذلك بالارقام تتناول الثروة العامة واتساع نطاق العمل ومقدار ما يستهلك من العروض . ولكن الزائر الاجنبي لا يحتاج الى برهان ، ذلك انه يحس عند وصوله الى لندن بطمأنينة لا يحس بها في العواصم الأخرى . فانه اذا قدمها من برلين شعر بفرج يطلق لسانه في تناول المشكلات العامة بكلام هادئ صريح . واذا جاءها من باريس نسي حوادث الشعب وانباء الارتكاب وشبح الاضطراب محو ما على مجلس النواب . اما اذا أتاها من ناحية الولايات المتحدة الاميركية فانه يرى فيها أمة ستمها الطمأنينة والثقة بالنفس

الا أن لندن ليست نموذجاً لسائر المدن والمقاطعات البريطانية ، ففي شمال بريطانيا وويلز مناطق اكتسحها الفقر وغلب عليها القنوط . ولكن بريطانيا بوجه عام اصاب انتعاشاً ملموساً ، أعاد ألوفاً من العمال الى العمل ونثر عن جرة الثقة رماد الاستكانة واليأس

من الاقوال الشائعة ان البريطانيين ادركوا هذا الانتعاش بتركهم القوى الطبيعية تفعل فعلها . ونحن لا ندري ولا المنجم يدري مدى ما كانت تصيبه بريطانيا من الانتعاش لو أنها حقيقة تركت القوى الطبيعية تفعل فعلها اي لو أنها امتنعت عن انشاء الحكومة القومية ، والخروج عن قاعدة الذهب ، وإحاطة أسواقها بمحواجز جمركية ، وخفض دخل الممولين ثلاثين في المائة بعملية تحويل القروض ، وتشجيع الزراعة بتنظيمها وامدادها بالاعانات المالية

ان تاريخ الشعب البريطانى من سنة ١٩٣١ الى الآن شبيه بتاريخ رجل فرد من بعض الوجوه . فالرجل يحكم في شؤونه المختلفة احكاماً متباينة فيكون بعض احكامه غاية في الحكمة ويكون البعض الآخر اعتباطاً فتوآتية الاقدار فيدرك به الامل المنشود كله او بعضه . كذلك القرارات التي اتخذتها الحكومة البريطانية في خلال هذه السنوات الثلاث . فقد كان بعضها بالغاً منتهى الحكمة والحصافة ، وكان البعض الآخر مما آتته الاحوال فاصاب الهدف . بل ان واحداً منها على الاقل كان اشبه بحال الفقير البائس أتى على آخر فلسٍ عنده ، ثم اصاب في ارضه كنزاً ثميناً

فلنبداً بالحادث الذي مهد له الحظ سبيل النجاح . وليس الحظ عاملاً يصح أن نغفلهُ في درس التاريخ الاقتصادي . فالكشف عن منجم ذهب ، يؤثر في مصير بلاد او مقاطعة بأسرها . ولكن الكشف عن المنجم امر لا يمكن القطع فيه ، وخاصة في بلاد لم يعد فيها الذهب من قبل . فيكون كشفه حينئذٍ مرهوناً بالحظ الى حد بعيد

فإذا حدث في بريطانيا ؟ كانت الحكومة القومية قد انشئت للدفاع عن قاعدة الذهب . وكان المستر مكدونالد قد اثار مخاوف البريطانيين بحديثه عن ملايين الماركات تدفع لقاء طابع بريد واحد ، في عهد التضخم المالي في المانيا . وكان الحائل الوحيد بين بريطانيا والتضخم ، مبلغ ما في خزائن بنك انكلترا من الذهب ، وتوازن الميزانية البريطانية . اما احتياطي الذهب في خزائن البنك فكان قد رهن لقاء القروض التي عقدت في باريس ونيويورك لسد مطالب الدين طلبوا سحب اموالهم من انكلترا وكان ميعاد توفية هذه القروض قد اوشك . وكانت البلاد لا تملك زيادة في صادرها على واردها لشترى بها فرنكات او دولارات لتوفية ما عليها . ولم يكن للخزينة البريطانية اموال في الخارج ولا سبيل لها الى الحصول عليها الا باللجوء الى ما يملكه الافراد الانكليز من الاموال في البلدان الاجنبية . نعم كانت الحكومة البريطانية قد عمدت الى مثل هذا العمل في خلال الحرب ، اذ كانت النزعة الوطنية تبعث على البذل . ولكن اعادة الآن وسير الحوادث ينذر بالخراب المالي ، متعذر او مستحيل . فاذا بعثت انكلترا بما تملكه من الذهب لتوفية هذا الدين ، فقدت لندن مكانتها المالية العالية . وإذا عجز البنك عن توفية قروضه حقر بين البنوك

ما العمل ؟ لا مكدونالد يدري ، ولا وزير مالىته يدري ، ولا رجال وزارة المالية يدرون

ما كادت بريطانيا تخرج عن قاعدة الذهب حتى اتجه اليها جدول من الذهب ، من نبع غير منتظر . ثم ما لبث هذا الجدول ان تحول الى نهر كبير ، فصب في لندن في خلال سنتين نحو سبعين مليوناً من الجنيهات . وكذلك استطاع بنك انكلترا ان يوفي دينه لباريس ولا ميركا ، قبل ميعاد الاستحقاق ، فأخذت بريطانيا تستعيد مكانتها المالية ، التي هزها الخروج عن قاعدة الذهب ، وتطلع الناس الى البريطانيين يعجبون بمقدرتهم المالية

على ان هذا الذهب لم يستخرج من منجم جديد ، بل من مخبأ عظيم هو بلاد الهند . ذلك ان عشرات من السنين كانت قد انقضت على شعب يُربي على ٣٠٠ مليون نفس ، وهو يخزن الذهب . فكان يصوغ بعض الذهب أساور وحلياً للنساء ، ويحفظ بعضه سبائك او نقوداً مسكوكة

فلما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب ، لم يفقد الجنيه الاسترليني من قدرته على الشراء لا في بريطانيا ولا في الهند . اي ان قيمة الذهب زادت من حيث قدرته على الشراء . واصبح خازن الذهب يستطيع ان يخرج ذهبه ويبيعه فيجني من بيعه ربحاً غير يسير . وكان الهنود يحتاجون الى

المال ، فأخرجوا نقودهم وسبائكهم وصهروا الاساور والحلي ، وبعثوا بها جميعاً الى لندن وادركت الخزينة البريطانية في الحال قيمة هذا الاتجاه . فأنشأت « حساب التسوية والمبادلة » لتجهز الحكومة بالمال اللازم لشراء الذهب في الهند وافريقية الجنوبية . نعم كان لهذا الحساب غرض آخر هو منع سعر الجنيه الاسترليني من الهبوط كثيراً او الارتفاع كثيراً ، ولكن غرضه الاساسي كان شراء الذهب ، وقد حقق الغرض على أوفى وجه ، لان المخزون من الذهب في انكلترا بلغ من نحو سنة أعلى ما بلغه في التاريخ . فذهب الهند أنقذ بريطانيا من موقفها العصيب ولكن الهند ما كانت تستطيع ذلك لولا حدوث حدث آخر ما كان في مكنة أحد ان يتنبأ بحدوثه . ذلك أنه لما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب لم يدر أحد ، هل ترتفع أسعار العروض بالنقد الورق او تهبط أسعار العروض بالذهب . فالتجارب السابقة في فرنسا والمانيا وايطاليا كانت تشير الى هبوط أسعار النقد الورق اي الى ارتفاع أسعار العروض بعد الخروج عن قاعدة الذهب ، وهذا يفضي الى زيادة المطبوع من ورق النقد فالى التضخم النقدي . والراجح ان مكندونل كان يرى هذا والآن لما انشأت الحكومة القومية جاعلاً هدفها الاول الدفاع عن قاعدة الذهب ، ولما بثت الخوف في طول البلاد وعرضها من تضخم شبيه بتضخم النقد في المانيا سنة ١٩٢٣

الا ان الحوادث اتت على غير ما كان يتوقع . ذلك أنه لما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب هبطت أسعار العروض بالذهب ، ولم ترتفع أسعارها بالنقد الورق . وجرت بلدان اخرى مجرى بريطانيا في التخلص عن الذهب كأساس للنقد واتخذت الجنيه الاسترليني اساساً لنقدها ، فاصبح الجنيه في اسواق العالم المالية اقوى من ان تسيطر عليه قوة الذهب . والانكايير يحملون لك هذه الحالة في قلوبهم ، انهم لم يخرجوا عن قاعدة الذهب ، ولكن الذهب خرج عن قاعدة الجنيه الاسترليني وكذلك احتفظ الجنيه بقدرته الشرائية ، وفي الوقت نفسه خفض أسعار البضائع البريطانية بالقياس الى نقد الامم الباقية على قاعدة الذهب ، فنشطت تجارة الاصدار البريطانية . وهذا كله كان من بواعث اقبال الهند على اخراج ذهبها المخبوء ، وابدال جنيهات استرلينية به لجني الربح من الفرق فاستعادت لندن مقامها المالي بين عواصم العالم

قلنا ان « الحكومة القومية » الاولى انشئت في بريطانيا لانقاذ قاعدة الذهب . فلما اضطرت الحكومة ان تخرج عن قاعدة الذهب ، كانت نزعة التعاون القومي وتأييد الوزارة القومية ، قد استساغها الشعب البريطاني ، فاستطاعت الحكومة ان تتقدم الى البلاد في انتخاب عام احرزت فيه كثرة ساحقة . فكان لذلك اثر عظيم في الانتعاش الاقتصادي ، لان الثقة بالوزارة القومية مكنت الشعب البريطاني من اجتياز تلك الايام العصبية في اواخر سنة ١٩٣١ التي تلت الخروج عن قاعدة الذهب وما عقبه من القلق لما يكنه المستقبل في ثناياه . فلما فازت الحكومة القومية بتأييد البلاد

في الانتخاب العام، مكنتها جمع أعنة السلطة في يدها من اتخاذ الخطط التي رأتها كفيلة باجتناح الانهيار بل واعادة الرخاء

كان الشعب البريطاني ينفق حينئذ أكثر مما ينبغي . فكان يبتاع في الخارج أكثر مما يبيع . وهذا الخلل في ميزانه التجاري مضافاً الى العجز في ميزانية الحكومة ، كان سبب الازمة التي اخذت الامة البريطانية بخناقها في اواخر سنة ١٩٣١ ، لانهما افضيا الى سحب الاموال المودعة في لندن ، وقرار الحكومة ان تخرج عن قاعدة الذهب . فكان الغرض الاول الذي يجب ان تتجه اليه الحكومة اعادة التوازن الى الميزان التجاري والميزانية معاً

لم تر الحكومة صعوبة ما في موازنة الميزانية . بل ان حكومة العمال السابقة كانت مستعدة لموازنتها وكانت تستطيع ذلك لولا إحجام بعض اعضائها عن الموافقة على نقص الاعانات التي تمنح للمتعطلين عن العمل . فلما جاءت الحكومة القومية ، ضربت بفأس التوفير ، مرتبات رجال الحكومة — فنقصت مرتبات الموظفين والمعلمين ورجال البوليس وغيرهم — اسوة بمنح العمال المتعطلين

ولم يكن في عملها هذا اي خروج على مبدأ مقرر . غير ان اعادة الموازنة الى الميزان التجاري احتاجت الى التوصل بوسيلة غير مألوفة عند الانكليز — نعي انشاء حاجز جمركي عام . ولكن مسألة الحاجز الجمركي ، لم تُسَر في الانتخاب العام صراحة ليبيدي الجمهور رأيه فيها . والراجح انه لو اثبت لكان في وسع المعارضين ان يقنعوا الجماهير البريطانية بأن اقامة هذا الحاجز يعني ارتفاع اسعار الاغذية ، وخسرت الحكومة القومية الانتخاب

لذلك عمدت الحكومة القومية الى عبارة كان لها اكبر اثر في فوزها ، اذ طلبت من الشعب البريطاني ان يمنحها وصاية تامة كما يمنح المريض طبيبه وصاية مطلقة في علاجه . وليس في هذا التشبيه اي نشوز . لان العجز في الميزان التجاري كان مرضاً يحتاج الى افعال اسباب العلاج ولو لم يكن بعضها مألوفاً . فلما فازت الحكومة في الانتخاب طلبت الى مجلس النواب الموافقة على اقامة الحاجز ففعل . فهذا تدخل صريح من جانب الحكومة البريطانية في فعل القوى الطبيعية . بل ان جل علماء الاقتصاد في بريطانيا ، كانوا يذهبون الى انه من الاثم اقفال الاسواق الصغيرة في وجه الامم الصناعية . فاقفال اكبر الاسواق العالمية — اي سوق بريطانيا — كان اثماً كبيراً بحسب زعمهم . ولكن الحكومة البريطانية اقدمت على اقفاله من دون ان تحس بأنها اجترحت اثماً ولا هي اعتذرت عن ذلك البلدان التي كانت تعيش في الغالب من بيع منتجاتها في بريطانيا

ولا ريب في ان جانباً من انتعاش بريطانيا الاقتصادي ، يعود الفضل فيه الى الحواجز الجمركية لانها فتحت السوق البريطانية نفسها لاصحاب المصانع البريطانية بعد ان كان اصحاب المصانع الاجنبية يزاحمونهم فيها . ولكن هذه الفائدة التي جنتها بريطانيا لم تكن خالصة . لان نقص مقدرة الامم التي تعامل بريطانيا على الشراء ، اسفر عن نقص في صادرات بريطانيا . الا ان تجارة الصادرات البريطانية

كانت تمتاز في ذلك العهد بنقص في اسعار العروض لخروج الجنيه عن قاعدة الذهب . يضاف الى ذلك ان العالم حينئذ بدأ يلمس تحسناً في التجارة العالمية ، فكانت النتيجة التي اسفرت عنها هذه العوامل — اي زيادة تصريف البضائع البريطانية في بريطانيا نفسها ، ورخص المصنوعات البريطانية لخروج النقد الانكليزي عن قاعدة الذهب والتحسّن الملموس في التجارة العالمية — ان زاد الطلب على مصانع بريطانيا ، فازداد الطلب على العمال وقلّ التعمّل . ولعلّ ابلغ مثل على هذا الانتعاش صناعة الحديد والصلب التي ضعفت حتى كادت تتلاشى ، لشدة المنافسة التي اصابتها من الصناعات التي تقابلها على البرّ الاوربي ، فأصبحت بعد التحوّل الجديد تنتج تسعين في المائة مما تستطيع انتاجه

على ان الحواجز الجمركية ليست حافزاً كافياً للانتعاش الاقتصادي . بل ان الحواجز لا تجدي كثيراً الا في بلاد مستعدة ان تتخلى عن صادراتها بقدر ما تتخلى عن واردتها . ولا ريب في ان خروج بلدان كثيرة عن قاعدة الذهب سلب البضائع البريطانية بعض الميزة التي كانت تمتاز بها في سنة ١٩٣٢ . بيد ان الرأي السائد في بريطانيا الآن هو ان الحواجز افادت واذن فيجب الاحتفاظ بها . على ان ذلك لا يكفي . ولا بدّ لبريطانيا من ان تعنى باعادة تنظيم صناعاتها ملائمة للنقص في صادراتها . فبريطانيا في الغالب ، تباع ٣٠ في المائة من مصنوعاتا في الخارج ، ولكن الزيادة في ما تستهلكه السوق البريطانية بعد احاطتها بالحواجز الجمركية ، لا يقرب من هذا ولا من نصفه . فالانتعاش الى درجة الرخاء ، عن طريق الحواجز غير مرجّح ان لم يكن متعذراً . وقد ترى بريطانيا قبل انقضاء زمن قصير ، ان هذا الحاجز سوف يصبح سلسلة من الابواب ، كل باب منها يمثل معاهدة تبادل تجاري مع البلدان التي بهم بريطانيا ان تعاملها

وعلى كل حال لا نستطيع ان نعمل الا جانباً من انتعاش بريطانيا الاقتصادي بالحواجز الجمركية . وأما الجانب الآخر فيمكن تعليقه بتلك العملية المالية العظيمة التي تعرف باسم « تحويل قروض الحرب » من قروض فائدتها ٥ في المائة الى قروض فائدتها ٣ ١/٢ في المائة فوفر على الخزينة دفع فائدة قدرها ١ ١/٢ في المائة على مبالغ كبيرة من المال كل سنة . وقد كان لهذا التحويل اثر اجتماعي كبير ، الا ان نجاحه كان يقتضي ان ترضى طبقة المستثمرين البريطانيين — وهي غنية وذات حول — بخفض دخلها من الاموال التي تثمرها في هذه القروض ثلاثين في المائة

كان مقدار دين الحرب الذي فائدته ٥ في المائة ، التي مليون جنيه . فكان على الحكومة اذا شاءت ان تنجح في عملية التحويل ان تدبر تدبيراً يمكنها من اقناع اصحاب السندات ، بأن مصالحهم تحتم عليهم قبول التحويل . وهذا في ظاهره كان متعذراً ، اذ كيف تستطيع ان تقنع الناس ، بأن يقبلوا مختارين نقصاً في دخلهم يبلغ ثلاثين في المائة ؟ ولكن وزير المالية البريطانية المستر نفيل

تشمير لين ابداع كل الابداع في معالجة الامر . وقد آتته الاحوال الاقتصادية العامة في ما فعل ذلك ان الصناعة كانت راكدة حينئذ ، وتشمير الاموال في الخراج لا يغري ، بل ان الحكومة البريطانية كانت تمنى الناس عنه . وكان المال يتجمع في الخزائن وليس ثمة سبيل لتشميره او استغلاله . فقال وزير المالية في ذات نفسه ، ان عملية التحويل تصيب النجاح المرغوب ، اذا بدا لأصحاب الاموال ، ان سبل التشمير في البلاد ضيقة او غير ميسرة ، وان السندات الوحيدة المأمونة التي يمكن تشمير المال بشرائها هي سندات الحكومة البريطانية ، ولو كانت فائدتها يسيرة

ونظرت الحكومة البريطانية الى الحالة الاقتصادية العامة في بريطانيا ، فرأتها يسودها القتامة ، فعمدت اولاً الى موازنة ميزانيتها واستعادة مكانتها المالية كمقترض في سوق المال . ثم عمدت الى منع اصدار سندات جديدة الا اذا عرضت عليها اولاً وفالت قبولها . ثم حظرت بيع السندات الاجنبية في السوق البريطانية . ولما كانت واثقة من ان حال الصناعة لا تغري بتشمير الاموال فيها ، لبثت قليلاً تنتظر وهي واثقة من ارتفاع اسعار سندات الحكومة . فارتفعت اسعارها لشدة الاقبال عليها . ومضت في الارتفاع حتى اصبحت نسبة الفائدة الاصلية الى ثمنها الجديد لا تزيد على $\frac{3}{4}$ في المائة

هنا تقدمت الحكومة البريطانية واعلنت مشروع التحويل ، وقالت انها في تاريخ معين تقبل ان تسدد لأصحاب السندات سعرها الأصلي نقداً — كان سعرها في السوق حينئذ أعلى من السعر الاصلي — او ان تعطيهم سندات جديدة بفائدة $\frac{3}{4}$ في المائة بدلاً من $\frac{5}{8}$ في المائة . ورغبة في اغراء الناس بالتحويل . وعدت ان تدفع للممولين مبلغاً نسبياً معيناً ، لا يكفي ليعوضهم مما يخسرونه بنقص الفائدة ، ولكنه يغري على كل حال . وارفقت الحكومة نداءها المتقدم باستفزاز الشعور الوطني . ولكن الوطنية لم تكن العامل الفعال في الاقبال على التحويل . لان اصحاب السندات قالوا اذا نحن لم نقبل التحويل واستوفينا ثمن سنداتنا نقداً فماذا نفعل بالنقد ولا سبيل امامنا لتشميره فكانت النتيجة ان تسعة أعشار أصحاب السندات اقبلوا على التحويل ، والعشر الباقي استوفى ثمن سنداتهم بسعرها الاصلي فكان المبلغ الذي استوفوه مائتي مليون جنيه . وكانت عملية التحويل هذه باعتراف كبار المالبين اكبر عملية مالية في التاريخ . وما لاريب فيه ان احوال الصناعة والاقتصاد حينئذ ساعدت وزير المالية في تحقيق غرضه . ولكن ذلك لا ينتقص من البراعة التي عالج بها الموضوع . فالستر سنودن وزير مالية العمال ، كان يرغب قبل ذلك كل الرغبة في تحويل قروض الحرب ، ولكنه لو حاول لباء بالخسران ، لأن الاحوال لم تكن مؤاتية له حينئذ

بقي علينا ان نبين اثر هذا التحويل في انتعاش بريطانيا الاقتصادية . وهذا الاثر يبدو في ناحيتين الاولى ان النقص في عبء الدين العام افضى الى نقص يسير في ضريبة الدخل . اما الناحية الثانية وهي اهم من الاولى فارتفعت اسعار السندات المأمونة بمجاعة لسندات الحكومة . فارتفعت كذلك قيمة السندات المحفوظة في خزائن الشركات الصناعية البريطانية . وكانت نتيجة هذا انتعاش الصناعات . ذلك ان اسعار السندات

كانت قد هبطت عند حدوث الازمة فاضطر أصحاب الصناعات ان يحولوا جانباً من ربحهم في الصناعة لتوفية خسارتهم في ما كانوا يمجنونونه من السندات. فلما تمت عملية التحويل، وجد أصحاب الصناعات ان قيمة سنداتهم قد زادت، فتمكنوا من تجديد مصانعهم او توزيع ارباح على مساهمهم. وهذا افضى بدوره الى زيادة الطلب على الآلات من صناعاتها من ناحية، والى زيادة المال المتداول الناتج من توزيع الارباح على المساهمين، من ناحية اخرى

وقد يتعذر على الباحث ان يعين نصيب الحواجز وعملية التحويل والتحسّن الاقتصادي العام في انتعاش بريطانيا. ولكن يرجح ان نصف انتعاش بريطانيا الاقتصادي يعود الفضل فيه الى عملية التحويل في قروض الحرب، وهو النصف الاكبر، لانه ينطوي على بزور الانتعاش الصحيح، حالة ان التحسّن الناشئ عن الحواجز الجمركية، محدود في اثره ومداه

اما انتعاش الزراعة البريطانية فلم يكن عاملاً أساسياً في الانتعاش العام، مع ان مقدرة الزراع الشرائية قد زادت زيادة لا بأس بها. وانما يهمننا ان نشير اليه لانه مرتبط بشخصية رجل يقولون ان الدهر يعد له مكان الصدر في سياسة البلاد لغني المستر ولتر اليوت وزير الزراعة. فهو رجل يميل الى التنظيم في شؤون الحياة القومية زراعية وصناعية وغرضه ان يجعل الجزائر البريطانية من الناحية الزراعية قادرة على كفاية نفسها بنفسها. ولتحقيق هذا الغرض نظم الزراع البريطانيون حتى يتمكنوا من منافسة زراع البلدان الاخرى التي تباع منتجاتها في السوق البريطانية. ولا يخفى ان يفضي عمله هذا الى ارتفاع اسعار الاغذية. فاذا قال له دعاة التجارة الحرة ان تجارة الصادرات البريطانية تضعف اذا نقص ما تبيعه البلدان الزراعية في بريطانيا، رد عليهم ان صناعة الصادرات البريطانية تستطيع ان تباع الفلاحين البريطانيين متى بدأ هؤلاء يمجنون ربحاً من زراعتهم. وقد انشأ المستر اليوت نظماً تعاونية للحاصلات الزراعية الرئيسية خاصة بتنظيم الانتاج والبيع وتعيين الاسعار. وما على جماعات الفلاحين الا ان يأتوا اليه جماعة جماعة ويعربوا عن رغبتهم في وضع نظام خاص لكل جماعة منهم فيضع لهم مشروعاً ثم يعرضه على البرلمان ويفوز في الغالب باقراره. فالمستر اليوت اشبه ما يكون الآن بدكتاتور سوق الاطعمة في بريطانيا، فانه اذا وجد مثلاً ان ما تصدره الدنمارك الى بريطانيا من لحم الخنزير ينافس ما ينتجه الانكليز انفسهم منافسة قوية يصدر انداراً الى الدنماركيين بوجوب نقص ما يصدرونه والا طبق عليهم نظام الحصص، فيفضي هذا في الغالب الى اتفاق ودي قائم على اساس من التبادل. وله في بريطانيا معجبون كثيرون يرون فيه رئيساً للوزارة البريطانية في المستقبل. اما مقاوموه فجعلوا مقاومتهم له تستند الى انه يعوق القوى الطبيعية عن ان تفعل فعلها. ولكن البريطانيين بوجه عام يدركون الآن انه اذا زكت القوى الطبيعية تفعل فعلها قضت على الزراعة في بريطانيا قضاءً مبرماً

فرنسا والاصلاح الدستوري

بحث تاريخي دستوري

في اكتوبر سنة ١٩٣٢ كتب المسيو غاستون دومرج مقدمة لكتاب اصدره الشيخ موريس وردينير عنوانه « المساوي الدستورية ومشكلة التنقيح ». قال فيها : — ان فرنسا تتوق الى السلم الداخلي توقها الى السلم الخارجي ، ورغبتها الشديدة هي ان تجد وسيلة تمكنها من تحقيق السلمين معاً . ان نتيجة من هذا القبيل لا يمكن الحصول عليها من دون تعديل شرائعنا الدستورية ، لانها هزمت كما تهزم كل الاشياء ، ويجب ان تعدل حتى تتلاءم مع الاحوال الجديدة السائدة في حياتنا العامة » وقد يبدو للباحث ان اقل تعديل في الدستور الفرنسي ، يجعل النظام البرلماني ، اعلى مكانة وأصلح حالاً مما هو الآن . وموطن الضعف في النظام البرلماني الفرنسي ، انما هو في منح سلطة عظيمة لمجلس النواب . فرئيس الجمهورية ، هو من الناحية النظرية ، رئيس السلطة التنفيذية ولكنه في الواقع ليس الا صورة . ورئيس الوزارة هو رئيس السلطة التنفيذية الفعلي . ثم انه واعداء وزارته مسؤولون امام مجلس النواب ، وفي السنوات الاخيرة اصبحوا مسؤولين امام مجلس الشيوخ كذلك ومجلس النواب الفرنسي ، مؤلف من احزاب كثيرة ، قيل انها سبعة عشر حزباً في المجلس الحالي وقد تزيد . والفرق بين الحزب الواحد ، والحزب الذي الى يمينه او الى يساره ، قد لا يكون إلا سيراً ، ولذلك يقتضي انشاء الحكومات الفرنسية ، انشاء كتل مؤلفة من طوائف من الاحزاب ، لها كثرة في المجلس . فاذا عرضت مسألة يختلف فيها رأي الاحزاب المؤيدة للحكومة ، استرد بعضاً تأييده للحكومة فتسقط الوزارة ، فيعهد الى من يستطيع انشاء كتلة اخرى مؤلفة من الاحزاب ، في تأليف الوزارة التالية . وهذا محتمل إلى حد ما . ولكن اذا عجز مجلس النواب عن ايجاد اكثرية مستقرة بعض الاستقرار تستند اليها الوزارات المتعاقبة ، تضطرب الحالة اي اضطراب ، وتعجز الحكومات عن تصريف شؤون الامة . وهذا ما حدث في مجلس النواب الفرنسي الذي انتخب سنة ١٩٢٤ ، وفي مجلس النواب الذي انتخب سنة ١٩٣٢ وفي الحاليين ، كانت الاكثرية لاحزاب الميسرة — الاشتراكيين ، والراдикаليين الاشتراكيين — وفي الحاليين كذلك انشأ هذان الحزبان ائتلاقاً دعي « كتلة اليسار » Cartel des Gauches في خلال الحرب الانتخابية ، فاستطاعا معاً ان يفوزا بأكثرية المقاعد في المجلس . فلما اجتمع المجلس المنتخب فُضَّ الائتلاف ، لان الاشتراكيين يرفضون الاشتراك في حكومة اذا لم يكونوا وحدهم يستطيعون ان يؤلفوها من دون ان يستندوا الى تأييد حزب آخر . ولكنهم مع رفضهم كانوا يؤيدون الحكومات التي يؤلفها زعماء حزب الراديكاليين الاشتراكيين على شروط خاصة لكي يظلوا احراراً في استرداد تأييدهم متى شاءوا وكانت حكومات الراديكاليين الاشتراكيين تستند الى احزاب الوسط او ما يلها من احزاب اليمينة ، اذ تفقد تأييد الاشتراكيين لها وكذلك كانت حكومات الراديكاليين الاشتراكيين — ومن

زعماهم هريو ودالاديه — في مجلس ١٩٢٤ و ١٩٣٢ رهنا باهواء من يؤيدها من الاحزاب ، ومن هنا منشأ التقلقل والاضطراب ، وسقوط الوزارات وقيامها ، بين عشية وضحاها
اما الاصلاح الدستوري الرئيسي الذي يراه المسيو دومرج وعلى صخرته تحطمت سفينة وزارته القومية هو ان يمنح رئيس الوزارة حق حل مجلس النواب بعد موافقة رئيس الجمهورية . فالدستور الفرنسي الذي وضع سنة ١٨٧٥ يمنح رئيس الجمهورية الحق في حل مجلس النواب ولكنه يحتاج في حله الى موافقة مجلس الشيوخ . وقد كان الغالب ان مجلس الشيوخ يرفض ان يمنح هذه الموافقة ذلك ان هناك منافسة بين مجلسي الشيوخ والنواب في فرنسا ، واتجاهها المجلسين متعارضان دائماً فاذا اتجه مجلس النواب ، الى اليسار والتطرف ، اتجه مجلس الشيوخ قليلاً الى اليمين والاعتدال او المحافظة . والعكس بالعكس . اي اذا اتجه مجلس النواب الى اليمين والمحافظة اتجه مجلس الشيوخ قليلاً الى اليسار والتطرف . خذ مثلاً على ذلك مجلس النواب الذي انتخب سنة ١٩٣٢ ، فقد كان أكثر تطرفاً من المجلس الذي سبقه ، لذلك اتجه مجلس الشيوخ ، أكثر مما كان قبلاً ، الى المحافظة . ولو أن أحد رؤساء الوزارات الراديكالية الاشتراكية طلب في خلال السنتين الماضيتين ، حل مجلس النواب الفرنسي ، لكان فعل ذلك وهو واثق او متأمل على الاقل ، ان تزداد أكثريته في المجلس . وهو غرض لا يتفق وزعة مجلس الشيوخ المحافظة ، ولذلك كان يرجح في هذه الحال ان يرفض مجلس الشيوخ التسليم بالحل ، لانه طبعاً لا يرضى ان يحجى مجلس جديد تكون فيه قوى احزاب اليسار ، اعظم مما هي ومن هنا ترى ، ان مجلس النواب الفرنسي ، لم يحل قبل ميعاد حله الطبيعي إلا مرة واحدة ، في خلال تاريخ الجمهورية الفرنسية الثالثة

فاذا قابلنا هذه الحالة بما يماثلها في بريطانيا ، وجدنا ، ان لرئيس الوزارة البريطانية ، ان يطلب الى ملك البلاد حل مجلس النواب والمليك قلما يرفض ذلك الطلب . فاذا أحسست وزارة من الوزارات البريطانية ، أنها أخذت تفقد أكثريتها التي تستند اليها في المجلس ، أو اذا اختلفت مع المجلس على خطة أساسية من خططها او تشريع مهم ، يرمي الى اصلاح معين تقيم له الوزارة شأنًا كبيراً ، — لان المجلس لا يدري حقيقة ما يطلبه الرأي العام في صدد هذا التشريع — طلب رئيس الوزارة حل المجلس واجراء انتخاب عام ، على أساس المسألة المختلف فيها . فاذا كان الرأي العام مؤيداً للتشريع المقترح من قبل الحكومة ، أقبل على انتخاب مرشحها في الانتخاب العام وكذلك يعود حزب الوزارة الى المجلس وهو اقوى مما كان ويعاد تأليف الوزارة فتستطيع ان تقر التشريع المطلوب . كذلك فعل بلديون سنة ١٩٢٤ فقد كان له أكثرية في مجلس النواب ولكنه اراد ان يدخل الحماية الجركية ولكن المجلس الذي انتخب نبيل ذلك وكان لبلديون أكثرية فيه لم يكن قد انتخب على أساس الحماية الجركية لذلك رأى بلديون انه لا بد من استفتاء الشعب ، فطلب حل المجلس الى الملك ، فحل واجري انتخاب بريطاني عام ، على أساس « الحماية الجركية » فخذل أنصارها اي بلديون واتباعه والنشئت حكومة العمال الاولى برئاسة

المستر مكدونالد . وعلى الضد من ذلك تجري الانتخابات الفرنسية العامة في مواعيد معينة ، اى عند ما تنتهي مدة مجلس النواب اى مرة كل اربع سنوات وقد يحدث — وهو الغالب — ان لا يكون على الناهيين ان يبدوا آراءهم في مسألة خطيرة بعينها وقت الانتخاب فيتسع المجال للمشعوذين السياسيين ووعودهم الخلابه . هذا فيما يتعلق بالاصلاح الدستوري الاساسي ، الذي يطلبه المسيو دومرج ثم هناك نظام الاستجواب في مجلس النواب الفرنسي . فان النواب يمدون فيه لاغراض خاصة في الغالب ، فيستجوبون الوزير المختص او رئيس الوزراء في اقل مسألة ادارية ، ورئيس الوزراء مسئول عن وزارته بوجه الاجمال ، وقد يقضي الجدل العنيف في مسألة لا شأن لها على الاطلاق ، الى سقوط الوزارة وحدوث اضطراب في الدوائر السياسية ، مع ان تلك المسألة قد لا يكون لها اى اثر في سياسة الوزارة بوجه عام . ومع ان البلاد تكون راضية عن الوزارة وخطتها بل ، ان نظام الاستجواب هذا ، غير المقيد بقيد ما ، يصرف النظر عن العناية بشؤون التشريع الخطيرة ، وينفي في الغالب الى الترشق بالتهم والمؤاخذات الشخصية . ولما كان نظام الاحزاب في مجلس النواب الفرنسي ، مضطرباً كالزئبق وبهم الوزارة ان تحتفظ بالاكثرية التي تؤيدها ، افضى نظام الاستجواب ، الى قسر الوزارة على العناية ، بموضوعات الاستجوابات المختلفة — واكثرها تافه — وكذلك تراهم ينصرفون مرغمين عن العناية بما هو اهم منها من الاعمال الادارية الخاصة بهم ثم هنالك نواح اخرى . فبعضهم يفكر مثلاً في نقص عدد النواب والشيوخ ولا يخفى ان عدد النواب في المجلس الفرنسي ٦١٥ وعدد الشيوخ ٣٠٠ شيخ . يضاف الى ذلك التفكير في منح السلطة القضائية الحق في الفصل في شرعية القوانين التي تسن وهو النظام الذي تسير عليه الولايات المتحدة الاميركية . وقد قرأنا اخيراً ، انه ثبت من تحقيق فضيحة ستافسكي ، ان طائفة كبيرة من النواب تنظم انتظاماً صورياً في شركات مختلفة ، بقصد ان تستفيد الشركات من نفوذهم ومقامهم ، وان هذا العمل افضى الى ضروب من الفساد والارتكاب ولذلك . يفكر البعض في اقتراح تعديل او سن قانون دستوري ، من شأنه ان يحول دون امثال هذه الفضائح التي تضعف من مقام الحكم الديمقراطي في نفس الشعب الفرنسي . وطريقة ادخال تعديل على الدستور الفرنسي ، هو ان يعرض التعديل على مجلسي النواب والشيوخ ، كل على حدة ، فيقترع كل مجلس على التعديل كأنه مشروع قانون عادي . فاذا وافق المجلسان — كل على حدة — على التعديل ، اجتمعا في هيئة مؤتمر ، واقترا عليه مجتمعين ، والاكثرية المطلقة تكفي لادخال التعديل على الدستور حينئذ

لما ألف المسيو دومرج وزارته القومية في فبراير كان احد اغراضه تعديل الدستور الفرنسي تعديلاً يتفق ورأيه المتقدم . ولكن وزراء الحزب الراديكالي الاشتراكي رفضوا تأييده في هذا الصدد خوفاً من ان تفضي الزيادة في سلطة رئيس الوزراء الى تحكم دكتاتوري من جانب رئيس وزراء ليس في خلق دومرج الديمقراطي . فسقطت وزارته في اوائل نوفمبر وتألفت الوزارة الحالية برئاسة المسيو فلانندان

الوالد : من
من ضمانات
الفتاة : ال
ندمت هذه على
الوالد : وا
الفتاة : ف
العلاقات كالحب
الوالد : الأ
مادية او روحية
والمصلحة بعد
الفتاة : مع
الوالد : هل
الفتاة : مر
الوالد : فلو
الفتاة : وا
الوالد : ه
١ : الطالب
ليتمك
٢ : الوالد
٣ : كذلك
الفتاة : وه
الوالد : الد
الفتاة : او
الوالد : لا

ضامات الحب

وهي محاوره بين فتاة وأبيها

لنا فهد

الوالد : من ملك جوهرة حرص عليها . والحب أثنى جواهر الوجود . فيهمنا وقايتة بما نملكه
ضامات

الفتاة : الذي أفهمه يا والدي ان للحب آفات وان له ايضاً ضامات . ولقد أحسنت في انك
أمت هذه على تلك

الوالد : واول ضامات الحب : تبادل المصلحة : وارجو ان تتفق في الكل وان اختلفنا في الجزء
الفتاة : فهمتك يا والدي . فانك تؤسس العلاقات البشرية على المصلحة ، على جلاله قدر تلك
لاقات كالحب والدين

الوالد : ألا تعلمين يا عزيزتي ان المرء عبد مصلحته ؟ فاذا فقدت المصلحة زال الحب . فالمصلحة ،
ية او روحية ، هي ضالة الانسان ، ينشدها حيث يجدها . فهو ابدأ انتفاعي ، في سياسته ،
لمصلحة بعد كل حساب هي فوق كل عامل في الوجود . وفي حبه وفي دينه

الفتاة : مع ميلي للتسليم بذلك ، ارجوك ان تزيدني ايضاً

الوالد : هل رأيت الفلاح يدفن البذار في التربة ؟

الفتاة : مراراً

الوالد : فلو حكمت النظر دون الاختبار لجزمت بأنه مجنون . لانه ينفق قوته عبثاً ؟

الفتاة : والحال انه يبذل القليل ليحني الكثير فهو ليس بمسرف

الوالد : هذا هو سنن الانسانية الاساسي : بذار واستغلال . ناموس عام في جميع الدوائر الانسانية ومنها :

١ : الطالب في المدرسة : يقضي السنين الطوال ، وينفق بدر الاموال رغبة في احراز العلم
ليتمكن من تحصيل الاموال والمراتب والذائد

٢ : والادون : ينفقون كثيراً على اطفالهم . آمليين انهم في مستقبل الزمن يكونون سنداً لهم

٣ : كذلك الشركاء ، والمتضامنون

الفتاة : وهل التدين ، ومحبه الله هو من هذا القبيل ؟

الوالد : الديانة حسب وضعها الاصلي هي اما رغبة في ثواب ، او رهبة من عقاب . فهي مذهب نفعي

الفتاة : اولاً يوجد تدين لله ؟ لا رغبة في جنة ، ولا رهبة من نار

الوالد : لا اظن واليك نصوص التوراة ، وهي المرجع الديني الاسمي عندنا

- ١ : اكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الارض الخ
 ٢ : ان سمعتم واطعتم تأكلون خير الارض
 ٣ : وان ابيتهم وتمردتم يأكلكم السيف
 ٤ : ان سمعت لكلامي وحفظت اقوالي : فباركاً تكون في خروجك ومباركاً تكون في دخولك الخ

الفتاة : كان ذلك يا والدي في طفولة الديانة وطفولة الانسانية . ولكن لما ارتقى الانسان تنزه دينه عن المصلحة فقال له تعالى : اعبدك لا طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، بل حباً بك الوالد : ذلك ما يقوله الفهم . اما الحياة اليومية فدللتنا على ان : البشرية لا تزال في طور الطفولة فعلاً ، وهي اسيرة المنافع . واعلمي يا عزيزتي ان للفلاسفة في الفضيلة ثلاثة مذاهب

١ : ان الفضيلة تراد لذاتها

٢ : انها تراد للخيرات الناتجة عنها

٣ : انها تراد للامرين معاً ، لذاتها ونتائجها

فالأول مذهب الرواقيين والكلبيين والمتصوفين اتباع الأفلاطونية وجميع النساك من كل المذاهب ، نصارى ومسلمين ويهود وهندوكيين وبوذيين ومنهم رابعة العدوية صاحبة القول المشهور : احبك لا رغبة الخ

٢ : مذهب الهيدونيين والايقوريين ومدرسة بنتام ، وكارل ماركس وجميع الماديين في كل عصر وفي كل مصر . وهذا المذهب هو محور التمدن ، وقاعدة السياسة . وهو المذهب النفعي : Utilitarianism : وهو بخار ميكانيكا الحياة البشرية في كل العصور

٣ : مذهب افلاطون وارسطوطاليس وكنت وسبينوزا وليبنز . وتوافق تعاليم الاديان التي تقرن الفضيلة بالثواب ، والرذيلة بالعقاب . ولذا كانت الاديان افلاطونية بهذا الاعتبار ، اي ان الفضيلة تراد لذاتها ، ولنتائجها . وهذا المذهب نظري اكثر من كونه عملياً . والحب يتمشى على القاعدة نفسها . قال افلاطون افرض اننا سئلنا قراءة كتابة بحروف من قطع صغير ، وعن بعد ، فلم نتمكن من تبينها . ولكن احدنا اكتشف ان تلك الكلمات نفسها مكتوبة في موضع آخر بحروف كبيرة . وعلى رقعة واسعة . فن المعقول اننا نقرأ الكلمات الكبيرة الحروف اولاً . ثم نحول نظرنا الى الكتابة ذات الحروف الصغيرة ، ونفحصها لئلا نرى هل الكتابة واحدة في الرقعتين : وهو ، في ما ترين ، رأي حكيم فلننح نحو افلاطون في درس الحب ، فندرسه اولاً في الدولة ، ثم في الفرد ، فنتبين حقيقته

الفتاة : اوافقك في ذلك يا بابا فما الحب بين الدول ؟

الوالد : هوذا اليابان وروسيا والمانيا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا وبولونيا والولايات المتحدة

السان . والتي

لامريكية . هل من واحدة من هذه الدول تحب اختها « الله » ؟ . واذا كتب صحافي ان : فرنسا تحب بولونيا لله : افلا تضحكين ؟ . فلماذا تصدقين ان الفرنسي يحب البولوني لله ؟ افليس الفرنسي يترى من فرنسا ، وله طبيعتها ؟ فكيف يصح في الفرد ما لا يصح في المجموع ؟ والرأي الفطير وهذا :

تتألف الدولة من الافراد ، فتعلمن طبائعهم وصفاتهم . والحكم في الفرد وفي الدولة واحد . وكما ان المصلحة حافز حب الدولة وضامناتها كذلك الحال في حب الفرد . هنالك مصلحة حفزت الى ذلك الحب وضمنته . فالمصلحة اول ضامنات الحب لذا قالوا : حبيبي من تعني : الفتاة : اراني يا بابا قد بدأت افتح عيني لنور الحقيقة . فالمرء تعمي في كل شؤونه حتى في حبه الوالد : الحمد لله . فما قولك في من تزعم انها تحب مع ضياع المصلحة ؟ الفتاة : ارى انها مجنونة - بحسب قياسك - الوالد : فالمصلحة اولاً . هذا هو الحكم العام . والحب ضد المصلحة ليس مبدءاً انسانياً ، بل

مرض نفسي

الضامن الثاني : عدالة الحب . والعدالة ضرورية . وذلك لاربعة اسباب

١ : اخلاقي : لا ثقة بالخائنين الظالمين

٢ : اقتصادي : الحذر من الخسارة

٣ : فني : فان الظالم قبيح والعدل جميل والجمال هو المحبوب

٤ : اختباري : عند التناهي يقصر المتطاوّل

فدرس الشخص يتقدم فتح القلب لحبه ابدآ . ومن خالف هذا القانون جنى على نفسه . فالحب لاول مرة ضلال مبين . والقانون هو امتحن اولاً ثم احكم . واحكم اولاً ثم احب . فالحب قبل الحكم ، قبل المعرفة ، سخافة وجنون . نعم ان النظرة الاولى قد تقرر ابواب القلب . ولكن العقل يسامها المفاتيح قبل التحقق من سلامة العواقب

الفتاة : ان كلامك هذا يا ابتي يوافق رواية شهدناها بالامس في مسرح ديانا وقد استمطرت دموعي الوالد : وخلاصتها ؟

الفتاة : شاب يتودد الى فتاة . فتمنعت اولاً قائلة له : انك بعد ان تنال مني تتركني . فأغلظ قسام انه لن يتركها . فاستسلمت لحبه الزائف . ولما ولدت ثمرة ذلك الحب ، قلاها وانكر حبه بنته . ولما همت بأن تشكوه للحكومة ، وهو موظف ، وقد خشي سوء العاقبة ، عمد الى الحيلة . فظاهر بالتوبة وعاد يتودد الى الفتاة . فعادت واستسلمت له كما في المرة الاولى . ولكن هذه المرة ردها الحنف المريع فركب معها قصد التسلية . ولما بلغا وسط النهر قلب ذلك الافعى في صورة سان . والتي بها الى اللجج فانت غرقاً ، وقد رأيتها تستغيث ولا مغيث

الوالد : فاذا انتفت العدالة ، فلا ضمان للحب . والا فآين الوجد والغرام الذي كان بين هذا وتلك وهو الآن يلقي بها الى التهلكة ؟

والضامن الثالث : خلق المحبوب . اي الخلق الحسن . واذا فقد المحبوب الخلق الحميد فلا ضامن لثبوت الحب بل على الضد من ذلك ينقض الحب سريعاً . عرفت فتاة قبل نحو ثلاثين سنة ، في شرح الصبا ، وهي آية في الجمال كالبدور وجهاً ، والمهي عينا ، والورد خدّاً ، والغصن قدّاً ، والرمان نهداً ، مقببة الصدر ، نحيلة الخصر ، مصقولة النحر ، مجدولة الساعدين ، ربا المخلخلين ، بسامة ، هيامة ، طروب لعوب . كالصبح طلعتها والليل طرتها والند نكبتها

الفتاة : وماذا فعلت بها يا بابا ، قبل الثلاثين ؟

الوالد : كما يفعل من كان مثلي ، بمن كان مثلها ، اي اني شغفت بها سريعاً . هذه هي النظرة الاولى ولكنها شرعت تتكلم ، فاذا هي بليدة ، ثم اخذت اعاشرها ، فاذا هي حمقاء . فشرع قلبي ينسحب ويتراجع ، حتى صار قلبي في الشرق وهي في الغرب . فان حسناتها جذبي اليها ، ولكن خلقها دفعني عنها

الفتاة : وهوت شائحات حبك يا بابا

الوالد : الى ادنى الدركات يا فتاتي

الفتاة : وجمالها ؟

الوالد : تواري بالحجاب

وما ينفع الفتيان حسن وجوههم اذا كانت الافعال غير حسان

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتي فا كل مصقول الحديد يمانى

ان سوء الخلق يرغم انعاقل على هجر الحبيب . فيطير الغرام كندى الصباح . والخلق الحميد هو

السيد الازلي على القلب ، لانه له قد خلق وله يدين

والضامن الرابع : ملائمة الاحوال

الفتاة : احتجاج يا بابا . فانك تعلق الحب على الاحوال والحب لا يخضع لحكم الاحوال بل هو فوقها

الوالد : وهل عليّ من حرج وانا اقرر الواقع ؟ فقد تتحكم الازمات المالية في الناس فيصرون الى

الفاقة بعد الثراء ، والالم بعد اللذة ، فتذوي يانعات الحب بريح السموم الهابة عليه

الفتاة : اراك تلاشي الحب يا أبت

الوالد : لاني عن عقل أتكلم لا عن هوى

والعقل والهوى على طرفي نقيض . واراهما في كفتي ميزان . فحيث رجح العقل خفّ الهوى .

ولا يرجح الهوى الا وقد رجح العقل . ذلك في ما ارى ناموس الاجتماع والسيكولوجيا . اجل قد

يتغلب الحب على الاحوال ، ولكن ذلك في واحدة من الف . فلا تنسي التسعمائة والتسع والتسعين .

لان الحكم على الناموس العام . والنادر لا يقاس عليه

الفتاة :

الوالد :

الفتاة :

الوالد :

الفتاة :

الوالد :

الفتاة :

الوالد :

الفتاة :

الوالد :

فتجدد

بركة لا يتجدد

الفتاة :

الكشف عما في

الوالد :

للحب من

الجمال . كان اء

بتجدد البخار

من يهواه

واراني ك

ويهرم ويذبل

يضمحل . اما

فلا تشيخ النف

يكون محصور

ان الخلود حفر

الفتاة :

الوالد :

او قليلاً من

الفتاة : لقد احزننتني على روحي وعلى الحب وعلى بني حواء . ابهذا المقدار حبهم نحيف وبه يفخرون ؟
 الوالد : مهلاً . فهناك ضامن خامس للحب وهو ضامن وثيق
 الفتاة : رجاء . فما هو ؟ . اني اراك نسفت الحب نسفاً
 الوالد : مهلاً . هل تذكرين انك شربت من ينبوع صاف ؟
 الفتاة : في لبنان لا في مصر
 الوالد : وهل تذكرين العودة الى الارتشاف المرة بعد المرة ؟
 الفتاة : اذكر ذلك ولي فيه سرور عظيم
 الوالد : فلماذا لا يأسن ماء النبع كما يأسن ماء البرك ؟
 الفتاة : لأن ماء النبع متجدد . وماء البرك غير متجدد ، بل هو راكد
 الوالد : ذلك ما ارعي اليه

فتجدد اللذة هو ضامن ثبوت الحب . والحب ارتشاف من ينبوع فياض . اما اذا كان من
 ركة لا يتجدد ماؤها . فالعاقبة وخيمة . لان الماء الآسن تعافه النفس . هذا ماء الحب الدفين
 الفتاة : افصح عن مرادك . ماذا تريد بالتجدد هل تجدد الرغبة في نفس المحب ، او زيادة
 لكشف عما في المحبوب من مجالي الجمال ؟
 الوالد : اريد هذا الثاني بالاكثر

للحب موضوعات واغراض . ولهذه الاغراض اثر في النفس . فاذا كان المحبوب غنياً في حقيقة
 الجمال . كان اعلان ذاك الجمال نبعا فياضاً تتجدد مياهه فلا يأسن . فيظل المحب منفعلاً آنفعال القطار
 تتجدد البخار . واذا انقطع البخار وقف القطار . واذا جمد المحبوب ذوت يانعات الحب في نفس
 من يهواه

واراني كدت المس الحقيقة الازلية وهي : الحب الخالد هو حب النفس : لأن الجسد يشيخ
 ويهرم ويذبل فالحب المرتبط بنضارة الجسد وبريق العيون هو كالبخار في الجو . يظهر قليلاً ثم
 يضمحل . اما النفس فلا تشارك الجسد في هرمه . بل تزداد صبوة وجمالاً كلما تقدم المرء في السن .
 فلا تشيخ النفس الجميلة مع الزمان ، بل تتجدد مجالي جمالها ونضارتها . فمن اهم ضامنت الحب ان لا
 يكون محصوراً في الظاهرات . فزاع الحب وآفاته كونه سطحيّاً . وليس للسطحيات حظ من الخلود .
 ان الخلود حظ اعماق الوجود

الفتاة : شكراً لك يا بابا . فقد رأيت الحب غير ما كنت اتوهمه قبلاً
 الوالد : ولسوف نرين اكثر مما رأيت الآن . فليس ما امليته على سمعك الساعة الا قطرة من ثم
 و قليلاً من جم

الحمية في الامراض

للدكتور عبده رزق

متى يجب اطعام المريض وفي أية حالة يجدر بنا ان نحتم عليه اتباع الحمية ، اعني الامساك عن الطعام ؟ تلك امور لا يجملها احد من الناس تقريباً لكن اذا ما اتى دور التطبيق العملي وخصوصاً دور التفصيلات الدقيقة في كيفية الاعتناء بالمريض فالتردد يمنع في غالب الاحيان اتخاذ قرار جازم للعمل به . ولذلك يترتب بعضهم وينتظر ما يأتي به الغد علّه يوحى بفكرة يركن اليها ، او ان ينتهي الامر على احسن حال من تلقاء نفسه من دون معرفة حقيقية للطريقة المثلى الواجب اتخاذها من هذه الناحية

ويلاحظ من بضع سنين عند فريق من اطباء ميل جديد الى تفضيل الاطعمة الجامدة على سواها وقت حدوث الامراض المعدية . فهذه الطريقة المبتكرة في اتباع الحمية التي يتخيل لاصحابها تحقيق نجاحها ، لا تعود فقط بنا ٢٥٠٠ سنة الى الوراء قبل ولادة ابقراط ، بل انها تؤدي الى اوجم العواقب اذا كان القصد منها تخفيف وطأة تلك الامراض او ازالها

وغير خاف ان الحمية تقوم بتقليل الطعام ، فهذا التقليل يمكن ان يؤول في بعض الحالات الى منع كل طعام سائلاً كان ام جامداً ، وفي احوال اخرى تقتصر الحمية على التغذية المائية او اللبنية . اما اذا كان المرض خفيف الوطأة او في دور النقص فلا مانع يمنع اضافة بعض الاطعمة الجامدة الملائمة فلكل من هذه الطرق المختلفة في اتباع الحمية ظروف استعمالها ويمكننا ان نقسمها هنا بايجاز الى ثلاثة اقسام وهي : (١) ظروف المنع التام عن الاطعمة السائلة والجامدة (٢) الاقتصار على الاطعمة المائية او اللبنية (٣) تقليل الاطعمة السائلة والجامدة

١ - ظروف المنع التام عن الاطعمة السائلة والجامدة

تكون طريقة هذه المداواة بنوع خاص في امراض الجهاز الهضمي . وبين الاعراض الموجبة لاستعمال الطريقة المذكورة بصورة مطلقة القيء الدموي مع التقيؤات الاخرى المختلفة . فالقيء الدموي تختلف اسبابه ويكون في اغلب الاحيان ناشئاً اما عن وجود قرحة في المعدة ، او سرطان ، او مرض في الكبد (يرقان مزمن) او قد يكون احد امراض الدم العمومية كالحميات الحادة والمalaria والاستقربوط ، فالمداواة العاجلة لهذه الحالات هي واحدة مهما كان سبب القيء ، وعلى كل يجب ترك الوقت اللازم للدم المتخثر الذي يغطي المكان المتأكل في المعدة ريثما تتكون فيه الالتحامات الجديدة ثم اندماها

فإراحة العضو المريض اذن بالحماية عن السوائل والجوامد تترك له والحالة هذه الوقت اللازم لاصلاحه وإعادته الى حالته الاصلية . أما مدة الانقطاع هذه فتختلف باختلاف طبيعة القيء الدموي : ففي سرطان أو أمراض الكبد مثلاً لا يتطلب النزف الدموي بوجه عام أكثر من يومين أو ثلاثة لراحة العضو ، بينما في قرحة المعدة تكون مدة الراحة اطول . وعند ما يكون النزف شديداً يمتنع المريض عن كل طعام مدة تتراوح بين الثمانية ايام والاثنين عشر يوماً وفي خلالها يحقن كل ساعتين أو ثلاثة ٢٥٠ غراماً من الماء الفاتر (المغلي قبلاً) مضافاً اليه ٢ بالالف من ملح الطعام منعاً لجفاف النسجة الجسم . ومن الحكمة ألا يزيد عن ذلك مقدار الماء المذكور في كل مرة خشية من تهيج غشاء المعدة المخاطي وحصول فعل عصبي عكسي ينشأ عنه افرازات العصارة المعدية الحامضة في مقادير وافرة معلوم ان افرازات هذه العصارة تكون زائدة في حالة وجود قرحة في المعدة

واذا ما اعتري المريض دوار أو اغماء يخشى منهما على حياته فيعمل له حينذاك حقنة صغيرة مريحة بالماء مع قليل من الكنيك . اما اذا استمر القيء رغماً عن ذلك فيستحسن أن يغذى بالحقن المغذية أما التقيؤات الاخرى فأشدها خطراً هي التقيؤات الناجمة عن التسممات البولية Urémie وهي شيراً ما تؤدي الى الوفاة في أيام قليلة . اما في ما عدا هذه فالتقيؤات بوجه عام تهدأ بسهولة بالراحة نامة للمعدة ويساعدها على تحسين الحالة سريعاً منع المريض عن كافة الاطعمة

وهناك حالات اخرى من التقيؤ ، وهي فجائية ، لا علاقة لها بالهضم فيجب ان نخشى إذ ذاك من وجود فتق محتق . فالالم الحلي الذي يسببه هذا الفتق ، لا سيما عند المرأة ، يكون احياناً فقيفاً جداً والمريض لا يشعر به ولا يشكو منه ، حتى اذا اقتضت الضرورة بعدئذ العلاج الجراحي ولم يبق مفر منه يكون الوقت قد فات

أما تقيؤات الحمل المستعصية فتتطلب في بعض الحالات ايضاً منعاً تاماً عن الاطعمة وذلك لمدة ستة أيام ، والاكتفاء في خلالها بحقن ٢٠٠ غرام من الماء المالح (٥ بالالف) مرة كل ثلاث ساعات

٢ — الاطعمة السائلة وظروف استعمالها

ان هذه الحماية للمريض يمكن ان تقتصر على الحليب . فالحمية المائية ليست الا مداواة اضطرارية تعمل في احوال خاصة ولا يمكن ان تدوم اكثر من أيام قليلة لكنها ذات فوائد لا ينكرها باحث استعمالها المذكور يكون عادة في الساعات التي تعقب المنع التام عن الاطعمة ، وكواسطة ايضاً بوييد المعدة الرجوع الى الطعام . كذلك في الزائدة المعوية والالتهاب المعوي الصفراوي . او

ت ابتداء الامراض المعدية والتسمم البولي

فعلاج الزائدة المعوية يلخص في الامور الثلاثة التالية : (١) وضع كيس ثلج على مكان الألم ، (٢) حقن مورفين تحت الجلد (نصف سنتغرام) مرتين الى ثلاث يومياً ، (٣) الاقتصار على شرب الماء أثناء الستة أو العشرة الايام تقريباً ، اي طيلة وجود الالم الموضعي الحاد ، وانه لا مانع في هذه

الحالة من شرب منقوع ماء الزيزفون او البقلة او الشاي الخفيف ايضاً . واذا كان المريض متقدماً في السن فلا بأس ايضاً من السماح له، ابتداء من اليوم الثالث بتناول صحنين او صحنين من مرق بعض الخضروات المطبوخة من دون سمّن (٦٠ غراماً من البطاطس والجزر والفجل والفاصوليا الخضراء في ١٠٠٠ غرام ماء وتغلى الى ان تصير الى ثلث حجمها ثم تصفى بعد ذلك)

ومن الضرر الكلي استعمال اللبن الحليب في الزائدة المعوية ، لانه يساعد على تولد الاختمارات المعوية كما انه لا يصلح بوجه عام في الالتهابات المعوية المختلفة سواء أ كان ذلك عند الرضيع أم عند البالغ . واللبن الحليب الذي يعطى للمريض عن جهل في حالة كهذه لا يعمل الا على اطالة المرض ان لم يزد تفاقماً . هذا عدا ان في بعض الحالات المزمنة يجب الامتناع عنه بتاتاً مدى بضعة شهور والاكتفاء في خلالها بمرق بعض انواع الدقيق الغذائي من دون لبن حليب . وقد اعتاد بعضهم حين ابتداء الامراض المعوية ان يصف للمريض الحليب والمرق فهذه الطريقة قد تكون غير صالحة . . ويظهر ان الالتهابات المعوية بل وبعض الامراض الاخرى ايضاً ترتاح الى الحمية المائية . كالانفلونزا والتهاب اللوزتين والحناق التي اتضح انها تشفى بأسرع وقت في الست وثلاثين الساعة الاولى . ومما هو جدير بالذكر ان مدارس الطب في القرن الثاني للميلاد كانت تصر كثيراً على هذه النقطة فتوصي اولاً باستعمال الماء الحار ومن ثم ماء الارز والشعير ، وفي احيان اخرى ، كما في الانفلونزا والذبحة الصدرية، كانت توصي باستعمال الماء الحار في اليوم الاول والحليب والمرق المجرد عنه الدسم بعد اليوم الثاني او الثالث

أما في الحمى التيفية فالاعتصار على شرب الماء خلال مدة المرض يُعدّ مغالاة وتجاوزاً للحد في نظرنا . وفي الواقع يمكن اعطاء المريض بعد اليوم الثالث او الرابع ، الحليب ومرق البقول او مرقاً خفيفاً من لحم الدجاج او الثور بعد نزع الدسم منه (لتر ونصف حليب ، ونصف لتر مرق، ولتران الى ثلاث لترات ماء) ، ويحسن عدم الاكثار من الحليب ، لأنه ، على ما ذكرنا سابقاً ، مهيج للاختمارات المعوية ، ومعلوم ان الجهاز الهضمي يكون في حالة سيئة عند المصاب بالحمى التيفية ، كذلك يستحسن عدم الاكثار من المرق لانه مملوح والمالح يصعب طرده في الامراض الحادة . اما الاطعمة المغذية التي يوصى بعضهم باستعمالها منذ بضع سنين فلا يخلو استعمالها هذا من الخطر

اما ظروف استعمال اللبن الحليب وفوائده الجمة في كثير من الامراض فغنية عن الشرح والبيان، ففي كافة الامراض التي يشار فيها بتناول الماء يعقب ذلك تناول الحليب . غير انه في بعض الحالات (كالالتهابات المعوية الهضمية وغيرها) يجب الاحتراز في هذا الاستعمال بتناول مقادير قليلة لأنه كثيراً ما يسبب رجوع الاضطراب الى تلك الامعاء

وبين الامراض والقلب والاور
المعدة ، وكما
نقص هذه الع
فيعطى المريض
بجرعات صغيرة
هذه المدة الى
او ملعقتان من
بسهولة تكون
غرام من ماء
أشرنا فيما
تطبيق هذا
امراض الكلى
الحادة : فيؤخذ
ويستحسن ان
يُريد غير مملح
عرفت فوائد
لتر حليب مع
ولا يفوت
ان يكون تناوله
التهابها . وخلا
كالخطمية وغير
٣ - تقل
ان الاطعمة
نوعها . وفي
ما يوافق من
تعرض المريض
الاطعمة الجامة

وبين الامراض التي ترتاح بنوع خاص الى استعمال اللبن الحليب يجب ان نذكر بعض امراض المعدة والقلب والاوعية الدموية والكليتين والمثانة ومن هذا نفهم ان الحليب لا ينجح في كافة امراض المعدة ، وكما انه يفيد في حالة ازدياد العصارة المعدية الحامضة تكون فائدته معدومة بالعكس وقتئذ هذه العصارة لا سيما في الاختمارات المعوية . اما الحالات التي يجب الاقتصاد فيها على الحليب يعطى المريض كل ثلاث ساعات ، من الساعة ٧ صباحاً الى ١٠ مساءً ، نصف لتر حليب يؤخذ برعات صغيرة في مدة نصف ساعة وذلك لمدة عشرة ايام تقريباً . لكن في قرحة المعدة قد تطول هذه المدة الى الثلاثة الاسباع والشهر والشهرين ايضاً حتى اذا زال الالم يضاف الى الحليب ملعقة ملحقتان من الدقيق الغذائي ويغليان قبل الاستعمال وافضل طريقة لتحمل شرب الحليب بسهولة تكون باضافة قدر ملعقة حساء (شوربا) من ماء الجير الى كل كأس من الحليب او نحو ١٠٠ رام من ماء الجير في الاربع والعشرين ساعة

أشرنا فيما تقدم الى منافع اللبن الحليب ايضاً في بعض امراض القلب والاوعية الدموية ، لكن لنبقى هذا الاستعمال هو هنا عمل معقد يحتاج الى شرح واف لا يتسع له هذا المقام . اما في امراض الكلى فشهرة تلك المنافع لا ينازعها عليها منازع لانه العلاج الممتاز في كافة التهاب الكلية الحادة : فيؤخذ منه اذ ذاك حتى ثلاثة لترات يومياً وتستمر الحال على ذلك مدة ١٥ الى ٣٠ يوماً ، يستحسن ان يضاف اليه ، ابتداء من اليوم الخامس عشر ، قليل من الدقيق الغذائي ليصير بشكل يذوب غير مملح . لكن في التهابات الكلية المزمنة قد فقد الحليب شيئاً من مكانته الممتازة منذ ان رفت فوائد التغذية غير المملحة Regime dechlorure وفي هذه الحالة يعطى المريض يومياً قدر حليب مع بعض الخضروات وقليلاً من اللحم غير المملح

ولا يفوتنا ايضاً ذكر منافع اللبن الحليب في التهابات المثانة خاصة وقت ابتداء التهابها الحاد على ان يكون تناوله باعتدال .. لأن الافراط في شرب السوائل من شأنه ان يسبب تمدد المثانة ويزيد في التهابها . وخلال مدة استعمال الحليب يمكن للمريض ان يأخذ مشروبات ملينة مدرة للبول : الخطمية وغيرها ، ثم بعد عشرة ايام من ذلك يبدأ بمداواة سبب الالتهاب

٣ - تقليل الاطعمة الجامدة والسائلة

ان الاطعمة على انواعها قد تكون خطرة على صحة الانسان سواء من جهة مقدارها ام من جهة نوعها . وفي حالة المرض بنوع خاص هناك شرطان مهمان لا بد من العمل بهما : اولاً انتخاب يوافق من تلك الاطعمة ثانياً عدم الافراط في تناولها . فالمواد الغذائية المعروفة انها غير مضره للمريض لعواقب غير محمودة حينما تؤخذ بمقادير كبيرة منها . وكما ان الافراط في تناول اطعمة الجامدة يتعب القلب والجهاز الهضمي ، كذلك الافراط في تناول الاطعمة السائلة يتعب

قصص

الكلى والاعوية الدموية . فلتران من السوائل يومياً يكفيان عادة للشخص السليم ، حالة ان المقدار نفسه قد لا يكفي للشخص المريض ، وهذا المقدار يختلف باختلاف كل حالة وفي امراض المعدة من الضروري تجنب بعض الاطعمة الفجة وغير المطبوخة ، والمعجنات والمواد الشحمية . كذلك في امراض الكبد يجب الابتعاد على التوابل والمشروبات الكحولية ويجب الامتناع في امراض الكلى عن اللحوم والمرق الدسم والاطعمة الزائدة ملحها ايضاً اما في امراض القلب فالذي يؤدي بنوع خاص مقدار الاطعمة سائلة كانت ام جامدة ، والتي فضلاً عن انها تمدد المعدة وتغرق بهذا وظيفة القلب ، تحدث امتلاء الاقنية الدموية فيتضاعف بذلك شغل القلب ، وتزداد الحالة سوءاً

ومن الحكمة في دور النقه من الامراض المعدية (كالحمى التيفية او الحصبة مثلاً) اعطاء الطعام الى المريض بصورة تدريجية . ففي الحالة الاولى (الحمى التيفية) يجب التريث حتى هبوط الحمى لتحت الدرجة ٣٧ وحينئذ يعطى مدة اربعة ايام بعض انواع الحساء ، واذا سهل تحمل هذا فيعطى بعدها شيئاً من اللحوم الحمراء ، اما اذا عادت الحمى فيجب الرجوع الى الاطعمة السائلة ، لكن في الحصبة يجب الاقتصار خلال الخمسة عشر يوماً (دور النقه) على الاطعمة اللبنية والنباتية واخيراً في الزائدة المعوية لا يجب اطعام المريض الا بعد زوال الالتهاب الموضعي اي بعد مضي عشرة ايام تقريباً ، اذ لا توجد قاعدة عامة يعمل بها بصورة مطلقة . فالخواص الشخصية تخلق كثيراً من الشذوذ بين كل فرد وآخر

٤ — خلاصة فوائد الحمية والاسباب الموجبة لها

إن فوائد هذه الحمية تنحصر في الامور التالية : إراحة العضو او الاعضاء المريضة ، توفير التعب على المسالك الهضمية ، تنزيل درجة الحرارة في الحميات وما اليها ، المساعدة على ازالة الانتفاخ في أمراض القلب والكلى ، عدم هبئة محيط صالح لنمو أنواع البكتريا المعوية بما يتناوله المريض من الطعام وأخيراً تقوية مناعة الجسم ، أي مقاومته لميكروبات الامراض وسعومها . وإثباتاً لهذا قد أخذت طائفة من الحيوانات وحقت بسموم ميكروبات مرضية : فالتى ابتلعت منها طعاماً كان فتك المرض بها أسرع بكثير من تلك التي لم تعط أي طعام

أما اضرار الحمية — اذا كانت هنالك اضرار بمعناها الحقيقي — فطفيفة ، والخوف منها أقل بكثير من الخوف الذي يعقب الافراط في الطعام فكل ما يمكن أن يعترى المريض هو قليل من الضعف اذا ما طالت مدة الحمية ، ولذا يجب أن يحفظ مقياس مناسب لكل حالة وعدم الافراط في مدة هذه الحمية فالمسألة مسألة فهم ومعرفة تامة لحالة المريض

أتملكين
عاطفة المقت أو
ان تضري بي
جلب عليّ العا
الغبطة من شبا
التقيت بتر
عليّ ، ولا تجا
الرجولة والخبر
كنت وح
عنهم ألم الواحد
غرفة باردة آ
المتحركة او الما
وفي ذات
الى مائدة من
المكتب في الا
ذكرتي بوالدي
التي منحتني ،
خاوت ا
ولكن جوابه
حاولت الآن
عن حياته الخا

قصص الحياة - ٢

رجل وغد

[في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر الحوادث في حياتها خطراً وأثراً في نفسها . وقد شرعت إحدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر قصص الحياة هذه من دون تمعيق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف ما تحلو قراءته او تجل فائدته ، ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها وفي بعضها مهابو تستطيع نساؤنا ان تجتنبها وفيها على الحالين نواح من حياة المرأة الغربية يحسن بنسائنا الاطلاع عليها والقصة التالية مبينة على ان الضرر او تزوج الرجل اكثر من زوجة واحدة جريمة يعاقب عليها في القوانين المسيحية]

أملكين من وقتك خمس دقائق تفرغين فيها لقراءة قصتي ؟ اذن لنازعتك بعد قراءتها عاطفتان ، طفلة المقت او عاطفة الرثاء لحالي . ولست اجد في ايهما ما يخفف عني . ولكنك في الحالين لا تستطيعين ان تصري بي ، لانني عدت لا اقيم وزناً لآراء الناس . فقد كنت فتاة من اللائي يتصفن « بالبراعة » لمب علي العار والبؤس رجل لاخلاق له ، خوّل الحلاوة في كأس حياتي الى مرارة ، ومحا آية بسيطة من شبابي

التقيت بترينور في لندن ، فأحببته وتزوجته في خلال شهر واحد . لم اجد فيه عاطفاً خاصاً بي ، ولا تجاوباً خاصاً بين روحه وروحي ، ولكن استرعى عنايتي به ما بدا في تصرفه من كمال جولة والخبرة ، ثم ما كان ينطوي عليه تودده الي من شباب ملتهب واغراء قوي

كنت وحيدة في لندن . وكان يبدو لي ان جميع من ارى من الناس لهم معارف واصدقاء يخففون هم ألم الوحدة والعزلة ، او يموت يأوون اليها فيجدون فيها الدفء والراحة . اما انا فلم يكن لي الا فة باردة آوي اليها بعد عملي ، ولم يكن لي اصدقاء احدهم او اختلف معهم الى دور الصور محرقة او الملاهي او الزه الخلوية

وفي ذات ليلة ذهبت لا تناول الشاي في دكان حلواني قرب المكتب الذي اعمل فيه وجلست مائدة من دون ان انظر الى اثنين جالسين اليها . ثم التفت فاذا احدهما رجل ، كان قد تردد على مكتب في الايام الاخيرة ، فبسم لي فرددت بسمته بمثلها . كانت عيناه زرقاوين وفي وجهه ملامح كرتي بوالدي . وكان يحيد الحديث ، وفي كلامه رنة تقربه اليك ، فشكرت في ذات نفسي للمصادفات التي منحني ، بعدما اشقتني بوحدتي ، صديقاً يملأ ذلك الفراغ في نفسي

فأولت ان احده ، بعد ما توثقت معرفتنا ببعض ما يقع لي وما كنت احس به قبل تعرفنا ، لكن جوابه الوحيد كان تقبيله اياي ، لكي أنسى ما قاسيته من ألم في الايام السابقة . فاذا قلت الآن ان أتذكر الحديث الذي كان يدور بيننا في تلك الايام ، ذكرت انه قلما فاه بشيء من حياته الخاصة الا انه مقيم في اميركا الجنوبية وانه قادم لانكثرا في رحلة خاصة بعمله

كانت تربيتي وبداهتي تصرخان في وجهي ان انصرفي عن هذا الرجل . وكنت اعلم عند التأمل ان الرجل ليس من النوع الذي يوافقني ، وانه لا يحسن بي ان اصادق رجلاً لقيته مصادفة ، ولكنني كنت احاول ان اكون فتاة عصرية ظناً مني ان هذا يغريه ، وكنت أخشى ان يسأم صداقتي فأعود الى حياة الوحدة التي عانيت آلامها . وكنت متوهمة ان شعوري يتغير عند ما تزوج ذلك انه كان قد طلب ان اصبغ زوجاً له . ولست أدري الآن ما بعثه على ذلك . ولست اعرف تعليلاً لذلك ، الا انه كان رجلاً لا يعرف معنى لكلمة « التبعة » . ولست ادري هل كان هو وحده المألوم . ولكنني أرى انه كان ملوماً كل اللوم بعد كل ما بدا من خفاياه انني امقته ، لانه كان خسيساً كل الخسة في معاملتي . فقد كان يشتميني ، وكان يعلم ان لا سبيل له لتحقيق غرضه الا بالزواج ، فعرض عليّ الزواج فقبلت وأنا جاهلة غرضه الحقيقي ، فكانت حفلة الزواج مقدسة في نظري ، ومن قبيل السخرية في نظره

تزوجت واستأجرنا شقة صغيرة رثة في احدى ضواحي لندن الجنوبية . ولا اريد ان ادعي انني كنت سعيدة في الزواج ، مع انني حاولت ان اقنع نفسي بأنني كنت سعيدة . كنت قد نشأت في قرية حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً ، فكان اليأس يستولي عليّ إذ يهجرني للاختلاط بمحيرتنا ومصادقتهم ، ثم كان يغضب إذ أحاول ان اتعرف بهم ، فكان يقول سوف يتسع امامك الوقت لكل هذا في المستقبل اما الآن فيجب ان تكثفي بي . ولما كان زوجي كنت أنقاد لمطالبه وفي ذات يوم تجلّست لي الحقيقة القاسية ، فهبطت بي الى ادنى دركات اليأس . ذلك ان تريفور قال لي ذات يوم انه مضطّر الى السفر الى جنوب اميركا ، وانه متى استقرت به الحال هناك ، بعث يستقدمني اليه . وفي اليوم الذي ابحرت به الباخرة تسلّمت كتاباً يقول فيه ان له زوجاً واولاداً هناك . فثارت نفسي على هذه الخيانة العظيمة . ولبثت بضعة ايام بعد ذلك مريضة لا اقوى على النهوض ، بل امتنعت عن الاكل والشرب بغية الموت

وكان لنا جارة تعرفت عليها قبيل ذلك من دون ان يدري تريفور بذلك ، فجاءت لزيارتي ، لما لاحظت غيابي ، فعطفت عليّ عطفاً عظيماً ، ولما رأني استردّ قوتي قالت لي ، انني لا بدّ حامل على انني خجلت كل الخجل ان اقول لها انني في عرف القانون لست صحيحة الزواج ، ولكنها لم تزجني باستئنها بل امدتني ما استطاعت بمعونتها وارشادها ، ودبرت لي تأجير احدى غرف الشقة لاستعين بايجارها على نفقائي . وارجو ان تنال تلك السيدة يوماً ما جزاء ما صنعت ، فانها اجدر به من اي انسان اعرفه

وقع كل هذا قبل سنتين . اما الآن فلي طفل استعذب في سبيله متاعب الحياة رغمًا عن الشقاء الذي احاط بولادته . على انني احياناً أخشى ان يعرف والده به فيسلبني اياه ، ولكنه لن يفوز به ، ولو اضطررت الى قتل الرجل بيدي

للزوم

١- لا

كل لذة في الع
بيتك نظيفاً
بهندامك لان
او دور الصور
الرجال من الع

بشاء الرجال و
تأديب اولادكم
نصحاً من أه
شأنها بصراح
شجعي زوجك

لا تنسي ان ال
والاغراء فالر
بسمة حلوة او

للزوم

١- لا

الحال قادرة
فهي افضل م
يدفعها الى الب
سريعة الانق
لزوجتك بمظا

تجفو في كلام
مستقلاً - ٨ -
حلق ذقنك -

وصايا للزوجهين

للزوجة

١ — لا تكوني مسرفة فكل رجل يرغب في ان يكون مستقلاً مستقبلاً مالياً وهو لذلك يفقد كل لذة في العمل وكسب المال اذ وجد ان ما يجنيه بعرق جبينه ينفق من دون حساب — ٢ — احفظي بيتك نظيفاً مرتباً لان في البيت النظيف المرتب يجد الرجل المتعب راحة وطماً نينة — ٣ — أعني بهندامك لان المرأة التي لا تتقن هندامها ولا تعنى بمظهرها الا عند الذهاب الى زيارة الاصحاب و دور الصور المتحركة تغري زوجها بالافتتان بغيرها — ٤ — لا تبدي اهتماماً بما يوجهه اليك الرجال من العناية الخاصة فكثيراً ما توغر الغيرة والزينة قلب الرجل من دون سبب الا عناية المرأة بشئاء الرجال وعبارات التودد والشئاء المألوفة التي يفهون بها — ٥ — لا تقاومي زوجك اذا شاء أديب اولادك وكان التأديب معقولاً — ٦ — لا تقضي وقتاً طويلاً عند والدتك — ٧ — لا تقبلي صحباً من أهلك او جيرائك في مسائل تتعلق ببيتك قبل ان تتأملي في امورك وتحاطي زوجك في شأنها بصراحة تامة فأنت وزوجك شريكان والرأي الصالح وليد المباحثة الهادئة الصريحة — ٨ — سجي زوجك على الدوام ونشطيه واعربي عن اعجابك بما يجيده — ٩ — كوني بشوشة — ١٠ — لا تنسي ان الامور الصغيرة كبيرة الشأن فكوفي حذرة واعمدي في معاملة زوجك الى وسائل العطف الاغراء فالرجال يكرهون ان يقادوا ولكن يسرون ان يمنحوا ما يطلب منهم بكلمة لطيفة ترافقها سمة حلوة او ألقة في العينين

للزوج

١ — لا تكن بخيلاً مقتراً ، فللزوجة حق في ان تحصل على ما يقوم بنفقاتها وهي اذا دعت لحال قادرة ان تقتصد الى درجة لا تصدق — ٢ — لا تتعرض لشؤون المنزل الخاصة بالزوجة ، هي افضل منك ربة بيت واحكم — ٣ — كن بشوشاً لان الرجل المقطب الحاجبين يشقي زوجته وقد دفعها الى البحث عن الهناعة في غير منزلها — ٤ — لا تجرح شعور زوجتك فالمرأة في الغالب تكون سريعة الانفعال واقرب من الرجال الى التأثر بكلمة قاسية واحدة — ٥ — لا تتوقف عن اظهار محبتك وزجتك بمظاهر مختلفة بمجلة تبتاعها لها او علبة حلوى او حلية صغيرة او كلمة لطيفة — ٦ — لا تنفو في كلامك معها فهي نذتك لخدمك — ٧ — لا تسكن مع اهلها ولا مع اهلك بل انشأ بيتاً مستقلاً — ٨ — لا تسكن في منزلك عائلة اخرى — ٩ — اعن بهندامك ولا تقضي يومين من دون ملق ذقنك — ١٠ — انصف اولادك فاذا لم تنصفهم انحازت اليهم عليك

الزوجة ونجاح الرجل

كتب احد الكتاب في مجلة اميركية قصة صريحة عن حياته الزوجية بين كيف حالت زوجته بينه وبين النجاح التام باستسلامها لاهوائها وضيق نظرها ، وذيل قصته بذكر خمس طوائف من الزوجات يُقعدن رجالهن عن ادراك غاياتهم البعيدة

الاولى — المرأة التي لا تبقى زوجة بعد ان تصبح امًّا فينحصر اهتمامها بولادها وتلهو بذلك عن زوجها وعن مشاركتها في الشعور والرأي والاهتمام بعملها

الثانية — المرأة التي تبقى ابنة لوالديها بعد ان تزوج اي ان افكارها تبقى منحصرة في اقاربها لا تفكر الا بهم ولا تهتم الا بامورهم ولا تعمل الا براهم . فكل رجل بالغاً ما بلغ من الوداعة والمسالمة ، يتمامل حينما يرى ان رأي غيره سائد في بيته لا رأيه وان زوجته تهتم بسواه ولو كانوا اقاربها الا الذين اكثر من اهتمامها به وبراحتها وبشؤونها بوجه عام

الثالثة — الزوجة التي تريد ان تبقى حيث هي . على الرجل ان يقطن حيث مجال العمل والكسب متسع امامه . وزوجته يجب ان تكون جنباً الى جنب معه حيث يرسل وحده . فالمرأة التي ترفض ان تلحق بزوجها او ترميه على البقاء في مدينة دون مدينة ، او مدينة دون قرية ، معها تكن الاسباب التي تبعها على ذلك تضع العراقيل في سبيله وتحول بينه وبين ادراك النجاح الذي يسعى اليه في سبيلهما معاً

الرابعة — الزوجة التي تقابل زوجها بغيره من الرجال فتراه مقصراً عنهم وهي لا تعلم ان كل رجل يختلف عن سائر الرجال وان ما هو موطن ضعف في الواحد قد يكون موضع قوة في الآخر . اما الزوجة الحكيمة العاقلة فتدرس خلق زوجها وتعلم ان سر نجاحه رهن معاونتها وحشها اياه على الاجتهاد والمثابرة ، واغتنابها بما يصنع وفرحها بكل فوز يناله ، وسعيها لملئه على احترام نفسه وثقتها بها ، بما تظهره من احترامها له واعجابها به

الخامسة — الزوجة التي تريد ان تبقى طائشة مع زوجها في دائرة ضيقة من المعارف والاصدقاء وذلك مخالف لما هو معروف عن اسباب النجاح التي منها ان مبلغ نجاح الانسان يكون على قدر ما يحيط به من المعارف والاصدقاء ، وان اتساع دائرة الصدقاء يزيد اختبار الانسان ويوسع افق نظره الى امور الحياة

اذا أردت ان يكون ما تصنعيه من الهلام Jelly مختلف الألوان فلو تني كل جزء منه على حدة باللون الذي تختارينه وقطعيه قطعاً غير منتظمة ، واحشي هذه القطع جميعها في قالب واحد واصنعي قليلاً من هلام الليمون باللبن بدل الماء وصبيه في القالب فوق أجزاء الهلام المختلفة الألوان فتلتحم بعضها ببعض ويصير منه هلام مختلف الألوان

درامة وطنية

بطلتها سيارة نقل

الفن والحث الوطني لا يجتمعان. كذلك يقول بعض النقاد. وحجتهم في ذلك ان الفن اذا خرج من نطاق الاعراب الفني عن خواج النفس و اثر البيئة او الطبيعة فيها الى ميدان العظة الخلقية أو الحث القومي، أصبح نوعاً من الدعاية . والدعاية ابدأ مشوبة بالغرض. غير ان القطع الفنية، لا بد ان تصور او تردد في الحانها والوانها او كلماتها او قسماتها حالة العصر الذهنية والادبية والاجتماعية الذي انجب أصحابها. فاذا كان بعضها مما يثير الشعور الوطني ويوقظه ، أو يحث على ضرب معين من السلوك الاجتماعي ، وكان ذلك عن طريق الايحاء والرمز، تعذر اخراجه من ميدان الفن وحصره حصراً مطلقاً في ميدان الدعاية تقدم هذه الكلمة توطئة لدرامة حديثة ، قد تكون فتحاً جديداً في ميدان الادب المسرحي مع انها تعيد الى الذهن في الوقت نفسه درامات الاغريق الاقدمين من ناحية اخراجها . وهي درامة ايطالية ، اخرجتها جماعة الفاشستين الجامعين في مدينة فلورنسا . والغرض منها دعاية لاريب فيها ، للنظام الفاشستي . ولكن الدعاية فيها نمجية عن سبيل الايحاء والرمز في الغالب. بطلها او بطلتها سيارة نقل ، واستعمل هذه السيارة ينطوي على رمز بديع تتلخص فيه المثل الروحية العليا التي ترنو اليها ايطاليا في بعثها العجيب . بل ان اساليب هذه الدرامة الجديدة واثرها في العين والاذن، يصح ان يكون فاتحة تحول جديد في هذا الضرب من الادب او الفن . فهي تنصرف عن الكلام — الا اليسير منه — الى الاصوات والالوان فتؤلف من ذلك وحدة فنية متناسقة ، غرضها بيان فضل الفاشستية على ايطاليا الحديثة

مثلت هذه الدرامة في الساعة التاسعة من احدى امسيات الربيع العطرة وحضرها عشرون الف مشاهد . وكان مؤلفها الساندور لاسي ، قد اختار قطعة مخضلة من الارض في جوار فلورنسا ، مساحتها نحو ٣٠٠ متر مربع ، امامها نهر الأرنو ، ووراءها آكام توسكانا ترصعها قرى الفلاحين . وجعل مقاعد المشاهدين امام النهر ، يتطلعون عبره الى الساحة التي تجري عليها حوادث الرواية وتتوالى . وكان المشرفون على اخراجها قد حفروا في هذا المسرح الفسيح ، خنادق كخنادق الحرب ، وانشأوا طرقات وعرة كطرقها ، واقام المؤلف في غرفة صغيرة تشرف على الساحة وحوله جماعة من الكهربائيين فجعلوا يديرون مشاهد الرواية بالوسائل الكهربائية . والغرض منها عرض ثلاثة مشاهد على الجمهور كل مشهد منها يمثل دوراً في تاريخ ايطاليا الحديث فالمشهد الاول مشهد معركة من معارك الحرب الكبرى على نهر البياقي بين الايطاليين

والمسويين . والمسويون في هذا الفصل يصلون الجيش الايطالي ناراً حامية : فالمدافع تبرز وترعد ، والايطاليون في حالة يرثى لها من النصب والسغب ، والانوار تتماوج فوق هذا المسرح الطبيعي فتلقي في روع المشاهدين بأس الجيش المهاجم . ثم تتجه الانوار وقد اتخذت لوناً ازرق الى ناحية معينة من الميدان . هو ذا رتل من سيارات النقل يحمل للايطاليين المؤونة والذخيرة . وفي مقدمة الرتل السيارة B. L. ١٨ بطلاة الرواية القنابل منطلقة في الجو على جانبي الطريق الذي يسلكه الرتل وامامه ، والدخان منعقد كالسرادق ، والمقدوفات الجهنمية تقع على الارض فتسفو التراب وتثر الحجارة ولكن الرتل يمضي في سيره البطيء والاضواء تتماوج فوقه وامامه حتى يرى المشاهدون ما يعتور سبيله من العقبات . هنا يتفرق الرتل ، وتأخذ كل سيارة سبيلها الى خندق من الخنادق وتتقدم السيارة B. L. ١٨ الى اشد المواقع خطراً . هل تبلغه وتجد الواقفين فيه موقف الدفاع عن الوطن او تصيبها قبيلة من قنابل العدو ؟

هنا ينتهي المشهد الاول . وفي الفترة يتسلى الجمهور بمشاهدة الالعب النارية اما المشهد الثاني فيمثل ايطاليا تمزقها انياب القوضى بعيد الحرب . فالجو فوق الساحة تتماوج فيه الاضواء الحمر ، رمزاً الى الحركة الشيوعية . وانت تسمع في جمهور المشاهدين ، همسات يريد اصحابها ان ينددوا بها بروسيا السوفيتية وشيوعيتها . ثم ينكشف المشهد عن معمل فيه اضراب وامامه ساحة فيها العمال هائجون مأجورون بفعل الدعاية التي بثها بين صفوفهم زعماء الشيوعية . واذا السيارة B. L. ١٨ التي شاهدناها في المشهد الاول تتقدم نحو المعمل ، وفيها طائفة من شبان الجماعات الفاشستية الاولى . فما يكاد العمال يرونها حتى يلجحوا رمزاً للحرب والاستعباد . فيتقدمون اليها يحملون الاعلام الحمر ويحيطون بها احاطة السوار بالمعصم ، وهم يصيحون ويتوعدون ، والابواق تضخم صيحاتهم حتى يحس الجمهور المشاهدين على مقربة منهم

عندئذ تنشب معركة بين الفريقين . فينهض سائق السيارة ويقف في مقعده ، فنرى ثوبه الفاشستي الاسود ، يختلف عن الجو الاحمر المسردق فوق الساحة ، فيهجم عليه العمال . هل قضوا عليه ؟ ان ذلك لا يهم لان وراءه شاباً آخر يتقدم ليحل محله فيسير بالسيارة الى الامام . هذه السيارة رمز الى ايطاليا ، التي تسير في طريقها ، كائنة العقبات التي تعتور تلك الطريق ما كانت . انها رمز لايطاليا التي لا تقهر . واذا يرى العمال الحمر هذه العزيمة على الماضي ، يتقهقرون ، وعندئذ يتحول الضوء الاحمر الى ضوء مصفر ، فتراهم فيه ضعافاً هزلاً دلالة على هزيمتهم امام حيوية ايطاليا وقوتها

وعند ما يخلو الميدان يظهر فيه اعضاء البرلمان وهم يلبغون ويتنازعون ثم يحمى بينهم
وطيس الجدال فيقتل بعضهم بعضاً، ومن ورائهم رجال الماسون يدسون للدولة الدسائس
وبعد قليل تعود السيارة مخترقة الميدان أمام المعمل ، فيقف سائقها في مقعده
وينادي فتردد الآكام التوسكانية نداه بعد ما تضخمه الابواق . ومما يقوله : لقد
خسرت ايطاليا مائة وثلاثين مليوناً في حاصلاتها الزراعية في المنطقة المجاورة لروما فقط
بسبب دكتاتورية الاشتراكيين ، واقوالاً اخرى من هذا القبيل

لقد اسدل ستار الليل الكثيف على الميدان . وقد انتهى الفصل الثاني . وشعور
الجمهير قد بلغ درجة الغليان . فاذا كانت الفترة الثانية ، زاد غليان الشعور بالموسيقى
الفاشستية تعزفها الجوقات ، وبطوائف من شبان الفاشست منبهة بين الصفوف تنادي
على اعداد من جريدة البوبولو دى ايطاليا تاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وهي النسخة
التي اعلن فيها موسوليني انه تقلد زمام الامر في الدولة . ثم تظهر طيارة على ارتفاع يسير
توزع المنشورات الفاشستية ، فيعجز الجمهور حينئذ عن كبج جماح شعوره وحماسته
اما المشهد الثالث فيمثل دور التعمير وهو فصل يسوده السكون والطمانينة . فالعمال
يعملون في ظل النظام الفاشستي بهدوء ، في المعامل وبسلام مع اصحابها . هوذا الحقول
حافلة بالفلاحين والمزروعات فيها تبشر بخير وفيض وجماعات الفاشستيين في كل مكان ينظمون
ويعلمون وطوائف الشبان والشابات من الفلاحين يرقصون رقص الطرب في الحقول
المشهد مشهد زراعي . لقد رُدِمَت خنادق الحرب ، ومهتدت الطرق الوعرة ، وظهرت

المحارث الحديثة تشق الارض وتعددها للزراع ، وجففت البطائح القديمة الوبيئة
ان عمل التعمير سائر على قدم وساق بحماسة ولا حماسة الجيوش في الحرب والسيارة
١٨ B. L. التي كان لها شأن كبير في الحرب الكبرى ، وفي دور الانتقال من الفوضى الى
النظام ، لها شأن كبير كذلك ، في دور التعمير . ها هي تظهر من جديد على المسرح
الطبيعي ، تحمل للفلاحين ادوات الزراعة واكياس السماد . ولكن طال عليها القدم
فهي تسير في طريقها متعبة ، لطول ما قاسته في خدمة بلادها . واذهي تحاول الوصول
الى جماعة من الفلاحين ، تطلق نفسها الاخير وتقضى في الميدان . عند ذلك ينزل سائقها
ويرديها في حفرة كان العمال قد حفروها في تمهيدهم طريقاً جديدة ، ويهيل عليها التراب ،
لكي تعود الى الارض التي نبتت منها وكلفت في سبيلها . نعم قضت البطلة في خدمة
بلادها ، ولكن السيارات الجديدة آتية وراءها لتم العمل الذي بدأت

وكذلك تنتهي الرواية بهذا الرمز الوطني البديع

رحمة الله عليها

لا وسكارا ويلد

[عني محمود محمد شاكر بنقل هذه القصيدة نقلا حرفياً
وتوخى علاوة على ذلك ان يكون في الترجمة العربية شيء من
الابقاع الموسيقي المعهود في الشعر المرسل باللغات الاجنبية]

خفف الخُطَا إنها قريبٌ تحت الضريب^(١)

واخفض الصوتا انها تكادُ تسمعُ النباتا وهو ينمو

وفرعها الجُثْلُ يلمعُ كالنبر خبا به الصَّدا

تلك التي كانت غريرةً طَفَلَةٌ قد ضمَّها الترابُ

زنبقةٌ كانت بيضاء كالضريب ما علمت يوماً

بأنها انثى فشبَّ عودها في رقة ولين

هذا هو التابوت والحجر الصلدُ يقسو على الصدرِ

دعني انا وحدي اعذب القلبيا فإنها ترتاح

صَهْ صَهْ صَهْ لن تسمع الغناء ولا حنين الناي

كلُّ مُنى حياتي مدفونة هنا سُدُّوا عليها التُّرْبُ



الشاعر محمود خيرى

(راجع مقتطف يوليو ١٩٣٤ صفحة ٥٠٥)
 بعد نشر القصيدتين اللتين نقلناهما عن الشاعر المصري الممتاز
 محمود خيرى في مقتطف يوليو الماضى طلب الينا القراء نشر
 صورته وها هي ذى منشورة هنا نقلاً عن صورة شمسية
 للمصور « البان »

الشباب والسجنوخة

لروبنصن جفرز — شاعر اميركي معاصر

زَكَ دَمَ الشباب الفائر ما بدا لك، فَإِنَّ السَّعَادَةَ لَا تَتَحَقَّقُ لِأَحَدٍ إِلَّا حِينَ يَخْوُضُ
الحياة في الشباب والدم الفوّار إلى شتائها حيثُ يسعُ الرجلُ أن يتلبّثَ
ويتذكّر ما مضى

في الشباب والدم الفوّار فتنةٌ وجمالٌ، ومثل ذلك في السكينة
في بحر الشباب جزرٌ عارضةٌ، ولكن الكبر كلُّهُ جزيرة وقعةٌ عاليةٌ
وفي الكبر وهنٌ غير قليل، ولكن الشباب جميعه حمىٌ دائمةٌ
لأن تلقّت في سكينة إلى آثار صنع الله مملوءة القلب بالمحبة، اجدى عليك فيما ارى
من أن ترتضع ندي الأمّ أو ندي الحبيبة
. . . . لن تجد فيما تملك ابقى عليك من الذكرى

ولكنني حين ابلغ تلك الجزيرة الغبراء واعلوقتها فكل المنى ان تكون بعيني منازل
احبابي الاقدمين — ببحورها وجبالها، فامد الطرف متأملاً في بحر الموت بظماً ابلغ
من ظمأى إلى الكبر

إن الذي يشتدُّ به الظمُّ إلى الحياة هو اشدُّ بعدُ ظمأً إلى الموت

[افرغها في القالب العربي محمود محمد شاكر]

قطعة من الشاهنامه

من كتاب « پيران »

أحد قواد الترك الى « كودرز » أحد أمراء الفرس

ميرزا عباس خان الحلبي صاحب جريدة « اقدام » الفارسية ادب
يجيد اللغتين الفارسية والعربية وله في المقتطف مقالات نفيسة في شعراء
الفرس وقصائد تلمس فيها صور الفرس الشعرية الزاهية . وقد نظم في
اوقات فراغه وايام تشريده السيامي جانباً كبيراً من شعر الفردوسي وألحظ
المقتطف بهذا المقطع وقد قال في الكلمة التي صحبتته : « ولا اشير الى حكمة
شاعرنا في ذم الحرب وحب السلم والحنان بأكثر من قولي انه ما ترك لاحد
من شيء وما نظمي بحجة ولكن « الشاهنامه » أعظم دليل على ذلك »

أندروا « پيران » بالموت وما من يد الموت مفراً لو درى
فانبرى يَحْتال حقناً للدماء ودعا كاتبه كي يسطرا
قال: فابدأ حامداً رب السما واستعذ بالله من شر الورى
أنا ارجوك الهى كراما وفؤادي معلن ما استترا
ان تبديد الحرب من لوح الوجود
وتزيل الضغن عن قلب الجنود

انت يا كودرز ان شئت الخصاص فتروي من دم الترك التراب
فاحسين انك قد نلت المرام ثم سدت الخلق من شيخ وشاب
ثم عمّرت طويلاً الف عام بعد ذا قل لي الى اين الذهاب ؟
ويك قد جندلت من قومي الكرام كلّ ندب فهو نهب للحراب
كم عن الابدان فرقت الرؤوس
ويك فاخشى الله واليوم العبوس

قد تركت الحب ظهرياً ، ألا ترعوي صفحاً فتدري ما الحنان
 هيك احزرت بذى الحرب العلى وارتوى الصارم منكم والسنان
 تحسب السفة اك يُسمي بطلاً ، والكمي الشهم من يفري الجنان؟
 تهت ، فالباسل من بات على كرم والناس منه في أمان
 والشجاع القرم يرى الذمما
 لا الذي عادته سفك الدما

اين فرسان بني الترك الأباة ؟ خلفونا بين شيخ ووليد
 نحن ضحينا لايران السكاة ثم بالطارف جُدننا والتلبد
 فاذا ما حان يوم المسكرات وبه بُلغت اقصى ما تريد
 فاجعل الرأفة من خير الصفات واعصمن كفك عن حز الوريد
 ألتار الميت والعظم الرميم
 تقتل الاحياء ؟ ذا اثم عظيم (١)

اتخال الدهر يبقى ابدا ؟ سوف تفنى ثم يطويك الدثور
 ان بعد اليوم لو تدري غدا لست يا «كودرز» الا في غرور
 لا تدب جسمك فينا كمدا وأعذ روحك وانعم بالسرور
 ويك لا تسرف فما الخلق سدى ودم الانسان لا يشفي الصدور
 سوف تُبقى العار ان خان رداك
 فابق والعار ان الخير عداك

ان ترَ ابيض من الرأس السواد فاعلمن ان الردى قد قربا

أنا أخشى ان نذير الحرب عاد وبشير السلم عنا غربا
 والتقى الجمعان في يوم الطراد ان تطير الهام في الجو هبا
 ويدوم الضغن ما بين العباد وينال السيل بالغدر الزبي
 بعد ذا من يعلم الظافر من ؟
 أيننا يغلبه جور الزمن ؟

واذا لم يجدكم نصحي وهل ينفع النصح اذا شب الغرام
 وخطبت الحرب والمهر الأسل وتجبرت وطلقت السلام
 جئتكم حراً بجندي والخلول وأيت الذل والذل حرام
 فلا تم الجاهل الباغي الهبل إن بنو الترك ارتضوا حد الحسام
 لا يبدن جيوش العجم
 ثم أحمي عرض قومي بدمي

واناديهم جميعاً للهباج يا لقومي جاست الدار الذئاب
 سوف لا يبقى لكم «تخت» و«تاج» فاغمدوا الصارم ضرباً في الرقاب
 وانفروا واكسوا الفضائوب العجاج وليكن قائدكم (افراسياب) (١)
 اشربوا عذب الدما قبل الاجاج ثم خوضوا من أعادينا العباب
 ثم نطوي بعده حلس الحروب
 فيعود السلم عفواً ويؤوب

طهران

ميرزا عباس خان الخليلي
 صاحب جريدة اقدم ومطبعها

(١) احد القواد الذين اشتهروا في التاريخ الفارسي

باب المراسلة والمناسبة

إرشاد لغوي

« في كل جزء كلمة »

الاستاذ عبد الرحيم بن محمود غني عن التعريف لان قراء المقتطف يذكرون له مباحته النفيسة في « نظامنا الاجتماعي » و « تاريخ الفناء العربي » ومساجلاته الادبية واللغوية مع كبار علماء اللغة مثل المغفور له الاستاذ الشيخ محمد الحضري والاستاذ اسعد خليل داغر والاستاذ مصطفى جواد وغيرهم . وها هوذا يقدم لقراء المقتطف سلسلة جديدة من مباحته اللغوية الدقيقة نرجو ان يعيروها عنايتهم العظيمة

(قد مية)

زى الترك وهم مسلمون ينقون لغتهم مما يزينها ويزيدها ثروة أى من الألفاظ العربية ويكتبون صحفهم وكتبهم بحروف لاتينية ولم يخترعوا حروفاً يصطلحون عليها لتدل على استقلالهم اللغوي كتابة كما استقلوا نطقاً . فطلقوا الحروف العربية لأنها غير تركية فهل الحروف اللاتينية تركية ؟ لا . لا . وإذا أرادوا أن يتقربوا من الدول الغربية باستعمال حروفها فأوروبا وأمريكا لا يشعران بأن هذه الحروف المرسومة على طريقتهن وسيلة للتعارف والتقرب . ولترك لغتهم وللمغربيين لغات متقاربة وبينها وبين التركية بعد المشرقين والمغربيين . « عمرك الله كيف يلتقيان » ولكن الغلو في القومية جعل القوم يتركون كل شيء حتى القرآن والآذان !! — وليتهم تركوا الحروف أو أبقوها على ما كانت عليه ولهم في دولة الفرس ودولة الأفغان أسوة حسنة فانهما دائبتان في استعمال الحروف العربية على حين أن الشعوب الغربية تتقرب اليوم إلى العرب ولغتهم . والمستعربون منهم في تكثر وإن كان أكثرهم لا يدينون بدين العرب على أننا نرجو لتركيا حياة حرة سعيدة دائمة

وإذا كان الترك قد غلوا في قوميتهم فقد غلونا نحن المصريين في هجرنا كثيراً من الألفاظ العربية الفصيحة وقد وصلنا أقلامنا بالغربيات الغربيات — وبنات شفاهنأ أولى بمصاهرة أقلامنا

فأطبائنا وهم من خيرة المتعلمين وصحفيونا وهم من نخبة المتأدبين وأساتذتنا وهم من صفوة الربيين وأبنائنا وهم من نجباء الناشئين المتعلمين يجب عليهم أن يتحسسوا من الألفاظ العربية ويعملوا على إذاعتها بألسنتهم وأقلامهم ولا سيما فيما له اتصال بأعمالهم فعليهم أن يذكروا (القدمية) التي استعملها أجدادنا القدامى بدلاً من فزيت ويذيعوها بوسائل الإذاعة كلما اقتضاه المقام

فإن اللفظ فزت (visit) الانجليزى واللفظ فزيت (visite) الفرنسى هما وليدا الفعل اللاتينى فيزيتارى (visitare) ومعناه يذهب ليزور فالطبيب يسعى إلى المريض « وسعيه زيارة » فيتعرف مرضه فيعرفه بأعراضه . والقدمية — المنسوبة إلى القدم — هي اللفظة الجديرة بهذا المعنى .

وقد استعملها أطباء العرب من قبل كما أخبرني صديقي الطبيب اللغوي محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك الآن وقد أثبتنا في معجمه اللغوي الطبي العربي المرتب ترتيب الحروف العربية والافرنجية ولما يطبعه . وقد أطلعني عليه مخطوطاً « وأنا معه »

وإطلاق اللفظ الأجنبي المذكور فزت أو فزيت على الأجرة هو إطلاق مجازي لأن الذهاب بالقدم أو ما ناب عنها كالسيارة إلى المريض تلزمه الأجرة وكذلك يقال في القدمة المستعملة بمعنى الأجرة التي يستحقها الطبيب جزاء سعيه إلى المريض لا كتنه مرضه ومعالجته فقد أطلق العرب المتحضرين (القدمية) وأرادوا لازمها أي الأجرة أو يقال إنهم أطلقوا القدمة التي هي سبب لاستحقاق الأجرة وأرادوا تلك الأجرة — ولهمجاز المرسل علاقات — فتختر منها أهداها إليه سبيلاً . واجعل المقام عليها دليلاً

فاذا قيل ما قولك في الطبيب الذي يسعى إليه المرضى في مستوصفه فهل تطلق على الأجور التي ينالها من المرضى قدميات أيضاً على أنه لم يسر اليهم بقدم ولا بسيارة ونحوها قلت نعم لأنه سار من منزله إلى مستوصفه ليستقبل مرضاه فله الأجر على ذلك لأنه ما سعى سعيه حيث المستوصف إلا لأجل مرضاه وما قصد بذلك إلا القصد من وقته والتيسير على نفسه وعليهم بخدمة كثير منهم في المستوصف وقد لا يستطيع أداء هذه الخدمة في ذيتك الوقت فنفعه إياهم وهم مجتمعون أكثر من نفعه لهم وهم متفرقون والأجر الذي يناله من المريض وهو في المستوصف أقل منه وهو في منزله — فالقدمية محققة في كلتا الحالتين —

ولا يقال إن العرب في حضارتها العباسية والأندلسية قد نقلت معنى اللفظ اللاتيني المذكور أو نقلت معنى وليده الفرنسي أو الانكليزي فقالت القدمية لأن هذا المعنى مما تقضى به الحياة المشتركة في الامم كلها ولو تطابق اللفظان أيضاً في المعنى حقيقة ومجازاً في تلك اللغتين العربية واللاتينية كما تقدم وما يجب أن أوجه إليه أنظار القراء أن المعنى اللاتيني العام قد خصص عند الانكليز والفرنسيين ونحوهم فإني بالبحث في المصادر الموثوق بصحتها رأيت الفعل اللاتيني فيزيتاري (visitare) ومعناه (يذهب ليزور) لصداقة أو لحب استطلاع أو للفحص عن مرض مريض أو لأي غرض كما في الشرح — فتخصيص القدمية بسعى الطبيب إلى المريض أو إلى المستوصف لتشخيص المرضى وعلاجهم المستوجبين الأجر قد وافق أيضاً تخصيص الإفرنج (فزت أو فزيت) بذلك أيضاً . وليس ذلك بسرقة بل هو من باب اتفاق الخواطر فليت شعري هل كان شيطان العرب والافرنج واحداً ؟ فأرجو أن نعمل على إحياء لغتنا في مشارق الأرض ومغاربها فننقيها مما يشينها ولا يزيدنا لأن مفاصل المفردات والأساليب العربية قد زخر بالآلئ الثمينة فلنغص عليها فنستخرجها « وإن أجهدتنا » ونقلد بها أجياد الصحف والمجلات ونلصقها الناطقين بالضاد في كل البلاد

لغة الضاد كاد يقضى عليها في زمان فيه اللغى تتقدم !!

عبد الرحيم بن محمود

النثر الفني

في القرن الرابع : تأليف الدكتور زكي مبارك

تفضل صديقي المفضل الدكتور (زكي مبارك) فأهدي اليّ مؤلفه العظيم (النثر الفني في القرن الرابع) فشكرت له هذا التفضل ، ثم أقبلت على قراءة ذلك الكتاب الحافل ، قراءة معنيّة بموضوعه ، معجب بمادته واسلوبه ، مغتبط بجمال طبعه وحسن تقسيمه ، مقدر لمؤلفه الفاضل غزارة مادته ، وانسجام عبارته ، وطرافة بحثه ، وكمال استيعابه ، مدرك تمام الادراك عظيم جهده وحسن بلائه ، ومقدار صبره ، حتى أبرز هذا الكتاب الجليل في ذلك الثوب القشيب ، في زمن طغت فيه المادة ، وفترت عزائم الادباء

ان كتاباً يتناول موضوع النثر الفني ، في جزأين حافلين ، فيأتي بذلك المظهر الرائع ، هو كتاب خالد ، وان مؤلفاً يتوفّر على بحثه تلك السنين الطوال ، بين متاعب الحياة ، ومشقة الاغتراب ، فيأتي به على هذه الصورة هو مؤلف عظيم

اول ما ينال اعجاب القارئ من كتاب (الدكتور زكي مبارك) هو جلال الحجم ، وجمال الطبع فقلما رأينا في هذا الجيل كتباً تجمع المزيّتين ، ثم يزداد الاعجاب متى رأى القارئ أثر عناية المؤلف بجمال التبويب ، واتساع نطاق البحث ، وتنبع المسائل — في صبر عجيب — بالتنقيب والتقصّي ، حتى يردّ الاشياء الى اصولها ، ثم يبلغ الاعجاب نهايته متى اوغل القارئ في درس الكتاب ، ولم يشعر في ذلك بضجر ولا ملل ، لما يتذوقه من حسن البيان ، ووضوح الفكر ، وجزالة العبارة ، وقوة الروح . واطراد البحث في غير قلق ، وكثرة المفاجآت التي تشيع في جزأي الكتاب ، فتنتقل القارئ من هدوء شامل ، الى جدال قائم ، لا يخلو من الطرافة واللذة ، وفيه من بواعث الشوق ما فيه ، وبخاصة اذا كان القارئ ممن اعتادوا البحث العميق الذي لا يخلو من تعارض الآراء ، فيوازن ويرجع ، وينتهي من ذلك الى رأي حاسم ، قد يكون للمؤلف او عليه ، وهو على كلتا الحالتين شاكر للمؤلف ان اتاح له تلك الفرص التي تجعل للبحث جدّة ، وتمتع القارئ برياضة روحية

لقد وفق الدكتور الى كل اولئك ، واندفع أيمّا اندفاع في تيار المفاجآت والمعارضات ، فما يكاد يخلو رأي يعرض له من مفاجأة او معارضة ، فبينما هو يهاجم صاحب (العمدة) واذا به يكر على (الحريري) او على المعاصرين ، سواء منهم الشرقي والغربي ، وتلك عادة في الدكتور زكي مبارك تحس آثارها في اكثر ما يكتب او يؤلف ، ولعلها نتيجة الدرس العميق او الثقة بالنفس او هما معاً ، وانما ألم بتلك الظاهرة لأقرر بصدها ما اسلفته ، ثم اصارح الدكتور اني برغم ما قررته أراه قاسياً في مواطن كثيرة ، وخير من ذلك العنف في الحجاج اخذ باللين والهوادة ، ومناقشة

لآراء المعارضين في رفق وتؤدة ، ولين يؤثر هذا في قيمة الحق ، ما دامت الحقيقة واحدة ، وفي الناس قرءاء منصنفون ، يطلبون الحق أنسى وجدوه

هذا رأيي في شكل الكتاب ، وأسلوبه الأدبي ، ومنهاجه الجدلي ، وأما موضوعه فطريف جليل ، وهو بوصفه هذا حسنة من حسنات العصر الحالي ، ويد من أيادي المؤلف يسبقها على الأدب والمتأدين ، وما ظنك بكتاب يتصدى لدراسة (النثر الفني في القرن الرابع) ويتقدم الى الناس بهذه السمة ، ثم هو لا يدع شاردة ولا واردة مما يتعلق بالنثر إلا عرض لها ، وخاض فيها ، وأقرأها أو نقاها ، وتناولها بالبحث المستفيض ، على نمط يربي ملكة النقد ، ويذكي روح البحث ويشبع فهم الخاصة ، ويبعث شوق الشادين في الأدب الى درسه والتعمق فيه ؟

ذلك شأن الكتاب ، يعرض للنثر فيوازن بينه وبين النظم ، ثم يوغل في جوف الماضي ، حتى يتناول النثر في العصور الاولى ، ثم يساير النثر في جميع أعصره ناقداً مؤرخاً ، حتى يصل به الى القرن الرابع ، وهنا يبسط شعاع بحثه ، فيلم بأشتات الموضوع ، ويبين كيف صار النثر صناعة فنية ، وكيف سيطرت المحسنات على اقلام الكتاب في ذلك العصر ، وما الذي دفعهم اليها ، او دفعها اليهم ، وهل كان لها عناصر في ادب القرون الخالية ، وما قيمة تلك العناصر ، ثم يتناول اعلام النثر الفني بالدرس العميق ، وما خلفوه من آثار ، أو سنتوه من سنن ، ومن قفى من الكتاب على آثارهم ، ومقدار توفيقهم او ابتكارهم فيما اتبعوا من سنن او ابتكروا من حديث ، واذا كان دأبه الدرس العميق والبحث الدقيق فقد خصص (المقامات) وهي ابرز مظاهر النثر الفني بجانب كبير من عنايته ، وترجم لبديع الزمان ، والحريري ، ووازن بين مقاماتهما ، اسلوباً وموضوعاً ، ولم يهمل في هذه الناحية (ابن دريد) بل عني به ، وعدة مبدع (فن المقامات) واستاذاً (لبديع الزمان) نتيجة خطأ الحقه (بالحريري)

وهكذا يسير الاستاذ في دراسته تحذوه ثقافة واسعة ، ويدفعه شوق شديد لخير الأدب والمتأدين . وهناك ظاهرة تبدو في غير موضع من الكتاب ، هي تعصب الدكتور للثقافة العربية وانحيازه الى جانبها ، فقد ذهب مؤرخو الأدب الى اعتبار المقامة فارسية الأصل ، فجاء الدكتور برأي جديد ، يرد المقامة الى اصل عربي ، ثم هو يقرر في الجزء الاول (صفحة ٢٠٣) ان (بروكلان) يرى ان فن المقامة نقل من العربية الى الفارسية ويقول عقب ذلك (وكان الدكتور ضيف يرى العكس) ، ولكن المؤلف الفاضل ، لم يعرض أدلة الرأيين ، وكأنما جاء برأي (بروكلان) معزراً فحسب لما ذهب اليه ، ثم لم يجد بعدد من حاجة الى عرض ادلة الطرفين ما دامت نظرية (بروكلان) تساير نزعة المؤلف التي حاول اثباتها ، وهي نزعة مشكورة على كل حال ، غير ان الانصاف يوجب علينا ان نقول ان بحوث الدكتور (ضيف) ما زالت تقرر ان المقامة فارسية الاصل ، وان الحق كما يبدو لنا يؤيد هذا الرأي ، سواء أكان مبتدع المقامة (بديع الزمان) ام كان مبتدعها (ابن دريد) ،

اذ الاول فار
هذه ناه

بذلك ، كما لا

١ - يا

في صفحة (٣)

العرب لم يكن

حياة أدبية

نص جاهلي

ونحن نو

الكتاب الك

ذلك ، بل قر

بحر الجاحظ

العرب شاعر

الاساتذة الم

الشعر الرائع

بأن القرآن

ومهما يكن ل

آدابهم ان خ

بها ، وحسب

الباحثين ، و

للدكتور بو

التي رويت ب

في سوق عكا

٢ - ر

ما نسب من

في رده على ق

الدفع الذي

يكون كلام

٣ -

اذ الاول فارسي الاصل ، والثاني أقام بفارس ، وكتب لابني (ميكال)

هذه ناحية مما لا نوافق الدكتور عليه ، ونعتقد ان الاعجاب بعمله الجليل لا يمنعنا ان نجهر
بذلك ، كما لا نعتقد ان ذلك الاعجاب يحول بيننا وبين ايراد المسائل الآتية : —

- ١ — يأخذ الدكتور على مؤرخي الأدب العربي ما رآه غصاً من قيمة الادب الجاهلي ، ويقول في صفحة (٣٣) من الجزء الاول (لقد اتفق مؤرخو المسلمين ومؤرخو اللغة العربية وآدابها على ان العرب لم يكن لهم وجود ادبي قبل النبوة) ، ثم يستطرد في ذلك حتى يقرر ان للعرب قبل النبوة حياة أدبية تسمح لهم بفهم القرآن الكريم وتدبر معانيه ، ثم يغلو في ذلك حتى يقرر (ان القرآن نص جاهلي) ثم هو الى جانب هذه الغيرة المتقدمة ينفي ما اثر من النثر الجاهلي حتى خطبة (قس بن ساعدة) ونحن نوافق الدكتور على ان للعرب قبل البعثة ادباً له قيمته ، وأنه لولا ذلك لما خوطبوا بذلك الكتاب الكريم الذي امرهم ان يتدبروا آياته ، ونقرر للدكتور ان مؤرخي الادب العربي لم يناقضوا ذلك ، بل قرروه بالعبارات الصريحة التي لا تحتمل تأويلاً ولا تكديباً ، هذا (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) يقول بصدد الكلام في اعجاز القرآن (بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم اكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، واحكم ما كانت لغة ، واشد ما كانت عدة) وهؤلاء اصحاب (المجمل) من الاساتذة المعاصرين يقولون (والامة العربية كغيرها من الامم القديمة الراقية لها ادب ممتع ، فيه الشعر الرائع ، والنثر البليغ) الى غير ذلك مما قرره مؤرخو الادب في القديم والحديث ، اما القول بأن القرآن الكريم (نص جاهلي) فقول نسمح لنفسنا برده ، مهما يكن في هذا التعبير من التجوز ، ومهما يكن له من اثر في الحكم على الآداب الجاهلية ، وحسب العرب دليلاً على سمو ملكاتهم ، وحياة آدابهم ان خوطبوا من الله بذلك الكتاب المجيد ، وان فهموا مقدار بلاغته ، وسمو عبارته ، فاعترفوا بها ، وحسبهم بعد هذا ما اثر لهم من النثر الرصين ، وان قلّ المأثور منه ، لعوامل لا تخفى على الباحثين ، وبعد فلا يكفي للحكم بانتحال كل النثر الجاهلي ان يشك الباحث في بعضه ، وقد نسلم للدكتور بوضع بعض ما نسب الى بعض الكهان ، ولكننا لانوافق البتة على نفي خطبة (قس بن ساعدة) التي رويت بطريق واضح لا سبيل الى الطعن فيه والتي سمعها النبي عليه الصلاة والسلام من (قس) في سوق عكاظ قبل البعثة ، كما روى ذلك ابو الفرج في (الاغانى) بسند صحيح عن (ابن عباس)
- ٢ — ردّ الدكتور (في صفحة ٦٩ من الجزء الاول) على المسمو (ديمومين) غصه من قيمة ما نسب من الخطب (لعلي كرم الله وجهه) ، وهذا رأي له مكانته ، ولكن صديقي الدكتور يعتمد في رده على قول الجاحظ (ان خطب علي وثمان كانت محفوظة في مجموعات) وما ارى هذا كافياً في الدفع الذي قام به الدكتور ، وقد يكون لديه وجوه اخرى اقوى من كلام الجاحظ ، فاذا يمنع ان يكون كلام (علي) كرم الله وجهه مجموعاً في صحائف ثم يزيد فيه من اراد المزيد ؟
- ٣ — قرر الدكتور ان عدة مقامات (بديم الزمان) خمسون لا (اربعائة) معتمداً على دليلين

اولهما ان (البديع) كان يعارض (ابن دريد) والاحاديث المنسوبة الى (ابن دريد) اربعون حديثاً ، والمعارضة تقتضي التقارب دائماً في الكمية وثانيهما ان مقامات البديع لم يحفظ منها سوى خمسين (كما قرر الدكتور)

واحب ان يسمح لي الدكتور بمناقشة هذين الدليلين ، فاما ان (البديع) كان يعارض (ابن دريد) فامر متوقف على الجزم بأسبقية (ابن دريد) في فن المقامات ، وهذا رأي غير متعين التسليم ، اذ لبعض الناس ان يشك في المشابهة بين المقامات وما نسب من الاحاديث الى (ابن دريد) ، وله ان يسأل: اين هي الاربعون حديثاً المعزوة اليه ؟ واذا لا يلتقي الاجواباً يشوبه شيء من الشك ، ويعتمد كثيراً على مجرد الترجيح . واذا لم نقطع بأسبقية (ابن دريد) لم يعد لنا الحق في جعل البديع معارضاً له ، وبالتالي لا يلزم ان تكون مقامات (البديع) خمسين لانها تعارض احاديث (ابن دريد) وعدتها اربعون ، واما ان ما حفظ من مقامات البديع خمسون مقامة فحسب ، فلا يصلح دليلاً حاسماً على نفي ما عدا هذه الخمسين ، لانه لا يبعد ان يقول الرجل اربعمائة مقامة ، ثم تقصر لسبب ما على تدوين خمسين وبعد فلا يمنعني ما اراه قابلاً للمناقشة فيما قرأت من الكتاب ان اعلن عظيم إعجابي به موضوعاً واسلوباً ، وان اهنيء الادب بهذا الكتاب الحافل ، واهنيء صديقي الدكتور بهذا الاثر الخالد

محمود علي البشبيشي
المدرس بدار العلوم العليا بمصر

الطرق العملية لدراسة

الحياة العقلية

تفضلت مكتبة المقتطف فقدمت كتابنا الجديد الى قرائها في العدد الماضي بعبارة بالغة حد الرقة وجميل التقدير . ولو انها بالغت في المديح والاطراء بما اخجلنا فلحضرة كاتبها الفاضل منا جزيل الشكر . وانا لنحمد له جث الطلاب والمدرسين على اجراء ما فيه من تجارب وارسال نتائجهم اليها وان كان الكتاب كما قلنا في مقدمته « قد وضع بحيث يستطيع كل انسان ان يجد فيه المدى الذي يوافقه ويناسب معلوماته » . اما ما كان يتوقعه من تقديم دراسة تفصيلية لهذه الاختبارات مع بعض الامثلة التي تسهل فهم الموضوع ولم يجده ، وطريقته التي اشار علينا بملاحظتها في كتابنا الثاني وهي البدء بالمبادئ الاولى ثم التجارب حتى يعرف المجرى ما يقوم به — فليعذرنا ان خالفناه فيها . فنحن لم نخرج البتة على الطريقة التي يعمل بها جميع علماء النفس التجريبيين مما يجده في الكتب الا فرنجية . وقد قصدنا هذا النظام الذي وضعنا به الكتاب ولم يأت عفواً لأن الخبرة الطويلة بالتدريس والاساليب الحديثة فيه عودتنا ان نبدأ بالتجارب غير مقيدن برأي او نظرية تسهل على

المجرب طبخ نتائجه حتى تتفق معهم ثم نوجه الطلاب بالاسئلة المرتبة المتدرجة نحو الطريق التي يوصلهم الى النتائج بأنفسهم ومعرفة تطبيقها والكتاب ملئ بها . وبعد ان ينتهي المجرب من الكتاب كله نعطيه مفتاحاً مستقلاً نلخص فيه اهم القواعد والنتائج المقطوع بصحتها ليقابل به نتائجه ولعلّ الكاتب لم يقرأ مقدمة كتابنا . وقصدنا ايضاً ان يتأخر المفتاح عن الكتاب ستة شهور ولعله لاحظ ان كل ما في الكتاب وضع لغرض خاص من نوع الورق والكتابة المقلوبة والهوامش التي في بعض الصفحات وليست في البعض الآخر واختلاف بنط بعض السطور عن الأخرى . وكنا نرجو كذلك ان لا يترجم كلمة Subject بموضوع لأنها تأتي بهذا المعنى في الانشاء ومواد الدراسة فقط اما في علم النفس فتدل دائماً على المجرب أو الذات أو الشخص أو الفاعل أما الموضوع فترجمة Object . والكلمة لم ترد في كتابنا بهذا النص كما قد يفهم القارئ ولا يسعنا بعد هذا الا ان نقدم جزيل الشكر وعظيم الامتنان لحضرة الكاتب المحترم ونرجو ان يكون لكتابنا المقبلة نصيب من ملاحظاته القيمة

نظرة الحكيم ومظهر سعيد

المقتطف في اللغة

كنا قد شهدنا بعض الكتاب في الصحف يخطيء كلمة « المقتطف » زاعماً ان الفعل « اقتطف » لا وجود له في اللغة العربية ، معولاً في ذلك على عدم وجود الكلمة في معاجم اللغة ، وليس الامر في ذلك كله يرجع الى المعاجم ، اذ ان هناك كلمات كثيرة سقطت على مؤلفيها ان يلتفتوا اليها ، فلم تحظ منهم بتدوين

من هذه الكلمات « اقتطف » التي نحن بصددھا ، فقد رأيتها في بيت للاعشى وهو :

لما امالوا الى النشاب ايديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف

من قصيدته التي مطلعها :

لو ان كل معد كان شاركننا في يوم ذي قار ما اخطأهم الشرف

وقال ابن رشيق في مستهل العمدة « اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب واقتطف زهر

الآداب . . الخ »

وقال الحريري في مقامته الرملية « حتى خلت ان الجن اختطفته او الارض اقتطفته . . الخ »

فها نحن ألاء نرى الكلمة عريقة في العربية مقتطفة من دوحها ، ودليلنا قول الاعشى ،

وناصرنا ومعزز دليلنا استعمال الحريري وابن رشيق ، فليس ثمة مجال لتخطئة « المقتطف » الذي

هو اسم مفعول من « اقتطف »

فالمقتطف — وان لم تقتطفه المعاجم — مقتطف من اللغة العربية ومن ثمراتها الطيبات

عباس حسان خضر

مكتبة المقتطف

رسالة من باريس

بمشر فارسي

كتب شرقية جديدة

باللغة الفرنسية

الزواج عند مسلمي العرب

٢٩٩ ص من القطع المتوسط

Le Mariage chez les Musulmans en Syrie par Khalid Chatila
Editions Geuthner, Paris.

ألّف هذا الكتاب صديقي الاستاذ خالد شتيلة وبه نال شهادة الدكتوراه من السوربون . وقد صنع اليّ جيلاً اذ استند الى كتابي « العرض عند عرب الجاهلية » فيما كتب ، غير مرة ان كتاب الأستاذ شتيلة يعدّ معاونة (Contribution) ذات شأن على فحص احوال الزواج وشرائطه عند المسلمين . وهو على ثمانية أبواب : الباب الاول في الخطبة ، والثاني في اعمار الطرفين و « البلوغ » ، والثالث في قبول الطرفين واهلهما ، والرابع في مساواة الطبقات الاجتماعية ، والخامس في المسهر ، والسادس في موانع الزواج ، والسابع في اشكال الزواج الخارجية ، والثامن في طريقة عقد الزواج وبعد فان الاستاذ شتيلة أحسن في البحث عن احوال الزواج لهذا العهد . غير انه لم يذهب فيما كتب عن الجاهلية والاسلام مذهباً بعيداً ، والسبب في ذلك أنه لم يعول على الكتب العمدة . فانك لتراه يرجع الى تأليف المؤرخين والعلماء المعاصرين أمثال الخضري والالوسي وزيدان وعبدالله عفيفي واليافي وعلي عبد الواحد وبشر فارس من الشرقيين ، وجود فروى دوما ميين وغيره من المستشرقين ولقد كان يحقّ بالاستاذ شتيلة ان يرجع الى الاصول ، ومن الغريب انه لم يعول على الشعر الجاهلي (لا شعراء النصرانية ولا الجاهليين ولا الجهمرة وما اليها) ولا على الاغاني ولا طبقات ابن سعد ولا كتب الأدب والتاريخ (الا أنه اعتمد على سيرة ابن هشام وكتاب التاج وكتاب الحيوان) فتراه ان تكلم على المهر في الاسلام لم يستند الا الى القرآن ولسان العرب . وقد رجع الى حديث البخاري مرة واحدة والى منهاج الطالبين مرة واحدة (لا الاصل ولكن الترجمة ؟)

والذي ترتب على هذا النقص في البحث ان الاستاذ شتيلة لم يجمع لاشتات الموضوع زمن الجاهلية والاسلام ، ولربما اضطربت آراؤه الحين بعد الحين ل فراغ يديه من النصوص . ومما يزيد في

ذلك الاضطراب انه يدأب دأبه في تطبيق نظريات جماعة من علماء الغرب على عادات العرب الاولى . فالذي قاله في مساواة العرب يتطلب المراجعة، والذي قاله في اسباب المهر يقتضي التحقيق، واما الذي قاله في «المفاخرة» فغير وافٍ . وما ضرَّ الاستاذ شتيلة لو قصر موضوعه على الزواج لهذا العهد في الشام^(١) . فوالله لو فعل لكان عزز لباب بحثه ونحى عن كتابه مواطن الضعف

مقدمة ابن خلدون

٢٢٦ ص من القطع المتوسط

Les Prolegomènes d'Ibn Khaldoun Editions Geuthner, Paris.

هل هنالك حاجة الى تعريف ابن خلدون ، ذلك العَلم ؟ ان قراء المقتطف يعرفون عنه الشيء الكثير ولا سيما ان مقدمته متداولة والمباحث عنه مستفيضة متداركة بالعربية واللغات الاوربية وبعد فان مقدمة ابن خلدون في المحل الاول عند علماء الفرنجة . وقد فطن المستشرقون الى عظمة شأنها ورفعة مكانتها من زمان . فقلبوا النظر فيها واشادوا بذكرها وقد نقلها (البارون دي سلان) الى اللغة الفرنسية حوالي سنة ١٨٦٠ . فاقبل العلماء من مستشرقين وفلاسفة واجتماعيين واقتصاديين على المقدمة يبحثونها ويستمدون منها آراء ويوازنون بينها وبين غيرها من المؤلفات التي تجري مجراها حتى اصبحت نسخها عزيزة نادرة

واليوم عزم ناشر فرنسي على طبع ترجمة المقدمة مرة ثانية . فظهر الجزء الاول وسيليه الثاني والثالث ومثل هذا العزم يدل على أن مكانة ابن خلدون ما تزال في صعود وكيف لا تكون كذلك وهو مرسل طائفة من الآراء العصرية في الاجتماع والاقتصاد . ثم ان في طيات مقدمته ما يسمونه اليوم « الفكر الحديث » ذلك الفكر الذي اخذ به علماء النهضة الاوربية وبلغ به (ديكرت) الى الغاية المثلى . ومن دعائم هذا الفكر : نبذ النقل وتحليل الوقائع وتعليل الحوادث . فكان عقل ابن خلدون صفوة عقول العلماء الاقدمين وبأكورة عقول العلماء المحدثين

سامان باك والمقدمات الروحانية في الاسلام الايراني

تأليف لويس ماسينيون ٥٢ ص من القطع المتوسط

Salmàn Pāk et les prémices Spirituelles de l'Islām Iranien par Louis Massignon.

اشتغل الاستاذ لويس ماسينيون (عضو المجمع اللغوي الملكي) بالتصوف زماناً حتى اصبحت العالم الثقة بهذا الفن ، واليه تنصرف الانظار فيه وعنه تؤخذ مسائله . وها هو ذا يؤلف رسالة في منشأ

(١) كان يحسن بالاستاذ شتيلة ان يجدد لنا الشام . فان الشام La Syrie شيء غامض وبخاصة من بعد دخول فرنسا بلاد سوريا

الشيعة والتصوف مستنداً الى سيرة سلمان الفارسي . وفي هذه الرسالة نقد دقيق لتلك السيرة . وقد انتهى المؤلف في بحثه الى الزيادة في تقويم المنهج الذي به تميز الاحاديث الصحيحة من الموضوعية . وطريقه في هذا أن يرتب رواة الحديث بحسب نسبهم وقبائلهم

دولة اشتراكية لاحد عشر قرناً قبل المسيح

٢١٢ ص من القطع المتوسط

Un socialisme d'Etat onze siècles avant J.—Ch. par Serge Dairaines
Editions Geuthner, Paris.

يعلم الذين اطلعوا على تاريخ الاقتصاد السياسي ان الالماني (فردريك لست) List طلع على قومه بمبدأ قائم على القومية سمّاه الاقتصاد القومي ، وذلك في القسم الثاني من القرن الماضي وهذا فرنسي عالم بالمصريات يدعى (ديرين) يخبرنا بأن ذلك المبدأ كان شائعاً في مصر لاثنتين وثلاثين قرناً قبل (فردريك لست) في عهد (أمينوفيس الرابع) الفرعون الشاب ان بحث الاستاذ (ديرين) ناهض على خص الاوضاع المصرية لتلك العهد البعيد والحياة الزراعية والاقتصادية والتجارية ومسئلة السكينة والامتلاك ومختلف المعاملات داخل القطر وخارجه والذي يستخرج من هذا البحث ان الفرعون (وهو ممثل الدولة على الاطلاق) كان يناسب بين الحاجة والانتاج ثم يجعل الانتاج يسير مقدرة القطر عليه ثم يوزع الوان الانتاج بحق وعدل . ومما يجب ذكره ان العدل كان غاية لا دافعاً . وهذا مظهر من مظاهر الانسانية لم يبرز في العالم قبل ذلك العهد ثم ان المؤلف في خاتمة الكتاب اخذ يعارض اقتصاد مصر ايام الاسرة الثامنة عشرة بنظريات (لست) و (روبرتس) وغيرها من الاقتصاديين الذين قالوا بالاقتصاد القومي

معاونة على بحث النزاع القائم بين المسلمين في الهند

٢٥٢ صفحة — من القطع المتوسط —

Contribution à l'Etude du conflit Hindou—Musulman par Rahmat Ali
Editions Geuthner, Paris.

يفحص الاستاذ رحمت علي صاحب هذا الكتاب عن السبب الذي من اجله يضطرب جبل المسلمين في الهند وتختلف كلمتهم حتى انهم لا يقدرّون على ان يخرجوا بنتيجة من بين ايدي الانجليز يرى الاستاذ رحمت علي ان مسلمي الهند على ثلاثة مذاهب : مذهب المحافظين الذين يعتمدون على لندن ويستمدون منها عزهم وجاههم ، وهؤلاء المحافظون من الخاصة والامراء . فذهب القوميون المائلين ميل غاندي المتعصبين له ، وهم بين الخاصة والعامة ورئيسهم الدكتور أنصاري . ثم مذهب المفكرين المتشيعين لآراء (كارل ماركس) ابي الشيوعية في اوربا ، وهؤلاء المفكرون يعملون

ضطراب الهند وانكسار شوكتها بما بين جنبيهما من المناقضات الاقتصادية . والظاهر ان صاحب الكتاب ممن يذهب هذا المذهب الاخير

على ان هذا الكتاب وان يعمل لبث العدل في الهند ونشر الوفاق فيها لينشئ بعض المشكلات واعظم هذه المشكلات شأنًا مسيرة الاسلام لمذهب (كارل ماركس)

هذا وان في ثنايا الكتاب ما لا يشرح الصدر ، ذلك ان المؤلف لا يخفي ان السبب في استحكام لشقاق بين الهندوس والمسلمين يرجع — آخر الامر — الى نزاع ديني (ص ١٤٠) مستور على الغالب

الدراسات الاسلامية

تأليف جودفروي دومبامين — ١٠ ص ، من القطع المتوسط

Les Etudes Musulmanes (La Science Française)

par Gaudefroy Demombynes, chez Larousse, Paris.

هذه رسالة صغيرة تبسط للقارىء تاريخ الدراسات الاسلامية في فرنسا منذ القرن السابع عشر حتى اليوم . وتمتاز هذه الرسالة بالجمع بين الاجمال والاستيعاب في اسلوب سهل مشرق . ولا غرو ان تأتي هذه على ذاك النحو من الحسن ، فان صاحبها من أولي العرفان ومن ذوي البسطة في فن الاستشراق

التاريخ العام للفنون (الفن القديم)

Histoire Universelle des Arts (L'Art Antique)

Librairie Armand Colin, Paris, 1930.

ان الدراسات التي تتعلق بالفن من بنايات وتصوير ونحت ونقش وما إليها قد بلغت في السنين الاخيرة مبلغاً عظيماً . وذلك يرجع الى ان علماء الاجتماع انتهوا في مباحثهم الى ان الفن من اكبر الدلائل على عقلية الامم

والكتاب الذي نحن بصدده يبحث عن منشأ الفن وقدمه . ففيه فصل طويل عن آسيا ومصر يمتد من التاريخ الغابر حتى سنة ٣١٠٠ قبل المسيح اي في الزمن الذي لم يكن الحكم بين يدي الاسر . ثم فصل يمتد من سنة ٣١٠٠ الى ٢٠٠٠ ثم آخر من سنة ٢٠٠٠ الى ١٠٠٠ ثم آخر من سنة ١٠٠٠ الى عهد المسيح . اذ لكل من هذه المدد خصائص تذهب مذهبين احدهما مصري والآخر آسيوي . ثم ان فن فلسطين ملتقى هذين المذهبين

وهذا الكتاب يبحث عن روما واثينا اذ يفرغ من آسيا ومصر . وان بحثه ليمتد في الزمان امتداده هنالك . وخير ما في هذا البحث الاخير مقابلة بين اتجاه فن الرومانيين واتجاه فن الاغريقين قائمة على الفحص عن الآثار والظواهر على اختلاف انواعها

كتابان في الحيات

امامي كتابان طُلب مني تقديمهما وهما في موضوع يكاد يكون واحداً وارجو ان يكون النقد ما يرد بالنقد اي بلا تحامل ولا افراط في المدح او بيان المساوىء دون غيرها والكتابان بحسب تاريخ ورودهما على رئيس تحرير المقتطف هما الكتابان الآتي ذكرهما

الكتاب الاول

المصطلحات العلمية العربية وما يقابلها باللاتينية والانجليزية والفرنسية لاسماء الحيات

بقلم جرجس فيلوناوس عوض ودكتور رمسيس جرجس

واني استأذن الزميل الفاضل قبل كل شيء في ان اضيف اداة التعريف الى كلمة دكتور واقول الدكتور رمسيس جرجس فان كلمة دكتور وان تكن غير عربية فان اللغة العربية تقتضي اضافة اداة التعريف اليها في هذا الموقف فهي رتبة علمية يحملها كثيرون من الاطباء والادباء ولا يحق لاحد ان يكتبها كما يشاء . اما الآن وبعد هذه المداعبة فاني ابدأ في نقد الكتاب فأقول :

هو كتاب جمع فيه المؤلفان الفاضلان اي الاب والابن - ولكليهما شأن في عالم الادب والعلم - اسماء الحيات على انواعها فذكرنا نحو الف من الانواع وذكرنا لكل واحد منها اسم الجنس واسم النوع باللاتينية فعربا اسم الجنس وترجما اسم النوع ثم ذكرنا لكل واحد منها الاسم العربي والانجليزي والفرنسي خباء كتاباً وافياً ذكرت فيه انواع كثيرة من الحيات المعروفة . اما الاسماء العربية فانهما ذكرنا نحو مائتي نوع منها مما ورد في كتب اللغة والمؤلفات العربية ولم يقصرا في ايراد الاسماء العلمية احياناً اما اعتمادهما فكان على الفصيح منها ولما كان يتعذر ضبطها دائماً فقد جمعها في آخر الكتاب مضبوطة بالشكل الكامل . ومما يعود عليهما بالشكر انهما اوردا جميع المصادر التي اخذا عنها وهي المصادر العربية والاعجمية فنسبا لكل قائل قوله شأن كبار العلماء

ويتعذر على الناقد ان يفي هذا الكتاب حقه بلا بحث دقيق قد لا يجده فيه حامة القراء ما يلذ لهم وانما على الناقد تبعة كبيرة فعليه ان يبين اوجه النقص ولا سيما في كتاب علمي مثل هذا الكتاب فاستأذن العالمين الفاضلين في الاشارة الى بعضها فمنها ما يأتي

الطبع - كنت اود ان يكون احسن من هذا فالطبع ليس نموذجاً من النماذج الحسنة التي نراها عادة في ايامنا فالحرف صغير جداً والحروف قديمة يتعذر تمييزها ولو كان الحرف اكبر قليلاً وجديداً لجاء الطبع احسن من ذلك

التعريب - لا بأس به وكنت افضل ان لا يتصرف المؤلفان في تعريب الكلمات العلمية بل يتركانها كما هي مثال ذلك فانهما عربا الكلمات الآتية Typhlops و Typhlopidae و Uropeltis و Boidae و Boinae بما يأتي : طفلبية وطفلب ويربلط وبوية وبونية واني افضل تعريبها بما يأتي طفلبية

وطفل-بس ويتر بلطس وبويده وبويته . الا ترى انهما اضطررا في تعريب ما يأتي على الصورة الآتية Viperidae و Viperinae فبردية وفبرينية لكي يميزا بين الفصيلة والعشيرة واني افضل تعريبهما كما يأتي فبريدة وفبرينة وذلك للتمييز بين الفصيلة والعشيرة وهو بحث دقيق جداً قد لا يلذ لعامة القراء ومما يؤخذ عليهما في التعريب هو انهما عربا Naja haje ناغة حية فان هذا الحرف الذي عرباه بالغين هو ياء اي انه Naia haie وكثيراً ما يكتب كذلك فيجب ان يعرب بالياء كما فعل صاحب دائرة المعارف فانه عربهُ بالياء وحوّله عيناً وكتبه ناعية ونقل ذلك عنه المؤلفان ولا أدري لأي سبب كتبه صاحب دائرة المعارف بالعين فقال ناعية ولعله ظنّ اما خطأ او صواباً ان اصل الكلمة ناعية فهذا الاسم الجنسي ليس لاتينياً في الاصل ولعلّ اصله ناعية فيكتب باللاتينية على هذه الصورة كما تكتب كلمة يسوع Jesus واحياناً Iesus فيقال يسوع ويوسف وبايزيد وهاليويا وامثال هذه الالفاظ وهي كثيرة . وعلى كل فانه لو كان لفظ هذا الاسم الجنسي كالجيم فانه ينبغي كتابته بالجيم لا بالغين ولكنه ليس جيماً بل ياءً فينبغي ان يقال في تعريبه ناية او ناعية

الترجمة — ترجمة الانواع حسنة جداً وانما اختلفهما في بعضها مثل Carinata, Carinatus في ص ١١ فانهما ترجماهما بالقاعي ثم عادا في ص ٤٥ و ترجماهما بالجؤجؤي وهو الصواب فهذه الكلمة نسبة الى Carina وعربيتها الجؤجؤ وهو من الطائر والسفينة الصدر اي انه هذا الشيء الناشز فيهما ويكون في صدر الطائر واسفل السفينة الى صدرها . كذلك اختلفهما في ترجمة Class فقد ترجماهما بالفصيلة ولا اعلم احداً ترجمها كذلك فالفصيلة هي Family وعليه جمهور المؤلفين في مصر والشام وهي التي سماها المؤلفان بالعائلة وهذه عامية ويفضل اهلها . ومما اختلفهما فيه ترجمة Blindworm snakes ص ٨ فقد ترجماهما بالحيات العمياء وافضل الحيات العمي فجمع اعمر واصم وابكم واحمر وابيض وعمي وصم وبكم وحرر وبيض ومثله جمع عمياء وصماء وبكماء وحمراء وبيضاء فيقال الحيات العمي والصم والكريات الحمر والكريات البيض . وفي سورة البقرة « صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ » الآية فان قيل هذا للعاقل وللمذكر قلت قد جاء في غيرها لغير العاقل وهو « ومن الجبال جُدد بيض مختلف الوانها وغرايب سُودٌ » الآية . واني لا انكر انه يجوز ان يقال حيات عمياء لكن العرب لم يقولوا قط الحيات او الافاعي الصماء . بل قالوا الصمّ فلو وصفوا الحيات بالعمي لسموها بالعمي قياساً على الصمّ تحقيق اسماء الحيات — لا ارى تحقيقاً دقيقاً في اسماء الحيات فقد ذكرنا حيات في اميركة واسترالية ووضعنا لها اسماء عربية فصيحة وردت في كلام العرب ولا دليل عندنا على ان العرب كانوا يعرفون اميركة او استرالية قبل تدوين لغتهم فاذا كان هذا الوضع استعارة لهذا الغرض فلا بأس به ولكن ينبغي ان يشار الى ذلك لكي يعلم انه استعارة او انه احياء لالفاظ مهجورة لا يعرف ما هي تمام المعرفة . ففي مجمع اللغة العربية علماء محققون لا يجوز عليهم مثل ذلك فورود كلمة فصيحة في كتب اللغة لا يكفي لتعيينها اسماً لنوع من الحيات بلا تحقيق دقيق . واذكر ان عالمين من علماء هذا المجمع

تتبعاً كلمة فونكس واخوانها مدة خمسة وعشرين سنة حتى عثرا عليها في اساطير الاولين وقادها صاغرة ذليلة الى كتب اللغة فأماهلها لا يكفيهم قولنا ان العنظ مثلاً هو النوع الفلاني من الافاعي في استرالية والعرب لم تعرف استراليا قبل تدوين لغتها وامثال ذلك كثيرة . على ان المؤلفين الفاضلين فضلاً كبيراً في جمع ما جمعه من الالفاظ التي وردت في المؤلفات العربية ولكن الجمع وحده لا يكفي وارجو من حضرة المؤلفين الفاضلين ان لا يظننا نقدي هذا تحملاً بل هي حقيقة اقولها . ثم ان كثيراً من انواع الحيات التي ذكرها لها اسماء علمية مختلفة هي حقيقة لنوع واحد جاء باسمين مختلفين

الكتاب الثاني — الثعابين

بحث يتناول الثعابين عامة والانواع المصرية خاصة

تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين

اطاعت على هذا الكتاب قبل نشره وقدمته للقراء بالكلمة الآتية :

كنت في سنة ١٩٣١ كثير التردد الى حدائق الحيوانات في الجزيرة . واتفق ان دخلت يوماً لزيارة صديق المرحوم محمود حمي السمعاع فلقيت عنده شاباً منهمكاً في فحص الافاعي فظننته موظفاً في الحدائق ثم علمت انه ليس موظفاً فيها بل في وزارة المعارف وفي المنيا وقد اخذ اجازة انقطع اثناءها الى موالاة زيارة حدائق الحيوانات والتوفر على دراسة الحيات ولا سيما ما كان منها ساماً قتالاً كالأسود والناشر والافعى القرناء وذوي الطفيتين وغير ذلك . وانقضت اشهر لم أره فيها ثم مالبث ان سافر الى بلاد الانجليز وغيرها لزيارة حدائق الحيوانات ومتاحف التاريخ الطبيعى والدرس على الخبيرين بهذا العلم في ممالك اوربة المختلفة وعاد ثم زارني في احد الايام ومعه نسخة مخطوطة من كتابه هذا . وانه ليس في ان اقدم هذا للجمهور ولا ادري كيف اقدمه واقدم مؤلفه واني لا اعرف قدر ما يعرف عن هذا العلم

فقد قرأت الكتاب من اوله الى آخره فوجدته مكتوباً بلغة علمية فصيحة واسلوب علمي سهل المنال . مما يثبت ان اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمي لمن اراده . هذا من جهة اللغة . اما العلم فقد بحث المؤلف بحثاً وافياً في الحيات ولا سيما ما كان منها في مصر وما جاورها . وذكر اسماءها العربية الفصيحة والعامية واذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الاسم العامي . وبحث في الحيات والانسان وانواع الحيات واشكالها بوجه عام ثم بحث في تشريحها ووصفها وعضلاتها وحركتها واسنانها والسلاخها ودورها الدموية وتزاوجها وتناسلها وغير ذلك . ثم بحث في السم وانواعه واعراض التسمم والمصل في علاج الملدوغين . ثم ذكر انواع الحيات واحداً واحداً ووصفها وصفاً علمياً دقيقاً وهو مجهود بذله المؤلف لم يسبق اليه في اللغة العربية

واني لأهنته عليه واقدم هذا الكتاب النفيس الى الجمهور مثلاً باهراً من التخصص العلمي في الشرق ينتفع منه أبناء العربية انتفاعاً قائماً على أساس علمي صحيح . اه

على ان ذلك لا يمنع ان ابيّن اوجه النقص منها استعمال الحية والثعبان والافعى كلها الفاظ مترادفة مع انه ذكر اسماءها العامية في محلها فقوله الثعابين في عنوان الكتاب ينبغي ان يكون الحيات فالحية اسم عام تشمل الثعابين والافاعي فالثعابين عادة الطوال من الحيات والافاعي القصار ومن امثلة الثعابين هذه الحية المعروفة بالحنش الاسود وهي طويلة جداً اما الافعى فقصيرة ومن الخطأ الفاحش ان بعض الجرائد تكتب احياناً انه قتلت افعى طولها خمسة امتار فالافاعي في الشام ومصر قصار لانكاد الواحدة تبلغ المتر الواحد في طولها ولكنها سامة جداً . ومما يؤخذ عليه قوله الثعابين العمياء واظن لو قال العمي كان اصح وقوله الزواحف واظن لو قال الزحافات بصيغة المبالغة كان اصح وقد وقعت نفسي بما يشبه هذا الخطأ فقلت القوارض وكان ينبغي ان اقول القراضات وهذا بحث طويل لا متسع له هنا هليوبوليس امين المؤلف

الغذاء والمطبخ والمائدة

حياتنا العائلية

تأليف بسيمة زكي — ثلاثة اجزاء — مجموع صفحاتها ٦٥٠ — مطبعة وديع ابو فاضل

هذا الكتاب دليل عملي لسيدة البيت في صنع مختلف الوان الطعام والفطائر والمربيات، ومرشد صحي لتغذية الطفل والمرضى بالبول السكري وغيرهم ممن يحتاجون الى الوان خاصة من الغذاء . فالجزء الاول خاص بالفطائر الحديثة ولكنه يحتوي على مقدمة مسهبة في الغذاء وما يجب ان يشتمل عليه من العناصر ومقدار ما يحتاج اليه الانسان كل يوم منها وتلخيص حسن في الجهاز الهضمي والغدد المتصلة به . ثم يليه فصل عام في المائدة وترتيبها والاستضافة على مائدة الافطار والغداء والعشاء وآداب المائدة . ثم كلام عام على الفطائر والمواد التي تصنع منها والقوالب التي تفرغ فيها والموازين والمسكايل المختلفة . ويلى ذلك عشرات من الوصفات للبسكويت والكعك والبودنج . وكل وصفة تحتوي على مقادير دقيقة للمواد التي تتألف منها وطريقة خلطها وطبخها وما الى ذلك ، بحيث لا يحتاج سيدة البيت الا الى يسير من العناية والدقة في اتباع التعليمات لتفوز بالنتيجة المتوقعة . والجزء الثاني يشتمل على الطبخ الحديث والوان الطعام القومية . وفيه مقدمة كذلك في اصول الطبخ وقواعده واجهزة المطبخ الحديث ومواد الطبخ من لحم وسمك وطيور وحبوب وما شا كل . اما الفصل الثاني فيشتمل على وصفات لصنع الحساء (الشوربة) والصلصة والوان المكرونة والبيض والخضراوات والاسماك والسلطات وما يصنع من لحوم العجول والبقر والضأن والطيور والارانب . وفي الفصل الثالث وصفات للوان القومية المختلفة التي اشتهرت بها المانيا وفرنسا وايطاليا والنمسا وغيرها من البلدان . وقد خصّصت الفصل الاخير بفن تقطيع اللحوم والطيور على المائدة والادوات

اللازمة لذلك . اما الجزء الثالث ففصول منها فصل خاص بتغذية الطفل وآخر بصنع المرببات والمسكّرات وآخر بالالوان النباتية والالوان التي تصلح للمرضى بالسكر . والكتاب من اوله الى آخره غرضه النفع العملي ، فهو مكتوب بلغة مفهومة ومزيّن برسوم وصور كثيرة . ونحن نعرف طائفة من سيدات الغرب او سيدات الشرق المتقفات بثقافة الغرب ، يلتفتن في مقدمة ما يلتفتن اليه في المجلات الاوربية والاميركية الى ما تحتوي عليه من الوان جديدة للطعام او الفطائر او المرببات ويحرجن عملها بايديهن مع ان بيت الواحدة منهن لا يخلو من طبّاخ ماهر ، ولا يجدن في ذلك غضاضة بل يجدن لذة عظيمة
فذنن نشكر للآسة بسيمة عنايتها باخراج هذا الكتاب على هذا الوجه المتقن ولا نغالي اذا قلنا انه يجب ان يكون في متناول كل سيدة شرقية

المطبوعات الجديدة

[اجتمعت لدينا طائفة من نقائس المطبوعات الجديدة ولكن ضاق عنها نطاق هذا الجزء فأرجأنا النظر فيها الى الاعداد القادمة فنكتفي الآن بذكرها]

« كتاب الام » بحث فيه للدكتور زكي مبارك طبع بمطبعة حجازي بالقاهرة
« علم قياس الثلثات » تأليف توفيق علوش طبع بمطبعة السلامة في حمص سورية
« مشا كل العصر الحديث » تأليف عطية الجداوي طبع بمطبعة الصاوي درب الجمايز مصر
« كيف تعالت بروسية » تأليف المؤرخ احمد رفيق التركي وترجمة العقيد بهاء الدين نوري

[Schistosomiasis (Bilharziasis) by Dr. Rameses Girges. Published by John Bale Sons, and Danielsson Ltd. London.]

[The Tarriff of Syria 1919 - 1929 Norman Burns M. A. American University of Beirut.]

[A Controlled Experiment on Rural Hygiene in Syria. Stuart C. Dodd Ph. D. American University of Beirut.]

[Criteria of Capacity for Independence Walter H. Ritsher. American University, of Beirut.]

« الاسلام والحضارة العربية » تأليف محمد كرد علي طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ونشرته لجنة الترجمة والتأليف والنشر

« الشخصيات البارزة » تأليف الدكتور احمد فريد رفاعي . نشرته مطبعة المعارف بمصر

« ايام بغداد » تأليف امين سعيد نشرته مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

« أثر قديم في العراق » تأليف كوركيس حنا عواد طبع بمطبعة النجم بالموصل

« احسن ما كتبت » مختارات لاكابر كتاب العصر . نشرته دار الهلال بمصر

« علم الطبعة » الجزء الرابع في الكهرباء تأليف هاشم الفصيح وتوفيق المنجد وانطون الجنادي مطبعة الترقى بدمشق

« قصص الاطفال » لكامل كيلاني — قصة جلفر في جزئين . نشرتهما مطبعة المعارف بمصر

« اساطير الف يوم » لكامل كيلاني — ابو القاسم المصري وقصص اخرى . نشرتها مطبعة المعارف بمصر

قد يك
ان تقول
الارتقاء ،
كل فرصة
العجيبة في
الطويلة . ف
في أقل من
وسرعة الملا
٤٤١ ميلا
الصوت ،
الطائرة الخ
بين الماظه
وليك
كبيراً بين
بها الطيارو
او طول
والطائرات
التجاري
ودقتها في
الوصول
الطائرات
(١)
ينهب اليها
جزء

باب الاختصار العلمانية

(١) رحلة جوية الى فلسطين

ذهبيًا « جامعاً بين أهم مميزات الطائرة — وهي سرعة الانتقال وقواعد الاقتصاد في ما تنفقه من وقود وما يجب ان تتقاضاه من الركاب وطائرات شركة مضر للطيران جامعة لهذه المميزات على اوفى وجه

لقد اتيج لي من قبل ان اقطع المسافة بين لندن وباريس مراراً بالطائرة فلم الق في رحلتي السابقة من راحة في السفر ، او عناية ولطف من قبل رجال الشركة في مكاتبها المختلفة اكثر مما لقيت في رحلتي الاخيرة بين مصر وفلسطين . فواعيد العمل في جميع تفصيلاته مضبوطة لا تتقدم دقيقة ولا تتأخر دقيقة . وعبارة الرجال من سائق السيارة الى سائق الطائرة الى رجال المكتب جميعاً عبارة كلها لطف وادب . حتى ولو جفا كلامك قليلاً على غير قصد منك . بل ان سائق الطائرة نفسه يهتم بالركاب في اثناء الطيران ، فيكتب على قطعة من الورق احياناً اسم المكان المحاذي للطيارة على الارض وسرعته وعلوها ، لان حديث العهد بالطيران لا يستطيع ان يتبين جميع هذه الحقائق من مراقبة الخارطة

قد يكون من قبيل الامتهان لعقول القراء ان تقول اليوم ان الطيران ارتقى او انه اخذ في الارتقاء ، وبوجه خاص لان الصحف تشير في كل فرصة سانحة الى فعال الطيارين وآثارهم العجيبة في السرعة والتحليق وقطع المسافات الطويلة . فاجتياز المسافة بين لندن وملبورن في أقل من ثلاثة أيام من قبيل المعجزات ، وسرعة الملازم آجلو الايطالي عند قطعه ما معدله ٤٤١ ميلاً في الساعة ، تكاد تقرب من سرعة الصوت ، وعلى ذلك فقد لا يدهشهم ان تحتاز الطائرة الخاصة بشركة مصر للطيران المسافة بين المازة والد في ثلاث ساعات

ولكن يجب عليّ ان انبه الى ان هناك فرقاً كبيراً بين الطائرات التي تصنع للسباقات ، ويلطير بها الطيارون لغرض خاص ، كالتفوق في السرعة او طول المسافة من غير وقوف او غير ذلك ، والطائرات التي تصنع لتنظيم خطوط الطيران التجاري وهي التي يعتمد عليها في امانة جانبها ودقتها في المحافظة على مواعيد القيام ومواعيد الوصول وراحة المسافرين في اثناء الطيران . فهذه الطائرات تصنع في الغالب لتكون « وسطاً

(١) دعي رئيس تحرير المقتطف الى القدس لاقاء محاضرة في نادي جمعية الشبان المسيحية فيها فاختار ان يذهب اليها طائراً وفي هذا المقال وصف لرحلته الجوية

وزادت سرعتها فاذا هي في الجو متجهة الى بور سعيد ، فبلغناها في نحو ساعة — والمسافة بين المأظة وبور سعيد مائة ميل في خط مستقيم — مارين فوق بلبس وفافوس وبحيرة المنزلة

لم تقف في بور سعيد ، لان جميع الركاب كانوا قاصدين الى فلسطين ، فبلغنا البحر المتوسط مارين فوق أحياء المدينة الغربية فرأينا بيوتها وشوارعها ومدخل القنال وبور فؤاد ، كأنها رقعة يدي عليها الطفل بالحجارة والمكعبات بيوتاً ويخطط مدناً . ثم اتجهنا الى الشرق الشمالي وسرنا محاذين للشاطئ ، صحراء سينا الى يميننا والبحر الى يسارنا ، فررنا قبالة العريش ورفع وغزة الى ان بلغنا الرمال التي الى جنوب يافا . فتحوّلت الطائرة الى اليمين محلقة فوق منطقة البرقال المشهورة فرأينا « البيارات » واستطعنا ان نقبين مبلغ اشجارها من النمو ، باختلاف ما يظهر من التربة الحمراء بين الاشجار ورأينا الخطوط المنتظمة التي غرست فيها . وفي الساعة الحادية عشرة والرابع نزلت الطائرة في مطار اللد ، والمسافة بين مطار المأظة ومطار اللد في الخط الذي سرنا فوقه نحو ثلاث مائة ميل

هناك خضت جوازات السفر وفتشت الامتعة ، او سئل الركاب عما فيها ، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف كنّا في القدس فتناولنا طعام الغداء فيها على أحسن حال

وقد سرنا في الخط نفسه عند العودة ، فطارت بنا الطائرة في الساعة الواحدة والنصف تماماً من مطار اللد فبلغنا المأظة في الساعة

او مقياس السرعة والعلو . ولما كان السفر بالطائرات يقع احياناً حوالي الظهر او بعينه ، يحدد كل راكب في كرسيه علبة طريفة تحتوي على قطع من الصندوتش الفاخر وفاكهة جيدة وزجاجة ماء معدني مع الاداة التي تفتحها وكأساً من الورق ولوحاً صغيراً من الشكولاته . وعلى العلبة رقعة كتب عليها « مع تحيات شركة مصر للطيران » . واني على ما اذكر الآن دفعت ثمن مثل هذه العلبة في اوربا نحو اربعة شلنات . ومما يحسن ذكره هنا اننا قرأنا صحف مصر الصباحية يوم الاثنين في اثناء عودتنا بعد ظهر ذلك اليوم ، لان الشركة كانت قد وضعت في الطائرة الذاهبة صباحاً الى فلسطين نسخاً منها . واغرب من ذلك انك قد تكون وحدك بين الركاب قاصداً الى القدس فتقدم لك الشركة مع ذلك سيارة خاصة تسير بك من اللد الى مفرق فشرقة مصر للطيران من هذا القبيل مثل يضرب في اتقان الخدمة ورعاية المسافرين

أفطرت في بيتي بالقاهرة في الساعة السابعة صباحاً وذهبت الى فندق الكونتنتال حيث تنتظر سيارة الشركة فركبتها مع مسافرين آخرين الى مطار المأظة في الساعة انسابعة والنصف فبلغناه حوالي الساعة الثامنة حيث وزن كل من الركاب وأمتعته ثم فتشت هذه الامتعة من قبل مصلحة جمارك مصر وبصمت جوازات السفر . ودخلنا الطائرة فتحرك الركاب العالي في الساعة الثامنة والرابع تماماً . درجت الطائرة على الارض مئات من الأمتار ثم رفعت ذيلها

المشاهد المختلفة كان لك ذلك من دون ان يؤثر عملك في موازنة الطائرة على شريطة ان تكون في مقعدك عند ما تمهم بالنزول على الارض . ولهوية الطائرة طريقة بديعة تستطيع ان تدخل لها الهواء من ثقب انبوب بالقدر الذي تريده . وقد يسأل القراء عن الدوار فأقول لهم انني لم احس في وقت ما بشيء منه ولا راودتني نفسي عليه ، ولا احس به احد من الركاب في الرحلتين وان الطائرة كانت اثبت جداً في الجو من القطار او السيارة التي تسير في طريق غير تامة الاستواء . ولولا اعلام من الغيم احياناً وقرى وحقول مررنا فوقها لما عرفنا ان الطائرة تتحرك على الاطلاق — فذكرني بذلك بصندوق اينشتين العظيم — والطائرة مع ذلك تسير بسرعة مائة ميل في الساعة

وهذا الخط منتظم ثلاثة ايام في الاسبوع هي الاثنين والاربعاء والجمعة . تطير الطائرة في كل من هذه الايام من المظلة في الساعة الثامنة والرابع صباحاً الى فلسطين وتغادر مطار اللد في الساعة الواحدة والنصف من اليوم نفسه عائدة الى المظلة . ولا اعرف مواعيد الوصول الى حيفا او القيام منها لأن حيفا نهاية هذا الخط ولم أطر اليها . اما اجرة السفر فستة جنيهات في الرحلة الواحدة و ١١٤٠ قرشاً ذهاباً واياباً وهي لا تزيد على اجرة السفر بالسكة الحديد علاوة على انك توفر وقتاً وتعباً ونوماً في القطار وغباراً في الصحراء

استدراك

في الصفحة ٥٠٩ س ٧ كلمة (الاذان) بالذد وصوابها (بالهمن)

الخامسة الاً ثلثاً ، لأننا وقفنا في بور سعيد لنزول سيدة وصعود مسافر قادم من بورسعيد الى مصر . وقد حلت الطائرة اذ كانت محاذية لغزة الى علو ٧٥٠٠ قدم فرأيناها كأنها تحتنا مع أن بعدها عن الشاطئ ليس يسيراً

وطيارات شركة مصر للطيران التي تسير على هذا الخط نومان احدهما يحمل ستة ركاب والاخر يحمل ثمانية . وقد قيل لي انه ينتظر قريباً وصول طائرة تحمل ستة عشر راكباً ولكل طائرة محركان قوة كل منهما ١٣٠ حصاناً ، احدهما كاف للطيران بها ولكن بسرعة اقل ، فاذا تعطل احدهما في اثناء الطيران كان الآخر كافياً لاتمام الرحلة ، او على الاقل للنزول على الارض من غير تعريض الطائرة وركابها لخطر ما . ولكن هذا التعطيل لا يحدث ، لان العناية كبيرة جداً بالمحركات وامتحانها قبل كل سفر

اما المقاعد فغاية في الراحة ، وهي من النوع الذي يتحرك ظهره ليستطيع المسافر ان يتمدد قليلاً اذا شاء . واذا كان صوت المحرك يزعج المسافرين فله قطن يضعه في اذنيه ، ولكن صوته لم يزعجني قط ، فقرأت واكلمت وتفرست في الاماكن التي مررنا فوقها وصوت المحركات لا يصرفني عن كل ذلك ولا احس منه بأي ضيق . بل اذا شئت ان تقف في الطائرة منعجباً — لأن سقفها لا يزيد علوه على متر ونصف — لتطل من نافذة غير النافذة التي قربك على

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

صفحة	
٣٩٧	أثر العلم الحديث في خلق الفرد والجماعة : لفؤاد صرّوف
٤١٢	سر الحياة في الكربون : لنقولا الخداد
٤١٨	السيكلوجية الحديثة : ليعقوب فام
٤٢٢	أنا تول فرانس : لعلي كامل
٤٣٣	الإنسان الأخير (قصيدة) لسيد قطب
٤٣٥	عبقريّة محيطة : لأديب عباسي
٤٤٠	الشباب والإشباب : للدكتور شوكت موفق الشطبي
٤٤٧	غرائب الاعداد : لقدري حافظ طوقان
٤٥١	الأثير لغز الدهور
٥٥٤	تقرير هادو : لعلي حسن الهاكم
٤٦١	تأسيس القاهرة : للكاتبين كرسويل وترجمة سيد محمد رجب
٤٦٨	مصطلحات علم النفس : لمحمد مظهر سعيد
٤٧٠	السهم والاغنية (قصيدة) للشاعر الاميركي لونغفلو
٤٧١	سير الزمان : العوامل المعنوية : للدكتور عبد الرحمن شهبندر — سبل الانتعاش
	الاقتصادي — فرنسا والاصلاح الدستوري
٤٨٧	ملكة المرأة : ضامانات الحب : لحنا خباز — الحمية في الامراض : للدكتور عبده رزق —
	قصص الحياة : رجلٌ وغدٌ — وصايا للزوجين — الزوجة ونجاح الرجل
٥٠١	حديقة المقتطف : درامة وطنية : بطلتها سيارة نقل — رحمة الله عليها : لاوسكا ويلد —
	الشباب والشيخوخة : لروبنصن جفرز — قطعة من الشاهنامة : لميرزا عباس الخليلي
٥٠٩	باب المراسلة والمناظرة * ارشاد لغوي : لعبد الرحيم بن محمود : النثر الفني : لمحمود علي البشيشي .
	الطرق العمالية : لنظلة الحكيم ومظهر سعيد . المقتطف في اللغة : لعباس حسنا
٥١٦	مكتبة المقتطف * الزواج عند مسلمي العرب : مقدمة ابن خلدون . سليمان باك والمقدمات الروحانية .
	دولة اشتركية لاحدى عشر قرناً قبل المسيح . معاونة على بحث النزاع القائم بين المسلمين في الهند .
	الدراسات الاسلامية : التاريخ العام للفنون : كتابان في الحيات : الغذاء والمطبخ والمائدة : كتب جديدة
٥٢٥	باب الاخبار العلمية * رحلة جوية الى فلسطين